

میشال زرفا کو

# جسٹ انسپکٹران



[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)

^RAYAHEEN^

دار الروائع

## عيد الغرام

\*

فينيسيا بجسد ايطاليا وعروس الأدرياتيك وجنة الشعراء  
والرمامين والنساء الساحرات ، وصاحبة التاريخ الثائر الغني في  
العصور المتوسطة ، كانت قد استيقظت تلك الليلة وقبرت  
كأجل ما تكون المرأة الحسنة التي تلقي ساقها وذراعها في  
الموج الهاديء لتشارك أهلها جميعاً في هيامهم بهذين الاسمين ،  
رولاند وليونور ، في الليلة الخامسة من شهر حزيران سنة ١٥٠٩ ،  
إذ سهروا حتى مطلع الفجر يكرمونها ويعتقدون أنها رمز  
الحرية وطاسم الحب وسحر الهوى والغرام وكل ما في بلادهم من  
شبه جميل !

وما كان أجمل فينيسيا في تلك الليلة وقد كشفت عن مفاتنها  
الساحرة وبرزت تحتال تيهاً فوق عرشها المسائي المتموج والبدر  
في كبد السماء ينظر إليها وقد اصفر وجهه حسداً وغيره فسبح  
في بحره الزمردي وهام في عالم اللانهاية . كانت المدينة المائية



العائمة على الأمواج المتدفقة إليها من البحر ، أشبه بكتلة من نور  
وقد جعلت الألوف من الزوارق المشهورة باسم الغندول تسير في  
عرعتها الكبرى ، فامتزج الرجال بالنساء في تلك الزوارق  
وتلألأت أنوار مصابيحها فوق سطح الماء . فكأنما النجوم قد  
هبطت إلى البحيرات بل كأنها البحيرات قد استحالت إلى سماء .

وقد اجتمع في ساحة سانت مارك تحت تلك الصواري التي  
رفعت عليها علائم الجمهورية ، حسان الفتيات وقتيان البحارة  
وفريق عظيم من الشعب على اختلاف طبقاتهم من كل من ينوح  
ويترنم ويبش ويتجهم ويحب ويتالم . والأجراس تدق وقد  
سكرت فينيسيا بخمرة الحب وامتزاج غناء الغرام بأناشيد الصلاة  
فلا تجد بين ذلك الشعب غير الجاهر بالدعاء ، الداعي بالهناء ،  
الذاكر اسمي رولاند وليونور بالحمد والثناء .

وكان هناك رجلان واقفان في شرفة القصر القديم ينظران  
إلى فرح الشعب في حقد كين ، فيرملان نظرات نارية مناججة  
تشق عما يضطرم في قلبيهما من الضغينة والكراهية ، بينما كان  
الناس يبتهجون ويدعون بطول عمر الخطيبين ويدكرون من  
حين إلى حين اسمي رولاند وليونورا

ذلك أن مدينة فينيسيا تعيد نفسها بأنها ستحتفل غداً بخطبة  
العاشقين في سراي الدوج ، والدوج لقب رئيس جمهورية فينيسيا  
في ذلك العصر . وسيحلف رولاند وليونور بين الوفاء أمام الجمع  
العظيم من أهل المدينة بعد أن خلفهاها ممساً منذ عامين دون أن

يستشهداً غير قلبيهما وغير بدن السماء وأمواج البحر .

كان رولاند ابن الدوج كانديانو نصير المظالم وغوث المصطهد  
وحامي الضعيف . ولقد طالما أنقذ المظلومين من برائى مجلس  
العشرة ، أو المجلس السري الغاثم الخطر الذي كان يمقد في  
فينيسيا مؤلفاً من عشرة أشخاص والذي اشتهر بشدة أحكامه  
وقسوة أعماله حتى جرت فظائمه ومظالمه بجري الأمثال .  
وطالما هنأ أركان هذا المجلس الهائل الرهيب .

وكانت ليونور فخر فينيسيا بجمالها وهي من أسرة رندولو  
الشهيرة بتاريخ الايطاليين . وكانت آية في الرقي الإنساني وحب  
الفقر حتى كانوا يلقبونها بعذراء العذارى وحبية الأطفال  
وشقيقة المظلومين والمحرومين . وكانت تحب رولاند حباً مفرطاً  
حتى لقد روي عنها أنه جاءها يوماً مصوراً شبيهاً بالشمس منها  
أن تأذن له بتصويرها تخليداً لجمالها وقتلتها ، وكان هذا المصور  
لا يرسم في ذلك العهد غير أبدع الصور فينال صاحب الصورة  
أبعد شهرة ، فابت ليونور أن تأذن له بتصويرها وأجابته أن  
صورتها كقلبها لا يخالها غير خطيبها .

ولما كان سرور أهل فينيسيا بهذا الزواج لأنهم كانوا يعانون  
من مجلس العشرة واستبداده مالم يعان بعضه في أيام السلطان  
الأحمر عبد الحميد ، فكانوا يرجون أن تصحح الأسرتان بعد  
اتصالهما بقرى الزواج خير عون للناس على ذلك المجلس ، فلما  
أفراد هاتين الأسرتين قد اشتهروا بمقاومة الظلم والاستبداد .

وبينا كان الناس يهتفون للخطيبين خفتت أصواتهم فجأة وانقبضت نفوسهم بعد ارتياحها وظهرت عليهم علامات القلق ، ذلك أنهم رأوا جاسوساً دنا من المكان المعدة لرمائل الوشايات فالتقى فيه رسالة ثم توارى يخفيه الظلام . فهلمت قلوب الناس إشفاقاً على ذلك المنكود الموشى به لما يصفونه من جور مجلس العشرة . ولكنهم نسوا ذلك بعد منبهة وعادوا إلى الهاتف عند أبواب قصر الدوج حيث كان الدوج نفسه وإمرأته سيلقا بضربان خوفاً على ولدهما لما رأياه من تظاهر الشعب بالميل إليه فاجعلاً يبتهلان إلى الله كي يصوته من كيد الحاسدين .

وقد سبق لنا أن قلنا إنه كان في شرفة القصر رجلان ينظران إلى هذه المظاهرات نظرات البغض والحقد . وكان أحدهما طويل القامة تدل ملامحه على الكبرياء وقد ضم يده كأنه يتهدد أولئك المتظاهرين ، وقال بصوت أجش : أفرح أيها الشعب المستبد فتندرف غداً الدم بدل الدمع . ألا تسمع يا بيبو ماذا يقولون ؟ إنهم يهتفون لرولاندين ! اسمع .

قال : إني سامع أيها السيد ألتباري وأعترف أن اسمي رولاند وليونور خلقا للانضمام كما خلق صاحبها للاتحاد بالزواج !  
- أسكت !

- كيف ذلك ؟ أما تقرررت خطبتها غداً وتقرر زواجها بعد اسبوع ؟

- يا الهول ! إني أؤثر أن أمزق صدرها بخنجر من أن يتم هذا الزواج !

- إذن أنت تكره صديقك الحميم رولاند !

- إني أكرهه لأنني أحبها وقد ضيق هذا الحب أخلاقي !  
ليونور ، لماذا رأيته ؟ ليونور ، لماذا عرفته ؟ ليونور ، لماذا أحبته ؟ ألا لمن الله تلك الأحشاء التي حملتني فحملتني معي الشقاء الذي امتزج بدمي منذ خلقت !

وقد جعل هذا الرجل الهائل ، وهو أحد رجال مجلس العشرة ، يبكي الأطفال وهو إذا سار في الأسواق فرّ الناس منه رعباً لاشتهاره بالعنف والقسوة والصلابة . فابتسم بيبو ابتسامة تدل على الاحتقار والخوف ثم نظر إليه وقال : أصغ .

وكانت في تلك الحين فرقة من النساء الجميلات ينشدن نشيد غرام تردد فيه اسم ليونور بأشجى الأصوات ، فأصغى ألتباري لهذا النشيد حتى إذا سكنت النساء عن الغناء هاج هياج المجانين واندفع في سلم الشرفة ! فأسرع إليه بيبو وقال له : سيدي ، ماذا تصنع ؟ فلم يجبه ألتباري بشيء ولكنه أراه خنجراً مجرداً . فقال بيبو بينه وبين الطريق وقال له : ماذا عزمتم أن تفعل يا سيدي ؟ ألملك مازح ! ألا تعلم أنك تدعى ألتباري وأنتك تقود عشرين ألف جندي وأنتك قادر على خلع الدوج ولبس تاجه ، وأن موت الناس وحياتهم بين شفتيك ، وأنتك قابض على زمام



يجلس العشرة المائل ؟ ومن كانت بيده هذه السلطة يا سيدي  
أيتداني إلى الإقْداء بالصوص . كلا يا سيدي ، إن رولاند  
خطيب ليونور لا يجب أن يموت بالخنجر .

فوقف ألتباري مبهوراً وقال له : ماذا تعني بما تقول ؟ فأخذ  
بمبو بيده وذهب به إلى آخر الغرفة . وهناك مدَّ يده وقال له :  
انظر !

فنظر ألتباري إلى حيث أشار بمبو فرأى ترعة ضيقة مظلمة  
لا زوارق فيها وقد شيدت على إحدى ضفتيها سراي الحاكم ،  
وعلى الضفة الأخرى سجون فينيسيا الهائلة التي يملأ منظرها  
القلوب ذعراً .

وبين هاتين البنائتين صلة متصلة بالأعماق تشبه الناوروس  
تتصل بين مكان الظلم ومكان التعذيب والتنكيل . وقد وقعت  
أنظار ألتباري على هذا الموصل الرهيب فتراجع خائفاً مذعوراً  
وقال :

— جسر التهنيدات !

قال : بل جسر الموت ، فإن من يمر به لا يبدُ أن يودع الحب  
والحياة والرجاء .

فتندى جبين ألتباري بالعرق وقد أدرك قوة هذا الانتقام  
ثم ظهر عليه كأنما ضميره قد رزح تحت ثقل هذه القطاعة التي  
تنتل له . ولكنه ما لبث أن انتفض كأنه قد تغلب على هذا

الضمير فقال : بأية حجة نقبض عليه ؟ فقال له بمبو : إذا كنت  
تريد الحجة فاتبعني . قال : إلى أين تسير بي أيها الشيطان ؟ فلم  
يجه بمبو ولكنه سار به إلى الطرف الآخر من الشرفة الواسعة  
وقال له : انظر .

وقد أشار إلى قصر جميل بُني مقدّمة من رخام « كارارا »  
التيمن وتلوت أعدته وهي من الشب فكانت خيالها تظهر  
فوق ماء الترعة جميلة فائقة ! فلما نظر ألتباري إلى حيث أشار  
بمبو اندهل وقال : أنشُر إلى قصر المحظية أمباريا ؟

قال : نعم . فإذا كنت تريد سبباً للقبض على رولاند ففي  
هذا القصر وعند هذه المحظية نجد السبب فلا يسلمك رولاند  
غير أمباريا .

— كيف ذلك ؟ هل هي تكرهه إلى هذا الحد ؟ قال : بل  
إنها تحبه حباً أشدَّ خطراً عليه من الكره ، وهي تتعذب في هذه  
الليلة عذاباً لم يلقَ بعضه الشهداء ، فإنها تحبه حب عبادة كما تحب  
أنت ليونور . وقد بلغت منها الغيرة أشد ما بلغت منك وهي  
تراقب هذه الحلقة كما تراقبها أنت وتحاول من الانتقام نفس ما  
تحاوله أنت ، فهم يا سيدي إذا أردت أن تحول دون زواج  
رولاند .

\*

## عشاق فينيسيا

\*

هدأ الضجيج المائل الذي أحدثته الأعياد الشعبية وانقضت مظاهرات تلك الليلة وسادت السكونية ، وأم أهل فينيسيا وأغلقت المدينة أبوابها فلم يسمع فيها غير صوت المياه المتعوجة في ممراتها التي كان النسيم يعبث بها ويداعبها فتتلون كشمع إلهة البحر في أساطير الأولين ، وقد سطع القمر في كبد السماء منيراً بيئاً وعكس أشعته فوق تلك الأمواج فتراقصت بها على هينات النسيم .

أقفلت أبواب المنازل كلها في المدينة الساكنة ما خلا شدة الأسد العظيم الخاص بالوشايات ، وهو تشال ضخم لأسد فاغر الشدين نصب هناك ، فكان من أراد أن يلتقم من عدوه أو خصمه يكتب وشايته ويلقيها في الفم المفتوح فيطلع عليها مجلس العشرة الظلام فينكسل بمن يحمل الوشاية اسمه تنكيلاً فظيلاً . وبرزت جزيرة أوليفو من وراء كنيسة سانت مارك ، تلك الجزيرة المكرمة للعب وأهلها إذ كانوا يحتفلون فيها كل عام بزواج اثنتي عشرة عذراء على نفقة الجمهورية . وفي تلك الجزيرة حديقة

واسعة وقف بلبل على رأس أرزة من أرزاتها وجعل يغني ويميد غناؤه بألحان شجية ، فتشبهه عليها بومة وقفت فوق غصن على مقربة منه ، فكان الليل يصفي بلاء نفسه المنتشرة في الفضاء إلى هذين الصوتين اللذين كانا يترجان بصوت الأمواج فتؤلف نشيداً ساحراً حنوناً .

وتحت هذه الأرزة الفخيمة ، بين أزهار الزرود والرياحين وكل ما وهبته الطبيعة من الجمال ، كانت ذلك الليل يسمع أيضاً حديثاً أشجى من نغبات البلابل وأرق من هينة النسيم وأطرب من صوت الأمواج ، ذلك أنه كان يسمع مناجاة العاشقين ومناغاة الخطيبين رولاند وليونور .

كان العاشقان يتحدان تحت هذه الشجرة وهما لا يتكلمان بأحاديث الغرام فإنه كان مائلاً في عينيها ونبراتهما ، بل كانا يتكلمان بأمور مختلفة ، ولكن يديهما كانتا تلتقيان من حين إلى حين فيضغط كل منهما على يد الآخر ضغطاً لطيفاً يتكهرب له الجسمان . وظلا كذلك حتى انتصف الليل فارتعش الاثنان إذ كان هذا الموعد موعد فراقهما كل ليلة ، منذ أذن وليونور لروланд بزيارة منزله .

فنهض رولاند لمحاول الذهاب فقالت له ليونور : يضع دقائق أيضاً يا رولاند ! قال : كلا أيتها الحبيبة ، فلقد اتفقت مع أبيك النبيل على أن أجعل حد زيارتي انتصاف الليل في كل ليلة إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يكون فيه لاجتماعنا موعد ولا حد !



فتمهدت ليونور وقالت : إذن إلى اللقاء غداً أيها الحبيب ! وهل يأتي هذا الغد ؟

— إنه يأتي يا ليونور ، وغداً نلبس خاتم الخطبة في منزل أبيك أمام نبلاء فينيسيا . وبعد اسبوع تربط بتلك الصلة التي تجمع بيننا إلى الأبد . فاذهي أيتها الحبيبة ونامي بسلام فإن حي برعاك كما ترى هذا الكوكب نجوم السماء .

— تكلم أيضاً يا رولاند !

— نامي حالاً أيتها العزيزة وماقتدي بك فنلتقي بالأحلام !

— ما أجل هذا الصوت وما أشد وقوعه في قلبي يا خطيبي العزيز . إني أشعر كل ليلة بانقباض في مثل هذه الساعة ، ساعة الفراق ! ولكني أشعر هذه الليلة بانقباض شديد وقد كثرت في نفسي الهواجس حتى لقد خيل لي أن السماء تحسد الأرض علينا وأن الشقاء غيّم على حيننا . فابتسم رولاند وقال : لا تخشي يا ليونور واعتمدي على زوجك فتزول هذه الهواجس .

— لله ما أعذب هذه الكلمة يا رولاند ، فهذه أول مرة سمعتك تقولها فأسكرتني !

وكانا يتكلمان وهما يسيران حتى وصلا إلى باب الحديقة فوقفا وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر وهما لا يعلمان ماذا يقولان ، إلى أن مدّت يداهما المرحقة واجتمعت الشفاه وتبادلا تلك القبلة الأولى التي أسكر وصفها الشعراء .

وأفلتت ليونور من يد رولاند وعلى شفثيها المرتعشتين آثار القبلة الشبهة التي يعرف طعمها أهل فينيسيا وكلهم شعراء ورمامون مرهفو الحس والدّوق .

وعند ذاك انقطع الليل عن التغريد فوق الأرزة الكبرى فيها ظلت ليونور تجري إلى بيتها مسرعة وعلى شفثيها تأثير القبلة التي حرمتها الرقاد في تلك الليلة . أما رولاند فإنه أقفل باب الحديقة وانصرف يسير ببطء إلى القنارب الذي كان ينتظره . وبينما هو يسير سمع صوت استغاثة يترقّ حجاب السكون ويقول :

— إلى ... إنهم يقتلونني ... إلى ! إلى !

### ملكة المحظيات

\*

كان رولاند يسير وقد أصابه من تلك القبلة الأولى نفس ما أصاب خطيبته فخيّل له أنه في عالم غير هذا العالم . فلما سمع صوت الاستغاثة اهتز وانتبه انتباه من يوقظ من رقادها فالتفت إلى جهة الصوت فرأى قوماً يتخاصمون ويتنازعون ، فجرد سيفه الطويل وصاح بذلك المستغيث قائلاً : تشجع فقد أتيت

لمجددك . ولم يكن غير هنيئة حتى وصل اليهم فرأى امرأة جالسة على ركبتيها وسبعة أو ثمانية رجال ينهبون حليها وهي لا تزال تصيح وتستغيث ، حتى إذا رأت ذلك الرجل قسداً لتجدها سقطت مشياً عليها كأنها بذلك كل ما تطبيقه من الجهد .

أما رولاند فإنه صاح بهم قائلاً : إلى الوراها أيها اللصوص ! فالتفت أولئك اللصوص إليه والتساجر مجردة بأيديهم وجعلوا يزأرون ويزجرون كأنهم ينتظرون أوامر زعيمهم للفتك به وقد أحاطوا به من كل جانب . وكان ذلك الزعيم هائل الجثة قوي العضل ، فتوهجت عيناه وصاح بصوت يتهدج من الغضب :

- إرجع أنت أو لا يكون نصيبك غير الموت .

وعند ذلك برز القمر من وراء غيمة وتبينت الوجوه فصاح جميع أولئك اللصوص بصوت جمع بين الدعر والاضطراب ، قائلين : إنه رولاند كاندريانو ... إنه رولاند ابن الدوج . أمرعوا إلى الفرار .

وتسابق الجميع إلى الهرب مما خلا زعيمهم فإنه دنا من رولاند وقال له : أنت الذي يدعونه رولاند ؟ حسناً ، فأنا أدعى سكالابرينو .

كان سكالابرينو هذا من أشد زعماء اللصوص شهرة وقد أدهش أهل فينيسيا بحراته في حادثة جرت له عام ١٥٠٤ أي منذ بضعة أعوام . وذلك أنه في منتصف شهر آب من ذلك العام

كانت فينيسيا تحتفل بتزويج اثنتي عشرة عذراء على نفقة الجمهورية حسب العادة في كل عام . وكان من تقاليدهم أنهم يلبسون كل عذراء عقداً من اللؤلؤ وغيره من المجوهرات الثمينة التي تحفظ في خزانة الجمهورية فلا يخرجونها إلا مرة كل عام في مثل تلك الحفلة . فأتى سكالابرينو بجمعين رجلاً من عصابته إلى ساحة سان مارك التي تجري فيها الحفلة ، فلما خرج العذارى من الكنيسة وعليهن تلك الحلى هجم برجاله عليهن فدافع الناس عنهن دفاعاً حسناً ، غير أن سكالابرينو ورجاله تمكثوا من حمل العذارى إلى القوارب وساروا بهن إلى عرض البحر فتواروا عن الأنظار قبل أن يستطيع رجال الشرطة اقتفاء أثرهم .

وبعد ثمانية أيام أرجع سكالابرينو العذارى إلى فينيسيا دون أن يمسن أحد بسوء ، ولكنه سلبهن عقود اللؤلؤ وما كان عليهن من الحلى .

فلما سمع رولاند اسم «سكالابرينو» أغمد حسامه باستهزاء كأنه يريد بذلك أن يخبره بأن الحسام لا يجرد بوجه اللصوص ! وعند ذلك انقضّ سكالابرينو عليه وخنجره بيده . ولكنه لم يكدهم عليه حتى سقط إلى الأرض طائشاً ، وذلك أن رولاند لطمه لكمة هائلة على وجهه أضاعت رشده وسقط الخنجر من يده .

غير أنه أسرع إلى النهوض وانقضّ ثانية على رولاند فجرت بينهما معركة شديدة دامت أكثر من دقيقة إلى أن تغلب رولاند



عليه وألقاه إلى الأرض ور كم فوق صدره وجرحه خنجره يحاول  
قتله حسب عادات ذلك الزمان ، فقد كانت حياة المغلوب ملك  
الغالب .

أما سكالابرينو فلم يظهر عليه شيء من علائم الخوف ، بل  
إنه رفع يديه وقال له : إنك أقوى مني فاقتلني . فنهض رولاند  
عنه لقوره وأغمد خنجره ثم قال له : إني أعفو عنك لأنك  
لم تخف .

فوقف سكالابرينو وقد أثر عليه هذا العفو خير تأثير ،  
فانحنى أمام رولاند وقال : مولاي ، إني سأخبرك بالحقيقة .  
قال : إذهب فقد عفوت عنك .

— مولاي ...

— قلت لك إذهب .

فنظر سكالابرينو إلى رولاند نظرة حنو وإشفاق ثم  
انصرف مسرعاً وتوارى عن الأنظار .

عند ذلك أقبل رولاند إلى تلك المرأة وصورة ليونور لا تزال  
تملأ خياله وقلبه ، ولكنه كان من أهل فينيسيا الذين يقدرون  
الجمال على إطلاقه ، فتمعن في وجهها طويلاً وأعجب بحماتها  
الفائق وطلعتها الساحرة . وعند ذلك فتحت تلك المرأة عينيها  
ورأت أمامها رولاند ، فارتجفت واحمر وجهها بعد الاصفرار .  
فأنهضها وتوكلت عليه وهي تنظر إلى ما حولها نظرة الخائف  
كأنها تخشى عودة اللصوص . فقال لها رولاند :

— إطمئني يا سيدي ، فإن أولئك اللصوص لا يحسرون أن  
يهاجموك بعد الآن .

فنظرت إليه نظرة ملؤها الإعجاب وقالت له بصوت حنون :

— أهذا أنت ؟ إني أعتبر نفسي نجوت مرتين إذا كنت أنت  
مُنقذي .

ثم أخذت بيده وطوقت عنقه وهي تقول :

— إني خائفة ... أتوسل إليك أن توصلي إلى منزلي وإذك  
لا ترفض دون شك .

قال : سيدي ، إني ادعى رولاند كانديانو . فلماذا أبيت  
حمايتك كنت غير جدير بأن أسمى بهذا الاسم ، ومثل هذه  
الحماية لا يأياها فينيسي شريف !

قالت : أشكرك ألف شكر .

وجذبه وسارت به إلى شاطئ التربة وهناك قارب جبل  
كان ينتظره ، فركبت وإياه . وسار بها القارب وكلاهما ساكت .  
أما رولاند فكان يفكر بل يحلم بذلك اليوم الذي ينتظره . وهو  
يوم الغد حيث تقدم له ليونور أمام نبلاء فينيسيا خاتم الخطبة .

وأما هي ، أي الخطبة أمباريا ، فلأنها لم تكن تقتكر إلا  
بتلك الساعة التي تخلو فيها برولاند ، فإن ذلك أقصى ما كانت  
تمتناه في هذا الوجود .

وكانت أمباريا هذه أشهر محطية رومانية جاء بها إلى قيسيا  
أشهر رجالها ثروة وأشدّهم نفوذاً في مجلس العشرة وهو دافيليا.  
وقد كانت على جمال نادر تفوق به على جمال لوكريس يورجيا كما  
يقول الشعراء .

وكان أهل روما يفاخرون الشعوب بجمالها الفتان حتى أنها  
عند سفرها من روما نصبوا لها تمثالاً<sup>(١)</sup> في إحدى المحلات  
العمومية كما كانوا ينصبون التماثيل للآلهة .

هذا ما كانت عليه أمباريا من الشهرة والجمال . ولم يكن  
رولاند يعرفها إلا باسمها لفرط اشتهاره . غير أنه حين وقف  
القارب أمام قصرها الفخم وحين رأى عشرين خادماً يتسارعون  
إلى استقبالها ، وحين رأى أعمدة ذلك القصر وتماثيل البديعة ،  
علم أنه لم يتقدّم غير تلك المحطية وأنه واقف الآن عند قصرها  
الشهير .

وعند ذلك حاول أن يتراجع ، ولكن أمباريا أمسكت  
بيده وقالت له بلهجة المتوسل : أبلغ بكركم يا سيدي حدّ  
النهاية وشرّف منزلي بحضورك ، أو أعتقد أنك ما أنقذتني إلا  
لتهينتي !

فلم يجحد رولاند بدأ من الدخول . ودخلت به أمباريا

١ - بقي هذا التمثال منصوباً إلى نهاية القرن الثامن عشر ، وقد كتبوا  
عليه : « هذا تمثال أمباريا المحطية الرومانية التي لم تنق المعبود على أجل منها » .

فاجتازت قسعة زرجية من الرخام ثم صعدت به سلماً ووضعت على  
كل درجة من درجاته آنية بديعة للأزهار النادرة . حتى إذا  
انتهت من ذلك السلم مرتّ بوضع قاعات تدهش الأنظار بجمال  
فرشها ، فرأى رولاند أن كل ما في هذا القصر يدلّ على التناهي  
بسلامة الذوق .

ودخلت به أمباريا إلى قاعة انتشرت فيها الأزهار وعبقت  
روائحها وقرشت أرضها بالبسط الهندية . وعلقت في جدرانها  
رسوم من صنع مشاهير المصورين لا يوجد مثلاً في بيوت الملوك .  
أما إطارات مرائيها فقد كانت من الذهب الخالص . وعلى الجملة  
فإن دافيليا عاشق هذه المحطية قد أنفق على هذا القصر نصف  
ثروته .

أما رولاند فإنه لبث واقفاً وقد شعرت أمباريا بأنه يحاول  
الإنصراف ، فاطلقت سراح خادماها بإشارة وقالت له بصوت  
يضطرب : ألا تفضل بالجلاس يا سيدي ؟ قال : إنك أصبحت  
الآن آمنة في منزلك ، فإذا لبثت بحضورك طويلاً ذهبت فائدة  
تلك الخدمة التي قت بها ، وأكون قد خدمت نفسي . قالت :  
كيف تقول ذلك يا سيدي ؟ ألمالك تريد أن تقرأ في عيني ما  
يحول في قلبي الضعيف !

فأدرك رولاند أنها ستقول أقوالاً لا ميبيل إلى استقامتها ،  
وقال : إنني إذا التمسيت أن تأذني لي بالانصراف يا سيدي فإني  
ألتبس أيضاً أن تعتقدي بأن هذا اللقاء كان داعياً إلى إعجابي بما



لقبته من شجاعتك في موافق الخطار وإلى امتناني لما لقبته عندك  
من حسن الضيافة .

فتصدت أمباريا في سبيله وهي ترتعش وقالت له بصوت  
محتقن ونبرات دلت على ما يحول في نفسها المضطربة : رولاند  
ألا ترى إذن أنني احبك ؟ ألا ترى أنني أعرض عليك كل ما  
حواء قلبي من الجنون ؟ ألم ترتني منذ ثلاثة أشهر أقتني أنوك  
وأمشي معك كما يمشي ظلك ؟

— سيدتي ... هدئي روعك .

— ألم تعلم لماذا برحت روما . وتركت فيها قصوري الثلاثة ،  
وشعرائي ، وجميع ذلك الشعب الذي كان يعبدني ؟ أتعلم لماذا  
غادرت ذلك النعم . وأنتيت إلى فينيسيا مع جان دافيليا ؟ ذلك  
أنني رأيتك في العام الماضي حين بعثتلك فينيسيا سفيرا إلى البابا .  
ثم أتعلم لماذا بنيت هذا القصر على شاطئ البحر الكبري ؟ ذلك  
لأنني أستطيع من شرفائه أن أرى القارب الذي يركب بك كل يوم .  
ثم أتعلم لماذا أنفقت الملايين على ريش هذا القصر وتزيينه ؟ ذلك  
لأجعل هيكلا غرامنا . رولاند ... رولاند ... ما هذا  
الاستقار الذي يسود من نظراتك ؟ إنك تكاد تقتلني بها .  
فاجابها رولاند برفق قائلا : إنني لا أحترقك ، ولكنني أشفق  
عليك . فهاج تأثرها وقالت :

— أنتشفق علي ؟ كلا ، إنني أؤثر استقارك . ولكن لا ...  
أشفق علي ؟ فإني أحل على الإشفاق إذ لم يُصَبَّ بشر بمثل ما

أصبحت به من هذا الحب القاتل . نعم أشفق علي ؟ فإن الحب  
يعذبني والغيرة تقطع قلبي ولا سيما حينما أفتكر بهذه الفتاة  
ليونور التي ...

فصاح بها رولاند قائلا : أينما الشقية ...

وقد اصفر وجهه ورفع يده كأنه يريد أن يسحق بها ذلك القم  
الذي تجاسر على التجديف بمموده . غير أن يده قد سقطت إذ  
عاد إليه رشده لظوره وعلم أنه لا يجوز به ضرب امرأة . وخرج  
فجأة بعد أن ودعها بصوت غتقن ، فتكادت أمباريا تهجن  
ليأسها بعد ما لقبته من احتقار رولاند ، فانطرحت على مقعد  
وجعلت تعض خدة كانت عليه كي تمنع صدرها من الانفجار .

وفيا هي على ذلك نظرت عرسا قرأت أمامها رجلا مكثف  
اليدن وقد وقف بين مصراعي الباب ينظر إليها . كان هذا  
الرجل يناهز الأربعين من العمر وهو جميل الوجه طويل القامة  
وقد تقلد حزاما رصعت قبضته بالحجارة الكريمة . فوثبت  
أمباريا من موقفها وقالت : جان دافيليا !

ثم مشت إليه وقالت له بصوت يرتجف :

— أرايت ؟

— نعم .

— أسمعنت ؟

— كل شيء .

فضحكت ضحكاً كثيراً ولم تجب بشيء . أما دافيليا فإنه قال لها بلهجة خطيرة :

- إنك ستمتين فتسأشي الموت . ألم تقولي إنك لم تصحبي جان دافيليا إلى فينيسيا إلا لكي تجدي رولاند كاندبانو فيها ؟ وحي لي ولهذا القدر الذي عث في ! أيسفك أجدادي دماهم في سبيل أوطانهم ويقتحمون الموت ويحضرُونَ مائة معركة فيكتب اسمهم بحروف من الذهب في سجل الجمهورية ، ثم يكون آخر أبنائهم لعبة تعيث بها حظية غانية وتجمعه هزماً لدى أهل بلاده ؟ أأكون أنا آخر أبناء أولئك الأبطال ولا هم لي إلا أن أزع عنك لباس العار وألبسك ثوب عجدنا القديم وأجعلك من النبيلات بين قومي ، فتجازيني بما فعلت كي تقضي مرام نفسك السافلة ؟ ثم أنفق عليك أموالي الذي جمعها أجدادي كي تبني قصرأ تجعلينه هيكلأ لمن تحبين ؟

كانت أمباريا تسمع كلامه وهي غير مكترثة لما يقول حتى إذا انتهى إلى كلمة الهيكل قاطعت قائلة :

- أحسب أن هذا الهيكل مجازي ؟ تعال وانظر . ثم خرجت من تلك القاعة بسرعة وقد تبعها دافيليا ، فقتعت باباً سرّياً ودخلت منه إلى غرفة صغيرة لم يكن فيها شيء من الأثاث سوى هيكل من الرخام وُشّي بالذهب وعليه الشموع الموقدة . وفوق هذا الهيكل إطار كبير من الذهب المرصع بالياقوت ،

وفي وسط هذا الإطار صورة رولاند كاندبانو من صنع أحد أولئك المصورين الذين أدهشوا العالم بهذا الفن الجميل .

فلما وصلت أمباريا إلى هذا الهيكل ركعت عند درجاته كما يركع المعبودون عند هيكل الله . أما دافيليا فقد طاش رأسه لما رآه ، فجرد خنجره وهجم عليها وهو يقول : اهبطي إلى جهنم أينما الأفعى فهناك تلقين مبعودك ، وسأدفع بجثتك إلى الجلاء فيشوها قبل أن أجعلها طبعاً للأسماء .

وعند ذلك رفع يده ولكنها انقضت عليه بسرعة الصاعقة فقبضت على يده وعضتها بقوة ضاعفها اليأس فسقط الخنجر من يده فأسرعت إلى النفاذ وأحمدته في صدر ذلك المنكود فسقط صريعاً تحت ذلك الهيكل دون أن يتفوه بحرف . أما أمباريا فإنها بعد أن طعنته تلك الطعنة النجلاء وقفت تتمعن بذلك الجسم السريع ثم ترجعت إلى الباب .

وعند ذلك شعرت بيد قد وضعت على كتفها فالتفت مندعرة وهي متأهبة لارتكاب جريمة ثانية ، فرأت رجلاً يتسم لها ابتسام الأبالسة .

\*



وامه وقال : إني أتيتكم بقصيدة في الخطيبين لم ينسج الشعراء على منوالها بعد .

وكان جميع الذين حضروا الحفلة جاؤوا إليها بالملابس الرسمية ولكن من غريب أمرهم أنهم كانوا يتقلدون سيوفهم وقد تسربلوا بدروع أخفوها تحت ملابسهم حتى أن النساء على ابتسامهن الدائم كانت تبدو عليهن علامات الرعب ، ذلك أنها انتشرت إشاعة ماؤها أن الشعب سيثور خلال هذه الحفلة ولم يعلم أحد مصدر هذه الإشاعة .

أما ليونور وروланд فقد كانا جالسين في القاعة الكبرى وقد أشرق وجههما بنور البشر فكانا يبتسمان للمهنيين وقد شغلا بقرامهما عن الانتباه إلى اضطراب الناس .

وكانت دندولوا ، والد ليونور ، هو أول من كتب تاريخ فينيسيا من التבלه ، واقفاً بقرب بلته وقد بدا اضطراب نفسه في عينيه بأشد ما بدا في عيون الناس .

وعند ذلك قدم ألتباري الذي تقدم لنا وصفه في الفصل السابق قصابح وروланд وقال له بلهجة تكلف فيها الإخلاص

= وشيرما أر تصف شاعر ، كما يقول الأفرنج ، ثم ارتل بعدائه وثقائه إلى أن صار كروينلا . وقد عرفنا بعد وفاته على كثير من الرسائل الغرامية أشهرها عشر رسائل كتبها إلى لوكريسيا يورجيا وبعض قصائده تعد من منقط الناع .

## الخطبة

\*

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كانت سراي الدوج ، والد رولاند ، مزينة أعظم زينة احتفالاً ببعقد خطبة رولاند على ليونور . وكان أهل فينيسيا قد خرجوا في تلك الليلة أيضاً من منازلهم كما فعلوا في الليلة السابقة ولكنهم لم يكونوا فرحين كما كانوا في تلك الليلة بل إنهم كانوا يتكلمون ممساً وقد بدت عليهم علامات الإضطراب . ثم تقاطعوا فجأة كما يتقاطع الأوقيانوس ساعة العاصفة دون أن تعرف حقيقة أسباب هذا الهياج .

وكان الدوج نفسه واقفاً في سلم قاعات الاستقبال الكبرى يستقبل وفود الناس وهو بملابسه الحربية العسكرية ويتلقاهم بما فطر عليه من الأنس والبشاشة ، وبقربه زوجته الدوجة سلفاً وهي تبسم للقادمين ولكنها تتمعن في وجه كل قادم منهم كأنها تريد أن تقرأ في نفوسهم ما يجول فيها من الأفكار بشأن هناء ولدها أو شقائه .

وقد كان أول القادمين إلى هذه الحفلة يمي<sup>١١١</sup> قهنأ والد رولاند

١ - كان يمي في أول حوادث هذه الرواية كاتباً بسيطاً وواهباً عادياً =

الشديد : أهنتك يا رولاند وأرجو لك أرغد عيش . فأجاب  
رولاند قائلاً : أشكرك أيها الصديق وأتبادل بدعائك خير فال  
فإن دعاء الخالصين مستجاب .

وجاء في أثره بمبو فقال له رولاند : أهذا أنت أيضاً أيها  
الصديق ؟ إنني أشكرك وأنتي على شمرك . فاعطني بمبو وشكره  
لثباته ثم تظاهر بالإندهال وقال : كيف جلست يا سيدي في  
هذا الموضع في مثل هذه الحفلة المباركة ؟ ألم تر ما وراء الكرسي ؟  
فالتفت رولاند إلى الجدار وراء كرسيه والتفت ليونور  
متدعرة ، وكان قد علق على هذا الجدار رسوم حكام فينيسيا  
فاتفت جالوس الخطيبين وراء صورة الدوج مارينو فلورينا وقد  
كتب تحتها :

« هذا رسم الدوج مارينو الذي قطع رأسه لأثامه » .

وقبل أن يقرأ الخطيبان هذه الكتابة كان بمبو قد توارى  
بين الجماهير فاضفر وجه ليونور وقالت بصوت يضطرب : رياء ،  
ما هذا الاتفاق فلقد تشابهت منه ! قال : لا تجزعي أيتها الحبيبة  
فإن بمبو لا يريد غير المزاج وتأهبي للساعة المباركة فهوذا أي  
وامي يدنوان منا لعقد الخطبة .

\*

وفي تلك الساعة أقبل ععدد عظيم من الحراس ووقفوا وهم

مسلحون عند جميع الأبواب فساد السكون في تلك القاعة  
الكبرى ثم تقدم رجل يتبعه جنديان فدنا من رولاند وقال :

— أنا فوسكاري رئيس المفتشين في مجلس العشرة أصرح  
بأنه يوجد هنا خائن متهم متأمر أتيت كي أقبض عليه لسلامة  
الجمهورية .

فاضطرب الناس هذه الشكوى وغضب والد رولاند غضباً  
شديداً فالتفت إلى فوسكاري وقال :

— أتحادث مثل هذه الفضيحة في مثل هذه الحفلة وفي سراي  
الدوج ؟ إن هذا العظيم يا فوسكاري ، ومها يكن من أمر هذا  
المتهم فهو ضيفي . وقسماً بمسامير الصليب الدامية إنني لأدع  
الناس يقولون بأن كانديانو أخلاً بشرط الضيافة .

فأجال فوسكاري نظراً هادئاً بين الدوج وسائر الحاضرين  
وقال :

— يا سيدي الدوج وبا جميع الحاضرين ، إعلوا أنه منذ  
سنة أعوام وبني إليّ بالأسقف بيزاني في ساعة أشد خطورة من  
هذه الساعة وكان البحارة على وشك الثورة فقلو ترددت ساعة  
لثأر قائمهم . وكان ذلك اليوم يوم عيد عظيم والساعة ساعة  
الصلوة الكبرى ، فذهبت إلى كنيسة سانت مارك ومشيت إلى  
الميكيل حين كان الأمقف يبارك الشعب فانتزعتني من الميكيل  
وهو ساعشئ في ضيافة الله وقبضت عليه كما تعلمون .



فاضطرب جميع الحاضرين حتى التياري فقد اصفر وجهه ما خلا بصره فقد كان يراقب هذه الحادثة بملء السكينة وقد دنا من التياري وهمس في أذنه بعض كلمات . وعاد فوسكاري إلى الحديث فقال : إذن فاعلم يا سيدي الدوج أن ما فعلته في بيت الله يجوز أن أفعله في بيتك لاسيما وإن منصبك يقضي عليك بالمحافظة على تأييد النظام .

فنظر الدوج إلى ما حواليه فرأى نحو ألفين من الدعوين إلى هذه الحفلة وقد أطارقوا برؤوسهم وكلهم يتوقعون قرب انقضاء الصاعقة . وسمع قعقة السلاح من الخارج فشعر بعميزه عن المقاومة وسأل فوسكاري بصوت خففت قائلاً : من هو هذا المتمر ؟

فأجابه فوسكاري قائلاً : رولاند كاندبانو !

فصاحت أم رولاند وخطيبته سيحيتين متكررتين وأسرعتا إلى الوقوف بين فوسكاري وبين رولاند ولسان حالهما يقول : ثمالوا انتزعوه منا إذا كنتم تمجسرون .

وكذلك الدوج فإنه صاح صيعة تشبه الأتین وقال : ولدي . تقول إن ولدي يؤامر ويخون ؟

— إن الرشاة صريحة يا سيدي الدوج .

— ولكنها كذب ونفاق .

ثم انتزع التاج عن رأسه فألقاه إلى الأرض وقال : لا أدعكم تذهبون بولدي إلا متى استحال ذهب هذا التاج إلى أغلال من الحديد . وهاج الحضور هياجاً عظيماً ، وجرت الدوج حسامه الطويل ، فدنا التياري من رولاند وقال له :

— أعلم أنها الصديق أن أعداء أبئك قد فعلوا هذه القفلة المنكرة كي يجعلوه على اليأس وإتيان أمر يعود عليه بالسقوط فسلم نفسك يا رولاند وأنا أضمن لك السلامة وإنهاء هذه المشكلة بعد ساعة على خير .

فأمر كلامه على رولاند وعلى أمه وخطيبته لما يعلمونه من نفوذ التياري في مجلس العشرة ولصداقته مع رولاند . فصافحه رولاند شاكراً وقال له : إن تنبتك وبعد نظرك قد أنقذا أبي فلا أنسى جميلك وسيكون بيني وبينك عهد إخاء أبدي .

ثم حركه وسار مسرعاً إلى أبيه وهو قد امتشق حسامه ليدافع به عن ولده ويدعو الناس إلى نصرته . فلما رآه أبوه قادماً إليه استحال غضبه إلى يأس ففتح ذراعيه وضمه إلى صدره بينما كان فوسكاري ينظر إلى رولاند بملء السكينة وبينما كان أولئك المدعون مطرقي الرؤوس خجلاً لإحجامهم عن مساعدة الدوج . وجعل رولاند يكلم أباه همساً فلم يعلم أحد ما كان يقول ، حتى إذا فرغ من حديثه التفت الدوج إلى فوسكاري وقال له :

— إن ولدي بريء وهو يريد أن تظهر براءته أمام المجلس ،  
فقم بواجبك كما نقوم نحن بواجباتنا وليشتم المجلس في الحال .  
قال فوسكاري : إن المجلس ينتظر . فارتطمش الدوج وقد  
علم أن كل شيء قد تم من قبل المحاكمة ولده ، فمن الذي أراد أن  
يضره هذه الضربة القاضية ؟

وعند ذلك نظر إلى المحيطين به نظرة هائلة دلت على مبلغ  
أسفه وقال : الويل لذلك الواشي السافل فسأجبت عنه وسأظفر به  
ولا ينبعو من انتقامي . ثم التفت إلى ولده وقال له بصوت  
مرتفع :

— سر يا بني فقد طلبت إليّ أن أنتظر ساعة وسأنتظر  
ساعة كما سألت .

فقال رولاند لفوسكاري :

— هوذا حسامي يا فوسكاري أودعك إياه وأنا مستعد الفتول  
أمام المحكمة . فأشار رئيس المفتشين فأقبل اثنا عشر جندياً ودنا  
قائدهم منه وحاول أن يقبض على رولاند ، ولكنه لم يمد إليه يده  
للقبض عليه حتى صفعه صغرة ألقت به على الأرض .

فأضطرب جميع الحاضرين ونفض القائده دون أن يفوه  
بكلمة ، فالتفت رولاند إلى فوسكاري وقال له :

لنتفق يا حضرة المفتش كي لا يكون بيننا سوء تفاهم ، فلإني

غير ذاهب إلى المجلس الأعلى إلا بمحض إرادتي ، فأصدر أمرك  
إلى جنودك بالابتعاد عني وعجل بإصدار هذا الأمر .  
فنظر فوسكاري إلى رولاند نظرة الفساحص فرآه جديراً  
بقاومة فرقة وأنه قد يثير المدينة بأسرها فلم يجد بداً من التساهل  
وقال له : حسناً ، لكن ما تريد . فتفضل واتبعني ، قال : بل  
إني أتقدمك .

ونادته خطيبته قائلة : رولاند ... فالتفت رولاند قرأى  
خطيبته صفراء الوجه وهي متوكئة على كتف أمه كي لا تسقط ،  
ورأى الحب الصادق يتألق في عينيها . ثم رأى أمه وقد تجهم  
وجهمها بالأس وأنه لم يبق لها من دلائل الحياة غير اضطراب  
شفتيها . ورأى آياه يحيط به النبلاء وهم سكوت وجوم .  
وعند ذلك نادته ليونور أيضاً قائلة : رولاند أقبضك جديراً  
عنيفاً كي لا يبلثني عن عزمه وذكر ما قاله ألتيارى فخشي على  
أبيه وأجاب خطيبته قائلاً :

— ساعة واحدة يا ليونور ... ساعة واحدة يا أبي ويا أمي .  
ثم سار إلى جهة الباب أمام الجنود يتبعه فوسكاري في  
مقدمة جنده ا

### مجلس العشرة

\*

كانت قاعة مجلس العشرة ملاصقة لقاعة المفتشين . وكانت



رجال هاتين القاعتين يشهدون الأحكام والحكام يتهددونهم بحيث كانت هذه المجالس تشبه الكلايب ، فإذا كانت القوة في جانب الحاكم قبض بهذه الكلايب على رقاب المجلس ، وإذا فاز المجلس عليه قبض بها على رقاب الحاكم وأمثاله من النبلاء .

فلما دخل فوسكاري إلى قاعة مجلس العشرة جلس على كرسي بإزاء عشرة كرسي كان أعضاءها جالسين عليها ما خلا كرسيًا كان خاليًا وهو كرسي دافيليا الذي طعنته أمباريا بخنجرها كما تقدم في الفصل السابق .

وقد دخل فوسكاري وحده دون أن يكون معه رولاند وهو سر من أسرار التنقيش اخالة في ذلك العهد التي لا بد لنا من كشفها قريبًا لنقفو آخر خطيب ليونور .

أما الأعضاء التسعة الباقون الذين يتألف منهم هذا المجلس السري فقد كانوا في مجالسهم وقد جلسوا على كراسيهم وعلامتهم العسف بادية على وجوههم ولكنهم لا يأتون بأية حركة كأنهم نائمون .

فوقف فوسكاري وقال لهم : إنكم تعرفون أنها السادة منذ عهد بعيد تلك الدهاليز التي يجب أن تقود اليها رولاند كاندبانو .

فأشار أكثر الأعضاء برؤوسهم إشارة مصادقة فقال : لقد ظهرت اليوم خيانة رولاند ظهور الشمس بما كان يظهره الشعب حولي قصره من الاعتراض علينا والشبح له ، أليس كذلك ؟ فصادق بعض الأعضاء هذه المرة دون بعض فقال فوسكاري :

إن رولاند كاندبانو أنها السادة قد أثار البحارة وأهاج الشعب ، فإذا لم نسرع في تنفيذ مقاصدنا بلغ منا ما يريد .

فقال أحد رجال المجلس : لنقترع . فأجابهم أحدهم : ولكننا لا نستطيع الاقتراع ، فليأت واحدًا من الأعضاء لم يحضر وهو دافيليا .

فأبستم فوسكاري وقال : إنكم ستعلمون السبب في غياب هذا العضو . ولكن قبل أن أخبركم عن السبب في غياب دافيليا . . . فقاطعه أحدكم قائلاً :

— أظن أن السبب في غيابه كونه من أصدقاء رولاند .

قال : قبل أن نبعث في شأن دافيليا يجب أن ننتهي من تقرير المعاملات الرسمية التي يجب أن نعامل بها رولاند .

وعند ذلك نهض عن كرسيه وذهب إلى باب يقابل الباب الذي دخل منه ففتحه فأنكشف عن قساعة الشهود . على أنه لم يكن ثمة شهود ولكن النظام كان يقضي بإعداد هذه القاعة . وقد وقف في بابها عندما فتحتها وصاح بأعلى صوته قائلاً :

— ليدخل إلى هنا الذي وشى برولاند كاندبانو ويبسط أقواله لدى المجلس حسب ما يوحى إليه الضمير والذمة .

قال هذا القول وصبر هنيهة ثم عاد إلى مجلسه . فلما جلس على كرسيه رأى ملاحم الدهول قد ارتسمت على وجوه القضاة وأنهم ينظرون إلى باب الشهود ، فالتفت ودهش نفس دهشتهم ... ذلك أنه رأى امرأة واقفة بين مصراعي ذلك الباب ، وأن تلك المرأة كانت المحظية أمباريا .

أما أمباريا فإنها دخلت وهي خافقة الصدر مضطربة الأعضاء  
لتنازع العوامل في فؤادها ، فاصفر وجه ألتاري ودهش القضاة  
لهذه الزيارة التي لم يكونوا يتوقعونها . وعند ذلك قال لها  
فوسكاربي :

— أهو أنت التي وشيت ببولاند كاندبانو ؟ قالت : نعم .  
قال : إذن تكلمي وقولي من أته عيناك وسمعت أذاك  
دون خوف .

وقال أحد الأعضاء وهو الذي أشار إلى صداقة رولاند  
ودافيليا : تكلمي بحرية يا سيدتي ولكن تحني قيا ستقولينه قبل  
أن تقولي وأعلي أن كلمة منك قد تؤدي إلى قتل رولاند .  
فوافق أكثر الأعضاء على قوله وارتمشت أمباريا وزاد  
اصفرار وجهها فوضعت يدها على صدرها كأنها تريد تسكين  
خفقانه فقد كانت تلك العاصفة النائرة في قلبها هائلة وذلك أنها  
قضت ليلا ونهارها على أحر من جمر القضاة وعلمت كل ما جرى  
في قصر الدوج ساعة الاحتفال بعقد الخطبة فخرجت من منزلها  
وهي شبه مجنونة لا تعلم ماذا تفعل . وهي لا تعلم كذلك إذا كان  
يحيتها إلى مجلس الفتيش بسبب حبها الشديد لروالاند أو بسبب  
غيرتها العمياء عليه .

ورثت في أذنها كلمات ذلك القاضي حين قال لها : « إن  
كلمة منك قد تؤدي إلى قتل رولاند » . فارتجفت أعصابها  
وقالت في نفسها :

— ويل لي ما صنعت ! أيسقط مثل هذا الرأس الجليل تحت

سيف الجلاذ وأكون أنا السابعة في قتل رجل يحبني بائسة ؟  
وهاج تأورها في تلك اللحظة على أولئك القضاة حين خطر  
لها أنهم سيحكمون عليه بالإعدام فقالت في نفسها : كلا إن ذلك  
هائل خيف ، ويجب أن أشي بنفسي وأدري لأولئك القضاة  
حقيقة ما جرى بيني وبين عيو وألتاري ، ذنبك الشقيين اللذين  
اغتنبا فرصة هياج غيرتي فجعلاني على الوشاية ببولاند ... نعم ،  
لا بد لي من إنقاذه ولو أودى ذلك بحياتي .

أما فوسكاربي فقد عيل صبره لسكوته فقال لها : ولكن  
تكلمي يا سيدتي فإننا نتنظر . وكاد ألتاري يحس من رعبه فقد  
كان يراقب أمباريا وقد قرأ في عينها ما يقى بهزمها على  
إنقاذ رولاند .

وأما أمباريا فإنها رفعت رأسها وارتجفت شفتيها وضبطت  
عنان نفسها فقالت :

— إني سأخبركم بالحقيقة . نعم سأقول لكم الحقيقة بحملتها  
مها كانت هائلة !

فسقط ألتاري على كرسيه واهي القوى كأنه أصيب بضربة  
شديدة على رأسه . واندفعت أمباريا في الحديث فقالت : نعم  
إنكم ستقفون على الحقيقة بحملتها فاجمعوا ...

وعند ذلك فتح باب القاعة فجاء وظهرت منه ليونور قوقف  
الكلام بين شفتي أمباريا ونظرت إلى ليونور نظرات غريبة  
تشبه عن كرم لا تصفه الأفلام . أما فوسكاربي فإنه استاء  
لدخول الفتاة دون استئذان فقال :



— من يحضر على الدخول ؟

فأسرعت ليونور حتى وصلت إلى وسط الساعة وقالت للفضاء بصوت يضطرب :

— أسألكم العفو أيها السادة فإني قادمة للدفاع عنه وحاشاه أن يكون من المجرمين . وكانت الدموع تجول في عينيها فقزبت وجهها الجميل جملاً ، ويزيد هذا الجمال أمباريا غيرة وحقدآ ، فأثرت على القضاة خير تأثير . وتطاولت رؤوسهم كي يسمعوها ما خلا ألتباري فإنه بقي في محله وقد طاش رأسه من الرعب والغيرة حتى خطر له أن ينتحز لقوره .

أما ليونور فإنها اندفعت في حديثها فقالت : ماذا تتهمونه وماذا صنع ؟ إنه كان يرجو أن يعود بعد ساعة وقد مضت الساعة دون أن يعود . أيها السادة ، إنني أرى بينكم من كان أصدق ضديق له . وأنت يا سيدي ألتباري ، وأنت يا سيدي موسنجي ، إنه كان يحبكما أصدق حب وقد قاتل في سبيلكما ، وأنت يا سيدي كرمياني ، ألم تصحبه مراراً إلى منزل أبي ؟ وأنت يا سيدي موساني ، ألم ينفذ ذلك ؟ إنكم جميعكم من أصحابه كما أرى ، فكيف تصدقون التهمة فيه وأنت تعرفونه حق العرفان ؟ بل كيف تتراح نفوسكم إلى الحكم عليه ؟ وإنما أقول الحكم عليه لأنني أعلم يقينآ أنه لم يثل أحد في مجلسكم وخرج حياً .

فقال لها فوسكارى : هدئي روعك يا سيدتي . قالت : دعني أقول ما أشاء فإني ما أتيت إلا للدفاع عنه . وأنتم أيها

السادة ، إذا أردتم أن تحكوا عليه وتتزعوه مني فانتزعوا قبل ذلك روحي من صدري لأنه روحي التي أحيا بها . وإنكم تعجبون كأننا نجول في خواطركم أن ابنة دندولو لا تعرف واجباتها ، فلا تعجبوا أيها السادة ، فإن أحد جنودي أنقذ الجمهورية وأنا أحاول إنقاذ زوجي ، فلا أعجب من قدومي اليكم بل إن ذلك من حقي وإني أريد أن أعلم باذا تتهمونه ومن هذا الذي يشبه ؟

فقالت أمباريا : أنا . فنظرت ليونور إلى تلك المظنية وقد دعت لما سمعته منها فقالت لها : أنت يا سيدتي تتهمينه ومن أنت ؟

فلم تجيب أمباريا بل تقدمت من مجلس القضاة وقالت : أيها السادة ، إنهم يسألون من أنا ، فاعلموا أي أدعى أمباريا وأني أمتن في فينيسيا نفس المهنة التي كنت أمتننها في روما وهي تجارة الجمال ، أي أنني عظيمة !

فهرت ليونور رأسها ولم يؤثر عليها أن تكون واقفة في مجلس واحد مع مثل هذه المرأة ولم تقيم من كل ما سمعته منها سوى أنها هي التي وشت بroland .

وعادت أمباريا إلى الحديث فقالت : نعم أنا هي الواشنة بroland كاندبايو . وهنا ابتسمت ابتسامة كادت تجن له ليونور وقالت لها : أهذا أنت ؟ أنت الواشنة بroland ؟ قالت : نعم يا سيدتي ، إنني أشكو بroland بأنه يحاول قلب الحكومة الحاضرة يقتل رجال مجلس العشرة الواحد تلو الآخر .

وكانت التهمة شديدة هائلة وجفت لها قلوب الأعضاء .  
فاضطربت ليونور ومسحت العرق عن جبينها ثم قالت :  
- لا تكفي الأقوال في مثل هذه التهم دون البراهين ، فهاتي  
برهانك إن كنت صادقة . ثم التفتت الى القضاة وقالت :  
- إنكم لا تصدقون هذه الأقوال دون شك ، فإنكم تعرفون  
رولاند . فقلت أمباريا : أي برهان تريدون وأنا قد فاجأت  
المؤامرة فأريت بعيني وسمعت بأذني !  
- سمعت ورأيت ؟ وأين كان ذلك ؟

- عندي ، في منزلي !  
فهاج اليأس في صدر ليونور فوثبت الى أمباريا وقبضت على  
يديها وقالت :

- أتقولين عندك ؟ أهدل رولاند أتى إليك ؟

- ولماذا تمجبين من ذلك يا سيدتي ؟ فإنه كان يأتي إلي كل  
ليلة بعد انتصاف الليل .

فسمعت تلك الفتاة أن الدم قد جرد في عروقها وأن سحابة  
كثيفة قد حجبت النور عن عينيها وأن قلبها يخرج من صدرها  
فقالت لأمباريا بلهجة يرق لها قلب الثمر المقدس : بربك يا  
سيدتي لا تعشي بيأس وقولي الحقيقة . . قولي يا سيدتي إن  
رولاند لم يكن يأتي إلي عندك .

فأجابتها أمباريا ببرودة قائلة : لقد جرى كل ذلك عندي في  
منزلي . ثم قالت للقضاة : نعم . لقد بدأ رولاند كانديانو بتنفيذ  
مشروعه المائل عندي ليلة أمس وذلك بقتل أحد أعضاء

علكم .

فاضطرب الأعضاء اضطراباً عظيماً والتفتوا جميعهم الى  
كرمي دافيليا الحالي . وقال فوسكاري بصوت أجش :

- أقتل دافيليا ؟

فتراجعت ليونور مندعة ويداهما على صدغها وعيناها  
تضطربان الى الحظية . وقد شمرت بأنها أصيبت بعملة لا دواء لها  
ونكتت نكتة لم يبق سبيل لانتقامها . أما أمباريا فإنها استطردت  
في حديثها فقالت :

- بقي علي أيها السادة أن أخبركم عن السبب الذي حمل  
رولاند على قتل دافيليا . إن ذلك للنكود مصاب بحرج بالغ  
وهو يجتزر عندي الآن وسيبوت غداً دون شك وها أنا أخبركم  
بما اتفق . إن رولاند فاجأ دافيليا عندي فجرد خنجره لفوره  
وطعنه به وجيمعك تعلمون أن بين عشاق الكثيرين لم يكن أشد  
غيرة من رولاند .

فأنت ليونور أنيتا مؤثراً أشفق له القضاة مما خلا أمباريا  
فإنها ابتسمت ابتسام المنتقم وقد أصيبت بمثل ما أصيبت به  
ليونور ولكن عزاها في تضحية حبيبها أنها تشقت بالانتقام من  
مزاحمتها فيه .

أما ليونور فإنها مشيت إلى الباب وهي غلسعة النفس وقد  
بلغ منها اليأس أنها عزمّت على أن تهيم وتسير إلى أقصى حدود  
الأرض هناك حيث تموت دون أن يراها أحد وحيث يموت معها  
الحب والزجاء .



وكانت ألتباري ينظر إليها وهو يسكاد بفقرسها ينظراته  
وأمباريا تنظر إليها وهي تكاد تطير سرورا بشقاها ، حق إذا  
وصلت إلى الباب فتعته ومث بالخروج منه ثم ترجعت مكانها  
خطر لها رجاء جديد . ذلك أن أحد الحجاب دخل إلى القاعة  
من أحد أبوابها وصاح قائلا :

يا حضرة القضاة ، هوذا النبيل السير جان دافيليا أقبل  
ليجلس في جلسته بينكم . ولقد كان دافيليا نفسه ، وإنما حضر إلى  
المجلس وهو محتضر بغية الانتقام من أمباريا ولإفقاد رولاند .

فحمل نفسه وأعاله خدمه على الوصول إلى المجلس وهو يعلم  
يقينا أنه قد يموت قبل أن يصل ولكن هي المروءة ثارت في  
صدره النبيل فبذل ما بذله من الجهد بغية إفقاد البريء والانتقام  
من الواشي حتى إذا مات بعد ذلك مات قرير النفس مطمئن  
البال . وجلس في كرسيه واصفرار الموت باد في وجهه . فلما  
انصرف الحجاب وغلا المجلس نظر دافيليا إلى أمباريا نظرة  
قطعت أوصالها من الرعب .

وكان القضاة قد تسارعوا إلى رصيفهم لما رأوا عليه من  
دلائل الموت ولوثوقهم بأنه لم يحضر إلا الأمر خطير ، ما خلا  
ألتباري فإنه أيقن أن الساعة الزهية قد دنت فبقى في جلسته  
وقد وضع يده على قبضة خنجره . وتأهب للدفاع عن نفسه حتى  
الموت . أما ليونور فقد كان اضطرابها لا يوصف إذ لم تكن تعلم  
ما يريد دافيليا وإذا كان ثبت مقال أمباريا أم يتنقضه .

وعند ذلك أشار دافيليا إشارة إلى رصفائه كأنه لا يستطيع

الكلام فتباعدوا عنه . وساد السكون الرهيب في تلك القاعة  
فلم يسمع فيها غير ترديد أنفاس الجريح ، إلى أن بدأ فوسكارى  
الحديث فقال :

- يا جان دافيليا ، إن هذه المرأة تتهم رولاند كاندديانو بأنه  
طعنك بخنجره ، فقل الآن ما أثبت تقوله لرصفائك .

فاقترب القضاة من دافيليا كي يستطيعوا سماع صوته الخافت  
وأطبقت ليونور عينيها وضمت يديها . وتأهبت أمباريا لانقضاض  
تلك الصاعقة على رأسها . وأسند دافيليا يديه إلى الكرسي وبدأ  
الحديث فقال : أعترف أن ...

وهنا انقطع عن الحديث وقد جعظت عيناه فقال له  
فوسكارى : تكلم أيها القاضي فإنك ستلاقي القاضي الكبير ..  
فبذل دافيليا كل ما يستطيع بذله من الجهد كي يستطيع الكلام ،  
ولكن الموت عقد لسانه فسلط على كرميه وبقيت عيناه  
منفتحتين تتوعدان . فدنا منه فوسكارى وتقفده ثم قال : أيها  
السادة ، إن رصيفكم جان دافيليا قد مات .

فرفع القضاة قبعاثهم احتراما لجلال الموت وأثم فوسكارى  
حديثه فقال : نعم ، لقد مات بعد أن قضى واجباته وأثبت أن  
هذه المرأة قالت لنا الحقيقة .

وعند ذلك خرجت ليونور وهي مطرقة الرأس ومثت  
ببطء مشي المجانسين . وفي الوقت نفسه كانت ضوءاء الشعب  
تقترب من الأسماع كهزيم الرعد البعيد ، فقال فوسكارى :

- سننظر أيها السادة غدا في العقاب الذي يجب أن نعاقب

بسه رولاند ، وأما اليوم فلنعمل على إخماد الفتنة ولنعلم كل منكم بما عهد إليه .

وعند ذلك رثب ألتاري وخرج في أثر ليونور ثم خرج الجميع فلم يبق غير فوسكاري وهو ينتظر نظرات منكبة إلى جهة دافيليا ويبتسم . وفيها هو على ذلك دخل إليه رجل فأنحى حتى كاد يبلغ الأرض وقال له : أتراني يا مولاي خدمت مجدك وأغراضك كما ينبغي ؟ قال : نعم يا جبر لقد أحسنت وسنعمل يبدأ واحدة . قال : عندما تقصر حاكم فينيسيا وسيد إيطاليا العليا .

وعند ذلك علت أصوات الهياج ودوي البنادق فأسرع فوسكاري إلى الخروج من تلك القاعة .

### العاصفة

\*

عندما خرجت ليونور من قصر الدوج كانديانو لم ينتبه في البدء أحد لخروجها حتى أن أباه نفسه لم ينتبه إليها لانشغاله بهذه الحادثة . وبحوادث الخاصة فقد كان هذا الرجل من أعظم نبلاء فينيسيا ولكنه قد خسر ماله ، وهو شديد المطامع فكان

يطمع أن يكون من كبار رجال الدولة وأن يكون له قصر على شاطئ القرعة الكبرى ويرجو نيل هذه الأمنية ولو بسفك الدماء .

وكان جمهور المدعويين قد صبروا بملء السكينة إلى أن استبطأوا عودة رولاند فكثرت القيسل بينهم واشتد هياجهم وعادت النساء إلى المنازل والتف هؤلاء النبلاء حول الدوج وهم يتكلمون همساً وقد ظهر صدق العزيمة على وجوههم .

أما والد رولاند فإنه لم يشترك معهم في حديث يسئل كان شاخصاً إلى باب القاعة الأكبر ، فإن رولاند قد خرج من هذا الباب وهو سيعود من هذا الباب .

ولبت على ذلك مسدة طويلة إلى أن فتح الباب فصاح صنيحة فرح وفتح ذراعيه كي يستقبل ولده . ولكنه بدلاً من أن يرى ولده رأى ليونور داخلة وهي شبه المجانين .

وفي تلك الساعة أشد هياج الشعب في ساحة سان مارك وبلغت أصواتهم إلى قصر الدوج فأجابهم النبلاء بهذا النداء واستل الدوج حسامه فاقتدى به نحو مائة من المدعويين . وكان الشعب يصيح من الحارح : ليحي كانديانو .. لتحي الحرية ! فخرج بعض المدعويين إلى القاعة وجعلوا يقولون : ليست العصاة المتمردون . واشتد الهياج حوالى الدوج أما الدوج نفسه فإنه أسرع إلى ليونور وقال لها :

— أين ولدي وماذا جرى له ؟  
فلم تستطع ليونور أن تقول كلمة واحدة وسقطت مغمياً

عليها ولكنها لم تبلغ إلى الأرض فإن التيارى تلقاها وحملها بين يديه فذهب بها إلى أبيها دندولو .

فاضطرب دندولو لأنه كان مسترسلاً إلى التفكير ولم يعلم شيئاً مما جرى وسأل التيارى عما حدث لابنته وعما أصاب رولاند ، فأجابته التيارى قائلاً : لا تسألني عما حدث وانظر إلى ماحوالك ثم لما جرى لرولاند . فالتفت دندولو قرأني كاندديانو مشهوراً حسامه وفي أثره نحو مائة مدعو قد اقتدوا به وهو يز حسامه ويقول : ولدي .. ماذا قطعتم بولدي ؟ وعند ذلك قدم فوسكارى تتبعه قرقة من الجند فدنا منه وقال له : - كاندديانو ، إن ولدك قد خان وهو في سجن الجمهورية ! كاندديانو ، إنك أيضاً من الخائنين ولم يعد لك لقب دوج ! كاندديانو ، إني أقبض عليك باسم ثرائفتا وبأمر مجلس العشرة . ثم دنا منه يحاول القبض عليه فصاح والد رولاند قائلاً :

- إني يا رجالي .. إني أيا الأصدقاء .. وبيع للجبناء إنهم قتلوا عني يحملتهم وبت وحدي ، ولكني لا أموت موت الجبناء ! وعند ذلك هجم بحسامه على فوسكارى ولكنه قبل أن يبلغ إليه كان الجنود قد أحاطوا به وأصابه واحد منهم بضربة على أعلى رأسه سقط على أثرها مقبلاً عليه .

وكان دندولو لا يزال يسأل التيارى عما حدث فقال له : إن الثورة ناشبة يا دندولو وإنك في عداد المهين وكفى المجلس برهانا على اهتمامك أنك وددت ترويح بنتك بشئ هذه الفتنة . فلهل قلب دندولو من الخوف وقال : وبيع لي ، إني لا بسد

أن أصاب بها أصيب به رولاند وأبوه . فالتفت التيارى به وقال له حساً : دندولو ، إني أريد بنتك !

ومما أشد هذا التصريح بل ما أقطع هذا الغرام في تلك الساعة المائلة والثورة ناشبة وليونور مغمي عليها بل إنها قد تكون في حالة خطرة وهو يحادث أباها بشأن زواجها ! فلزم دندولو الصمت ولكن عينيه كانتا تتكلمان عته بلغة فهمها التيارى فقال له :

حسناً ، فاذهبى بابنتك إلى محل آمن وأنا أضمن لك السلامة من الأخطار بشرط أن تكون مسؤولاً لدي عن بنتك . فظهرت على دندولو علائم التردد ولكنه أجال نظره بين الحاضرين فلم ير غير خناجر تلعب ووجوه تنجم فأطرق برأسه وقال : سأكون مسؤولاً عنها .

ثم نظر إلى الفتاة نظرة فوز وجرّد حسامه وخرج وهو يصيح قائلاً : هلم بنا أها الأسياد .. إلتبعوني أها الجنود ! فخرج الجميع في أثره وهم يضيئون : ليبت العصاة .. ليبت المتمردين .

\*

أما ليونور فإنها صحت في تلك الساعة ووجدت نفسها بين ذراعي أبيها فقالت له : سر يا أبي إلى المنزل فلا أطيق البقاء لحظة في هذا المكان . قال : لقد أصبت يا ابنتي فلنهرب من هذا البيت الذي لم نلق فيه غير الشقاء . قالت : نعم نعم فأبعدني عنه جهد ما تستطيع .



فتأبط أيها ذراعها وسارت وإياه وأسنانها تصطك"  
فخرجت من ذلك المنزل الذي كانت تحب نفسها فيه منذ بضع  
ساعات أسعد امرأة في الوجود . ولكنها قبل أن تخرج من  
الباب الكبير لقيت أم رولاند راكضة إليها وهي تقول بلهجة  
الوالهة :

هلي يا ابنتي فقد كنت خير كفوء له .. هلي ننتقم له  
فأما ننتقم وإما نموت معاً . فنظرت إليها ليونور نظرات قاتلة  
تشف عما خامر قلبها من اليأس وقالت لها : أنا .. أبتك؟  
فظهر على والدة رولاند كأنها لم تسمع أو كأنها لم تفهم فإن  
هذه الأم المتكودة كانت تعتقد أن جميع الناس متوجعون  
لنكبتها ولا سيما خطيبة ولدها فإنها كانت واثقة من أنها قوت  
معها في سبيله . ولذلك لم تصدق ما سمعته منها فأمسكت بيدها  
وقالت لها :

- تعالي يا ابنتي فإني وإياك نستطيع إقارة الشعب وهدم  
السجن فلا تقضي ساعتان حتى تخلص رولاند .. خطيبك رولاند.  
فضحككت الفتاة وكانت دموعها تسيل في الوقت نفسه  
وقالت : خطيبي ؟ أمو خطيبي ؟ إذ هي يا سيدتي إلى المخفية  
أمباريا وسليها تحريك من التي يحبها رولاند . فقهمت تلك الأم  
المسكينة عند ذلك أن ليونور قد تحلت عن ولدها وقالت لها  
بلهجة قنوط :

- أنت أيضاً ؟

ثم أقلت من يدها وخرجت من الباب هائسة على وجهها

واختلظت بالثاثرين ، فلما رأت ليونور ما كان من يأسيها بسطت  
يديها وصاحت تقول بصوت محتق : صبراً يا أماء فقد كذبت .  
ففي فإن قلبي لا يزال له ماحييت .. صبراً فإني قادمة إليك  
لإنقاذه !

وعند ذلك همت أن تدفع في أثرها ولكن أباهما حال دونها  
فعادتا إلى الإغماء . وهكذا أصيبت تلك العائلة في ساعة بأشد  
تكبات البشر وكل ذلك لطمع رجل وغيرة عظيمة .

### النزول إلى جهنم

\*

ولبعد الآن إلى رولاند ، فإنه حين ذهب مع فوسكاردي سار  
توأماً إلى مجلس العشرة . وقبل أن يصل إليه فتح فوسكاردي باباً  
وقال لبرولاند : ادخل إلى هنا وسندعوك بعد هنيهة . فتردد  
رولاند لحظة ثم دخل وسكانت هذه المرة الأولى التي تردد فيها  
بحياته ، فلبث كل حياته نادماً يؤنب نفسه لهذا التردد . ولما  
دخل أقفل الباب في أثره برفق فانتقطعت الأصوات فشعر رولاند  
كأنه قد ابتعد مائة مرحلة عن الأرض المأهولة .

وقد نظر نظراً قاصصاً إلى المكاتب الذي بات فيه فوجد

حتى انه ذكر تفريد ذلك الببليل الشجي فكانت هذه المناجاة  
تشغله عما هو فيه .

ولم ينتبه لنفسه إلا حيناً رأى أن ذلك المصباح المعلق بالسقف  
قد انطفأ فجأة وفتح الباب ، قرأى رولاند جسماً ضخماً يشبه  
حيواناً هائلاً بل خيل له أنه يرى كثيراً من تلك الحيوانات  
الضارية ، ولم تكن تلك الحيوانات غير بنود مدرعة بالفولاذ وفي  
أيديها الحراب المسنونة .

فوقف رولاند في البدء منهلاً في مكانه ثم هاج به الغضب  
فشم شتماً قبيحاً وهجم على اولئك الجنود ، ولكنه لم يكذب أن  
يهجم حتى صاح صيحة وارتدت عن الجنود وهو دامي اليدين .  
وكان عدد هؤلاء الجنود عشرين رجلاً وكلهم قد لبسوا خوذ  
الحديد في رؤوسهم والدرع في صدورهم وأرجلهم ، فجمعوا  
يتقدمون إلى رولاند ببطء دون أن يقولوا كلمة ، وقد انقسموا  
إلى أربعة أقسام وبيد كل منهم حربة مسنونة من جانبيها  
كالخنجر ، فأحذقوا به وصوب كل منهم حريته إليه فكانوا  
يشبهون يجمعوهم ذلك الحيوان الهائل الذي مثله روحنا اللاهوتي  
برؤياه وكانت حراهم تشبه ألسنة الأفاعي .

وسكت رولاند لسكوتهم إذ لم يجد كلاماً يقوله ولم يجد من  
يصغي إليه . ولكنه كان من حين إلى حين يحاول القبض على  
الحراب الدائرية منه فيرتد عنها يخرج جديد ويتراجع منهذراً  
وهو يزبد من الغيظ .

وما زال يتراجع حتى بلغ إلى الجدار وهو يعتقد أنه سيموت

غرفة ضيقة يتفد إليها نور ضعيف من مصباح معلق في السقف ،  
ولم يكن في هذه الغرفة شيء من الأثاث حتى أنها لم يكن فيها  
نافذة يتفد منها النور ، فارتعش وقد شعر لغوره أنه وقع في  
الشراك المصوب له . ولكنه تجدد ووقف ينتظر وهو شاخص  
إلى ذلك الباب الذي دخل منه وفكره متجه إلى الخارج أي إلى  
الحياة ، وقد مرت به الدقائق مرور الأجيال ، ثم مرت به  
ساعة لم يجد بحياته أطول منها دون أن يأتيه أحد ، فجزع  
وساحل أن يفتح ذلك الباب ولكنه كان يحكم الإقفال لا سبيل  
إلى فتحه .

فوقف عند ذلك الباب وجعل يقول في نفسه : صبراً فلا بد  
أن يكون حدث حادث شغل الفضة عني ، ولا بد أن أكون  
مبالغاً بطول ما مر بي من الزمن .

وقد جعل عند ذلك يشغل نفسه بعد ما مر به من الدقائق  
وذلك بعد دقائق قلبه ، ولكنه كان يشعر أن قلبه ينبض بسرعة  
بحيث لم يتمكن من ضبط الحساب . فاشتد به الجزع في ذلك  
المكان الضيق الذي كان يشبه القبر بضيقه وذلك السكون الخفيف  
الذي كان غريباً عليه ، فكثف يديه وعول على أن يصبر صبر  
الكرام .

ولكنه على ما عرف به من التجدد وقوة الجأش لم يتمكن من  
ضبط نفسه إلى أن جعل يذكر حبيبته نفسي موقعه واسترسل  
إلى مناجاتها ، وتمثلت له تلك الحديقة التي كانا يجلسان فيها فذكر  
آسر وقفة كانت لها تحت الأزرة وكل ما دار بينها من الحديث ،

هناك طعنا بتلك الحراب .

ولكنه حين استند الى ذلك الجدار شعر أنه افتتح وشعر أيضاً أن الحراب ما زالت تطارده وأنها قد بلغت الى عنقه ، فتراسع ودخل في رواق مظلم . ودخل اولئك الجنود في آفء الى ذلك الرواق وجعلوا يطاردونه بنفس الطريقة المتقدمة أي ببطء وسكينة دون أن يقولوا له كلمة أو يجيبوه على ما يقول . فشمع المنكرود أنه سيصاب بالجنون . ولم ينمعه عن الهجوم عليهم غير المحافظة بالسليقة على الحياة ، فإنه كان يعلم يقيناً أنه إذا هجم عليهم لا يلقى غير الموت من تلك الحراب المستونة الحدين .

وقد كان يسير الى الوراء وهو لا يعلم أين يسير ، وفي كل حين تعلق يده بحربة ويصاب بحرج حتى انتهى الى السلم فزل منه فدفعته الحراب الى رواق آخر أشد ظلاماً وضيئاً من الرواق السابق ، الى أن انتهى الى قبة عالية مضادة تعرف المكان الذي هو فيه وتنهّد تنهّد القائطين وقال :

— أوله ! إني في جسر التنهدات !

ذلك أنه علم أخيراً الى أين يريدون الذهاب به وعرف الى أين تؤدي تلك الطريق الجهنمية .

وعند ذلك دفعه الجنود حتى أدخلوه الى القبة وبلغ الى جسر التنهدات . وللقور ظهر جنود آخرون من الرواق فوجد رولاند نفسه بين الجنود وفي وسط الجسر وقد أحدهت به الحراب ووضعت في صدره ، قدفعوه الى مكان ضيق مبني

بالجسارة ، وهناك وضعت القيود الثقيلة في يديه ورجليه وعنقه وصدره بحيث لم يستطيع أن يأتي بحركة .

ولما أتم أولئك الجنود مهمتهم الهائلة انصرفوا ساكتين وقواروا عن الأنظار .

فوقف رولاند ينظر الى ما حواليه وقد كاد الذعر يضل صوابه ، فرأى ذلك الكرسي الحجري الذي يجلسون عليه من يحكون عليهم ساعة التنفيذ . وهم لا يقيمونهم على ذلك الكرسي لقتلهم بل لتنفيذ عقاب أشد هولاً من القتل سيفق عليه القراء في حينه .

وبعد حين رأى رولاند ثلة من الجنود قادمة من أطراف الجسر فتقدموا حتى وصلوا الى ذلك الكرسي ، كرسي العذاب ، وهناك أجلسوا رجلاً جاؤوا به سفول اليمين والرجلين وقد غطى رأسه بغطاء أسود حجب وجهه عن الأيصار ، وقد أجلسوه فوق هذا الكرسي وأحسوا الوثاق ثم وقفوا وراءه كي يدعوا رولاند ينظر ما يفعلون . وعند ذلك صاح أحدهم قائلاً :

— إرفعوا الغطاء عن رأسه .

فرفع الجلاء الغطاء الأسود وصاح رولاند صيحة هائلة تزعج بها صدره وقال :

— أي... أي... إنه أي !

وقد نسي رولاند حين رأى آياه في هذا الموقف أنه مقيد مثله فبذل جهداً لا يبسّله البشر كي يتخلص من قيوده حتى أن عروق يديه وصغبه نفرت وكادت تنقطع .



ولكن جهده ذهب عبثاً فسقط على الأرض خائراً القوي  
واهن العزم . وكذلك كانديانو قد رأى ولده قائماً أنبئاً لا يصفه  
فلم ولبت كل من الأب والابن ينظر الى الآخر الى نهاية الحادثة  
الهائلة وكل منهما يودع الآخر بكلمات تقطع القلوب من الإشفاق .  
وبعد هنيهة سمع صوت فوسكارى يقول : يا كانديانو ، إن  
الحكمة العادلة رأت بك وعفت عن ثقتك . فارتعش رولاند  
وجعل ينظر الى زعيم المفتشين . أما والد رولاند فلم أنه أجاب  
فوسكارى قائلاً :

- ياى حق تحكم علي هذه الحكمة العادلة دون أن تحاكمني  
وتسمع أقوالى ؟ أجابه فوسكارى قائلاً :

- إن الحكمة تعلم من أمرك فوق ما تعلمه أنت ، فتذاكر  
أعضاؤها بشأنك وحكموا عليك وقرروا الإبقاء على حياتك .  
ولكن المجلس رأى أنه لا بد له من اتخاذ الاحتياطات اللازمة  
كي لا يدع لك سبيلاً للعودة الى ما كنت عليه فلا تستطيع أن  
تؤذي الجمهورية بشيء بعد الآن .

قال : إني لا أفهم ما تقول . فأنكم اجتمعتم بالنس كالجبناء  
واتفقت على إلقاءني في السجن الطفلة التي لا أخرج منها في قيد  
الحياة . فافعلوا ما تشاءون ولكن احذروا لأنفسكم فإذا نجوتم  
من انتقام الناس لا تنجوا من غضب الله فإن الأرض والسماء قد  
أنبئنا مظلالمكم . وبعد ، فما الذي تلومونني فيه ؟ ألاني  
احترمت حرية الشعب ولم أوافقكم في تضحية هذا الشعب  
المظلوم على هياكل أطماعكم وأغراضكم ؟

ولكن لا بأس فاضنموا بي ما أنتم صانعون ، أما ولدي فأى  
ذنب جناه وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر بعد ؟ فإذا بقي في  
قلوبكم ذرة من عطف الإنسان فاشفقوا على صباه وارحوا  
خطيئته تلك الفتاة النبيلة التي تبكيه . هذا كل ما أتمسه منكم  
له إذ لا أتمس شيئاً لنفسي ، وعلى هذا الشرط أوافق بله  
الرضى على أن أصرف حياتي سجيناً في أبارك العميقة المظلمة .  
فأجابه فوسكارى قائلاً : كانديانو ، إنك بعد ساعة  
تصبح حراً .

فصاح رولاند صبيحة فرح ونظر الى أبيه والدموع تجول في  
عينيه وقال :

- آي ، إنك ستصبح حراً بعد ساعة فليجز الله فوسكارى  
خيراً .

فابقم رئيس مجلس التفتيش دون أن يجيب . أما والد  
رولاند فإنه ارتعش وقال :

- كلا إنهم لا يفعلون ذلك ... كلا إنهم لا يقدمون على هذا  
الأمر اللطيف .

ذلك لأن المنكود كان يعلم معنى هذه « الحرية » التي يُنعم  
بها مجلس العشرة ويتمنعونها بها عن إيداء الجمهورية .

أما فوسكارى فإنه التفت الى الجلال وقال له : أيها الجلال ،  
إفعل واجباتك . فاضطرب رولاند وقال في نفسه : ربه ، أي  
شان بقي للجلاد ما زالوا يريدون إطلاق سراح آي ؟

ثم صاح صبيحة منكبة وقال : ويحكم ماذا تصنعون ؟ ربه

ما هذا الأمر الهائل ؟ رجاءكم استقوا على أبي ! يا ويلكم من الموقف الأخير ! إلينا .. إلينا .. كلا .. كلا .. العفو .. العفو .. الرحمة ..

فقال له أبوه بصوت يتهدج : رولاند ، رولاند ، يا بني ، لا تنظر ..

ولكن رولاند لم يتنل لأبيه ولبت ينظر قرأى .. يا ويلهم ! إنه رأى كل شيء ... إنه رأى ، وقد وقف شعر رأسه وسال عرق اللزع من جبينه ، كل ذلك العقاب الى النهاية !

وذلك أنه حين أمر فوسكاري الجلال ذلك الأمر الهائل دنا الجلال من ذلك الشيخ ووضع على وجهه قناعاً من المعدن ، وكان في أعلى ذلك القناع ، أي في المكان الذي يقابل العينين ، رأسان حادان من الفولاذ . فوضع الجلال يده اليسرى على رأس والده رولاند كي يستده ، وبينما كان رولاند يلتبس العفو عن أبيه ضغط ذلك الجلال بيده اليمنى على القناع الحديدي فشبب الفولاذ في عيني ذلك الشيخ المنكوب .

وعند ذلك سمع صوت شقيق : صوت أنين . أما الشقيق فكان من رولاند إذ أعغم عليه . وأما الأنين فكان من أبيه إذ سملت عيناه . وبات أعشى لا يستطيع إيداء تلك الجمهورية العاتية . وقد أجريت هذه العملية بهارة بحيث لم يسئل من العينين غير القليل من الدماء . ولكن البؤبؤين اللذين نشب فيهما الفولاذ بقيا مفتحين فكان منظرهما هائلا .

وقد كاد هذا الشيخ المسكين يحس من ألمه ، فجعل يسير في

هذه الغرفة فيعثر بكل ما فيها ولا يقف لألمه واضطرابه ، إلى أن أمسك به اثنان من الجنود وخرجاه به من ذلك المكان الخيف الى أحد الأرصعة .

وكان هناك قارب كبير ينتظر فنقل الأعمى اليه واجتازا به مسافة طويلة على ذلك القارب ، حتى إذا وصلا به الى الشاطئ كانت مركبة تنتظر هناك فنقلاه اليها وسارت به تلك المركبة تنهب الأرض ساعات طويلة حتى وصلت الى مدخل قرية فوقفت . وعند ذلك شعر كاندبانو أنهم أنزلوه من المركبة وأنهم علقوا في رقبته كيساً ووضعوا عصا في يده .

ثم سمع صوت رجل يقول له : إنك تجد يا سيدي في هذا الكيس خبزاً وعشرة ريات للنقناتك الأولية . وأنت الآن في مدخل قرية فادخل اليها وستجد فيها دون شك من أهل المروءة والإحسان من ينشط الى العناية بك ، فاذهب يا سيدي ، واستعن بالله .

وعند ذلك عادت المركبة بالجنديين ، فوقف الشيخ التمس حائراً والهاً يضيء الى صوت المركبة إلى أن انقطع الصوت ، فاطرق برأسه الى الأرض وجعلت الدموع تسيل من عينيه اللتين لا نظرا فيها .

\*

أما رولاند فقد سقط مغمياً عليه كما تقدم ، حين رأى تنفيذ العقاب الهائل بأبيه ، وقد صبر فوسكاري برجاله إلى أن استفاق من إغمائه فتبادا قائلاً :

- رولاند كانديانو ، أسمعني ؟

فقال رولاند : من هذا الذي يدعوتني ؟ أهذا أنت يا أبي ؟  
قال : كلا يا رولاند ، بل أنا فوسكاري رئيس مجلس التفتيش  
وقد أتيت لأبلغك قرار مجلس المشرة فأصغر إلي . فأصيب  
رولاند بذعول وتثقل له ليونور فابتسم وقال : انظر يا أبي إلى  
خطيبي فهل ترى أجمل منها ؟ فقال فوسكاري :

- رولاند ، إن الثورة التي أفرقتها بالإشتراك مع أبيك قد  
أطفئت جذوتها بحة رجالنا وبفضل الله ، وكان من العدل أن  
تعاقب مثل ما عوقب به أبوك غير أن المجلس قد عفا عنك بإلحاح  
ألتباري واكتفى بأن يحكم عليك بالسجن المؤبد .

فظهر على رولاند كأنه لم يفهم كلام فوسكاري وجعل يلعب  
بجديد قيوده وقد بدت عليه علامات الإندهال فكان كالأطفال .  
فقال فوسكاري لرجاله : سبروا به . فقالوا : يجب أن تبقي  
عليه هذه القيود ؟ قال : كلا ، لا فائدة من ذلك .

- في أي سجن تريد أن تضعه ؟

- في السجن السابع عشر .

وكانت قلوب هؤلاء الجنود فظة كأنها قد ثارت من الحجر  
الصلد . غير أنهم لم يتالكوا عن الارتعاش حين عرفوا الموضع  
الذي سيسجن فيه رولاند . وعند ذلك فكوا قيوده وساروا به  
دون أن يدافع أو يفوه بكلمة . غير أنه حين اجتازوا جسر  
التهنيدات وبلغوا به إلى السجن الكائنة في الطبقة الثالثة تحت  
الأرض ارتجف وقال : ما هذا البرد الشديد ؟

فلم يردوا عليه وجعلوا ينزلون به فكلموا نزلوا طبقة تالم  
وشكوا البرد فلم يحفلوا بشكواه وواصلوا النزول فإنهم ألبوا  
جميع أنواع التعذيب الإنساني فأغلقت أبواب الرحمة في قلوبهم .  
وكانوا كلما توغلوا في النزول اشتد البرد وكثرت روائح العفونة  
إلى أن بلغوا المكان الذي يسرون إليه فأفلتوا ذراعيه  
وانصرفوا ، فسمع رولاند صوت إقفال باب عظيم من الحديد  
وكانت هذه البئر التي نزل إليها سجنه الرهيب الذي يدعونه  
السجن السابع عشر . وقد محي اسمه من مقر الأحياء وذهب  
ضواؤه فبات من المجانين بحيث لم يعد يتألم في نفسه ولا يشعر إلا  
بآلمه الجسدي .

أمسا هذا السجن فقد كان بشراً مقسمة بنيت جدرانها من  
الحجارة الضخمة وقد وضع فيها سرير من الحجارة ووضع بقرنيه  
إبريق وقطعة من الخبز الأسود . ولم يكن يسمع فيها غير هدير  
ماء التربة الكبرى ولا سبيل لتفاد النور إليها فإذا سمع السجن  
غير هدير الماء فلما يسمع من حين إلى حين أنين الأسرى أمثاله  
المسجونين بجواره .

الصل

\*

لقد تركنا أم رولاند متدقعة بين الجباهير بعد أن بنشت من



خطيبة ولدها وقد اختلطت بالثائرين وجعلت تصيح صياحاً لا يسمعه أحد لشدة أصوات الثائرين ودوي البنادق ، وقد سارت بالسليقة إلى حيث كانت تسمع الناس ينادون قاتلين : « ليحي رولاند كاندبانو » فلفتت هناك نحو عشرين رجلاً قد تمزقت ملابسهم واسودت وجوههم من الغبار وهم يقاومون الجنود وبينهم رجل هائل الخلقة طويل القامة كان يظهر أنه زعيم أولئك الثائرين .

وقفاً هو على ذلك دنا منه رجل اخترق إليه الجماهير وقال له : لم يبقَ فائدة من مواصلة الصباح فقد انتهى كل شيء ، وأخذ الناس يهربون من كل مكان ، فكفى يا سكالاً برينو .

فتنظر سكالاً برينو إلى ما حواليه نظرة دموية قرأى أن الجنود قد تغلبوا على الثائرين وأن الرجال يلقون أسلحتهم والنداء يصيح صياح الرعد فسال الرجل الذي كلمه قائلاً :

— ماذا جرى لولاي رولاند ؟ قال : كن مطمئناً يا سكالاً برينو ، فقد نال بفضلك كل ما يريد .

— إذن يجب أن تنصرف ؟

— نعم دون شك .. ولكن انتظر قليلاً ، أترى هذه المرأة

التي تتقدم ؟

— نعم .

— أعرفتها ؟

— كلا .

— إني أعطيك غداً مائة ريال إذا قتلتها ، ولك الخيار بين

أن تقتلها بالخنجر أو تفرقها في التربة .

فقال سكالاً برينو في نفسه : إني تعودت قتل الرجل بمسرة ريالات وهذه امرأة يدفعون لي اجرة قتلها مائة ريال ، فكيف لا أقبل ؟

وعند ذلك انقضت على هذه المرأة وكانت سيلفيا والدة رولاند فصرخ على جبهتها فأغمى عليها ثم اختطفها بمساعدة رجاله وأسرع بها إلى قارب فوضعا فيه وسار بها بغية قتلها وهو لا يعلم أنها والدة رولاند الذي كان يعتقد أنه يجدهم أجل خدمة بالهاتف له بين الجماهير ولا يعلم أنه قد قضى عليه القضاء المبرم بهذا الهاتف وأثبت عليه أنه مثير الفتنة .

وقد أخذت السكينة تعود تبعاً إلى المدينة وأخفت ظلمات الليل جثث القتلى في ساحة سانت مارك .

\*

في هذه الليلة نفسها كان نور يتيمت من غرفة صغيرة على شاطئ البحيرات وذلك في الساعة الثالثة بعد انقضاء الظليل أي في نفس الوقت الذي ألقى به رولاند في سجنه الهائل .

ففي هذه الغرفة الصغيرة كانت امرأة ناشئة على سرير حجير وقد عصبت جبهتها الدامية ، وفي مقدمة السرير فتاة لابسة ملابس تدل على أنها من عامة الناس تنظر إلى هذه المرأة نظرات إشفاق .

وفي إحدى زوايا تلك الغرفة رجل عظيم الجثة كان مترعباً

فيها ينظر أيضاً إلى هذه المرأة فقد كانت والدته رولاند وكانت الفتاة تقيم في ذلك المنزل . أما الرجل فإنه كان سكالا برينو . ولما بلغت الساعة الرابعة وانبتق الفجر قام سكالا برينو إلى الصباح فاطفأه وعند ذلك تحركت سيلفيا في سريرها قدما اللص منها ووقف مع الفتاة بتأملان وجهها ثم قال لها ممسا :

— ماذا ترى يا جونا ؟ فإن هذا الجرح الذي أصيبت به في جبهتها غير خطير بل إنه سيندمل سريعاً وفوق ذلك فإن جراح الرأس غير خطيرة ولولا ذلك لكانت من أهل المقابر . فهزت الفتاة رأسها وقالت :

— ليست جراح الرأس خطيرة بل جراح القلب ، فقد أصيبت هذه المتكردة يجرح لا يندمل كما علمت من حديثها حين كانت تهذي هذيان الموم .

فارتعش سكالا برينو وحول نظره عنها ثم جعل يمشي في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يتهدد ويتوعد بقبضه . وقد صحت أم رولاند لوقع خطواته قنادته وسأله أن يقترب منها فامتثل اللص ودنا منها فقالت له : إني أعرفك . فأنت الذي أنقذتني ، والآن أسألك أن تتكلم وتخبرني بكل ما جرى فلاني أحب أن أعرف على كل شيء . فإنك أنت الذي أنقذتني حين أصبت بتلك الضربة في جبهتي .

قال : هو ذاك يا سيدتي فاعلمي الآن ماذا جرى فلاني لا أزال أراك كما رأيته في تلك الساعة وقد خرجت من القصر فكنت هائلة حتى أتى خفتك وأنا لم أخف أحداً في حياتي . ثم امتزجت

بنا وجعلت تقولين أقوالاً لا أزال أذكرها إلى الآن وأرتعش لها . وقد جرى ذلك حين بدأت الجنود تطلق بنادقها على الشعب الثائر . وعند ذلك هجم عليك رجال مسلحون بغية قتلك فدافعت عنك وحملت مع رجالي فجئت بك إلى هنا .

كان يقول هذا القول بصوت يضطرب لأنه كان يكذب إذ لم يجد بداً من الكذب فقالت له : إذن لقد قُتل مائة رجل في ماحة الشعب . قال : نعم يا سيدتي ، وقد قتل مائة رجل في ماحة سانت مارك وغرق مثلهم في الرعة الكبرى وجرح نحو مائة شخص وتفرق الناس وقد هلمت قلوبهم من الخوف فلم يعد يسمع لهم حس . قالت : إذن لم يستطع أن يدخل إلى القصر ؟

— كلا يا سيدتي ، ولكن لماذا تفتكرين بهذه الأمور ومن أنت يا سيدتي ؟ وأين منزلك فأنتك إليه ؟ فقالت له سيلفيا كأنها لم تفهم كلامه : ولكن من الذي أثار هذه الثورة ؟ فأجابها بصوت منخفض قائلاً : لا أعلم يا سيدتي ، وكل ما أعلمه أنهم أعطوني عشرين ريالاً وأعطوا كل واحد من رجالي ريالين كي نصيح : « ليحيى رولاند كاندبانو » ونطلق بنادقنا في الهواء . ولو علمت قصدهم لنا امتثلت لهم . أتعلمين يا سيدتي ما يقولون ؟ — ماذا يقولون ؟

— إنهم يقولون وأسفاه ، إن رولاند كاندبانو لم يحكم عليه ويسجن إلا بسبب هتافنا . فإذا كانت هذه الأقوال صادقة وكان رولاند في السجن لا أجد عزاءاً لنفسي بغير الموت . — إن ذلك قد حدث يا بيتي .

- كيف عرفت ذلك ؟

- عرفت ذلك لأنني رأيتهم يقبضون عليه أمامي ، أسمع ؟

وقد عرفته لأنني رأيت جميع أصدقائه قد تخللوا عنه .. إذ أنت هو أيتها الشقي الذي تظاهرت بالثورة وهمت له كي يشتم بها ، فانتظر .

وعند ذلك نهضت من سريري وهي تريد من الغيط فتراجع اللص منذراً لما رآه من غضبها وقال لها : ولكن من أنت يا سيدي ؟ فبشت إليه وهي تقول : يا ويحك أنا أمه ...

فركع سلالاً يزينو وسجد أمامها حتى التصقت جبهته بالأرض وقال بصوت خنجرته المعبرات : أنت أمه وأنا الذي دعوتهم يقبضون عليه ؟ أقولني يا سيدي .. أقولني فلا أطيق الحياة بعد الآن .

فوقفت أم رولاند متذهلة مما سمعت ورأت ونظر إليها اللص فقال : إعلمي يا سيدي أنني قتلت كثيراً من أكابر الناس بهتني فإرت خنجرتي معدة لنصرة الماجز أو الجبان الذي لا يستطيع الانتقام . وقد سمرت أيضاً ودخلت إلى القصور فتهبتها ، فإن القتل والسرقة مهتني كما قلت لك ، غير أنني في كل ما فعلت لم أشعر بأنني ارتكبت جريمة غير الآن . فقالت له سيلفيا بلهجة جيافية : أوضح ما تقول !

- إن ابنك .. سيدي رولاند .

- تكلم .

- لقد دفعوا إلي مرة مالا كي أقوده إلى كين فحاربته

فانتصر علي وكان يوسعني أن يقتلني كما كان يفعل كل رجل سواه ولكنني لم يقتلني بل عفا عني .

- وأسفاه عليك يا ولدي التنبيل !

- ومنذ ذلك العهد أنار في نفسي عواطف لم أكن أعرفها من قبل ، وليس ذلك لأنه صفع عني وأبقى على حياتي فلا قيمة للحياة عندي ، ولكنك لو سمعت بقول لي : « إنك لم تحف فعموت عنك » ، لقد قال لي هذا القول دون احتقار أو كره وأنا ما تعودت أن أعامل بغير الكره والإحتقار فغيرت لطفتي وكل مناهجي وشعرت بأنني أصبحت إنساناً بعد أن كنت شراً من الحيوانات الضارية .

ثم نهض وجعل يسير في التفرقة بأقدام مضطربة ويقول بصوت منقطع :

- ويح نفسي ! إنني بدلاً من أن أكافئه عن إحسانه إلي كنت السبب في القبض عليه .. نعم ، إنني لم أكن عالماً بحقيقة ما فعلت ولكن كان يجب علي أن أعلم .. نعم هذه هي الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها في حياتي ولم أعد نفسي مجرمًا من قبل فقد كنت من بني الآثام .

أقولني يا سيدي إذا راق لك فإني لا أستعنى بالإشفاق ! ما بالك ترددن ؟ إعلمي أنني ارتكبت جريمة أقطع من الجناية المقدمة ، فإنك أنت والدة الذي صفع عني تتوهمين بأنني حاولت إنقاذك ولكن الحقيقة هي أنني أنا الذي هجمت عليك وأخطفتك لأنهم وعدوني بأن يدفعوا لي مائة ريال إذا قتلتك .



.. تقتلني أنا ؟

— نعم أنت والدة رولاند ! أعرفت مقدار جرئتي الآن ؟

— ولماذا لم تقتلني ؟

— لا أعلم . فلما حين اجتزت بك التربة حاولت مراراً كثيرة أن أقبلك فيها ، وهنا في هذه الغرفة خطر لي أيضاً أن أقتلك ، ولكنني لم أستطع فقد كنت مغمياً عليك وعيناك مطبقتان فوجدت بالمجوم عليك صعوبة لا أجدها بالمجوم على عشرة رجال مسلحين .. أرى أنك تقتلن يا سديتي وبماذا .. ألسنت تقولين في نفسك إنني لست مفلأ أستحق الرحمة ؟

— كلا ، بل إنني مشفقة عليك !

— أنت تشفقين علي ؟

— بل أصفح عنك .

— رباه ! إنها تشفق علي وتغفو عني فلما نضبت للشرك لولدها فانتصر علي وغفا بعد القدرة ، واستأجروني لقتل أمه فأشفقت علي وصفحت عني ، فكيف يصاب هؤلاء الناس بمثل ما أصيبوا به من النكبات ؟

أذكر مرة أني كنت على وشك الموت فجاءني كاهن فعرّفتني وذكر لي أهوال جهنم فلم أخف . وبعد ذلك كنت أراقب السماء أحياناً راجياً أن أرى فيها وجه الله . فلماذا كانت الأبالسة موجودة فكيف أبقت علي أمثالي ؟ وإذا كان الله علي ما يصفون فكيف يدع مثل هؤلاء الناس يبيكون وينشقون ويتعلمون ؟

كان يقول هذا القول ودموعه تسيل ولعل هذه أول مرة

بكى فيها مدة حياته . فدنّت ميلفيا فأخذت يده وقالت : ماذا تدعي ؟

— سكالا برينو .

— حسناً ، أريد يا سكالا برينو أن تكفّر عن سيئاتك بإصلاح ما أفسدته ؟

— ماذا تريد يا سديتي ؟

— أريد أن تساعدني على إنقاذ ولدي .

— إنني أسفك آخر نقطة من دمي في هذا السبيل .

— أريد أن تكون لي إلى أن يطلق سراح رولاند ؟ أريد

أن تكون خاضعاً لكل إشارة تصدر مني ولكل كلمة تخرج من فمي فتقتل كل من أرشدك إلى قتله فلا تكون لنفسك بل تكون لي وتكون السلاح الهائل الذي أنتقم به ؟ تعين قبل أن تحجب لأنني سأعبد إليك بهبات هائلة .

فبسط اللص يده كأنه يحلف بيميناً مقدسة وقال : إنني منذ الآن آله في يدك تدبرينها كما تشائين بل إنني عبدك الخاضع فمليك أن تأمرني وعليّ أن أطيع . ومهما تكن أغراضك هائلة فإني إرادتي في تنفيذها ستكون أشدّ هولاً فقولني يا سديتي بن تريد أن أبداً فلما عبدك منذ الآن .

فأجابته أم رولاند بصوت أبح قائلة : أريد أن تبدأ بليونور دندولر .

كانت ليونور في خلال الثمانية الأيام الأولى القبض على رولاند قد أصيبت بحس شديد ووقفت فيها بين الموت والحياة إلى أن تغلب صباها على تلك الحمى ونجت من أخطار الموت فكان أبوها يسهر عليها كل ليلة وهو يخاف في كل حين أن يفاجئها الموت .

وإن أباهما على شدة مطامعه كان يحبها حباً عظيماً فيبكي لتكبتها بكاءً صادقا ويعذب عذاب أبى حنون يرى ولده صريعاً بين يديه . ولا يستطيع إنقاذه من الموت ولو باقتدائه بنفسه ، فلما نجت ابنته من الخطر قرح قرحاً لا تصفه الأقلام .

ولم يزه ألتباري في خلال هذا الأسبوع بل كان يكتفي بالطواف حول منزله في جزيرة أوليفيو ويطرق بابه عشرين مرة في النهار والليل فيسأل عن صعة الفتاة فيعود قائلاً أو راجياً حسب ما يعلمه من أنبائها .

فلما وثق وندولو من سلامة ابنته عادت إليه مطامعه فقال في نفسه : إن ليونور لا بد لها أن تنسى مع الأيام حادثتها الماضية وتعود إلى الحب الذي يدفعها صباها إليه فأجمل هذا الحب مفتاح تروني .

ومضى على ذلك شهران كانت ليونور فيها بدور النقاغة

تجلس كل ليلة تحت تلك الأرزة الكبرى في حديقة منزل أبيها ولا تنور مجلساً على هذا المجلس .

ولم تكن تذرف دموعاً ولكنها كانت دائمة للتفكير قليلاً في النفث بأبيها حاولت أن تصرح عما تفكر به ولكنها لم تكن تجسر . إلى أن كانت جالسة معه ليلة وقد ملأ الحزن قلبها حتى لم تعد تطيق احتمال فساء لها أبوها حسب عادته قائلاً : لماذا تفكرين يا ابنتي ؟ فترددت هنيئة ثم قالت ؟ أبي ، إني أفكر به وأحب أن أعرف ما جرى لتلك الأسرة فإن ذلك يلطف أحزالي . قال : سلمي يا ابنتي ما تشائين .

— ماذا جرى لأبي ؟

— إنه برح فيليبيا ولم يعلم أحد أمره .

— وأمه ؟

— سافرت أيضاً .

فترددت أيضاً هنيئة ثم قالت بصوت خافت :

— وهو ؟

— رولاند كاندباتو ؟

فارتعشت ليونور لهذا الاسم واصفر وجهها فقد خيل لها حين سماعه أن رولاند قد ظهر لها وأنه لم يحدث شيء لها وأنها تنبأت من حلم .

وعند ذلك دقت الساعة مشيرة إلى انتصاف الليل فسمعت تلك الدقات المتوالية وهي مطرقة الرأس وقالت : هوذا نصف الليل ، هي ذي تلك الساعة التي كان يتركتني فيها لينعذب إليها .

إلى تلك التي يحبها ويتار عليها !

فلما سمع أبوها قولها رأى أنه قد دنت الساعة التي يجب أن يتم فيها تلك الحطة التي رسمها له ألتباري فقال : لا تقتكري يا ابنتي بهذا الرجل فقد برح فينيسيا ، وقد سافر هذا العقوق الناصر الجليل دون أن يراك ودون أن يرى ألتباري ، ذلك الرجل النبيل الذي دافع عنه أجل دفاع في مجلس المشرة حتى حلهم على العفو عنه وإطلاق سراحه . فأنسى يا ابنتي هذا الرجل وأمه وآباء فما هم من أهل الخير والصلاح .

قالت : أهو سافر أيضاً ؟ قال : نعم ، فإنه حين فشل بإثارة الفتنة قبض عليه ولم تكوني قد أصبحت امرأته بعد بفضل الله الذي أشكركه ما حبيت لظهور مؤامرة هذا الرجل قبل قوات الأوان . وبعد أسره بثلاثة أيام تمكن ألتباري من إطلاق سراحه بعد أن أقسم يميناً عرجية أن لا يحاول الإساءة إلى الجمهورية بشيء . وبعد أن أقسم هذه اليمين لا يعلم أحد مصيره إلى الآن . - إذن لقد سافر ؟

فحس أبوها في حديثه فقال : ويقولون إن هذه المرأة التي أحببتها بحظية فاسدة الأخلاق وإنها هي التي أثارت في نفسه هذه المطامع فإنها رومانية ما جاءت إلى فينيسيا كما يقال إلا للاستعانة بمجالها على إثارة الفتنة فيها ، وعلى الجملة فليس هو يذب ولا يجب أن نلقى تبعة الجريمة إلا عليها فإن هذه المرأة ...

فقاطعته ليونور قائلة :

- يريك كفى ! ألا ترى أن كلامك يقطع قلبي ؟

ثم انقلب رأسها إلى الوراء وأصابت بنوبة عصبية كادت تقضي عليها . فقلع قلب أبيها من الخوف وحل رأسها بين يديه وقد أشفق عليها إشفاقاً عظيماً وكاد يقول لها : عودي يا ابنتي إلى رشذك فإنه بعبدك ولا يجب سواك وإنه الآن في ظلمات السجن شهيد حبك ...

ولكنه قبل أن يقول لها هذا القول نظر وهي بين يديه فرأى ألتباري واقعاً أمامه وقد وضع إصبعه على فمه وجعل يتهدده بنظراته .

فأن دندلوا أنين الموضع وقال : ونج للنفس ، إني سائر في طريق الجريمة .

\*

وفي اليوم التالي ظهر على ليونور وكأنها قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فإنها لم تعد تشكو وانقطعت عن البكاء وعادت إلى أعمالها البيتية ، ولم يرَها أحد بعد ذلك تجلس تحت الأريزة الكبيرة ، ولم تعد تذكر رولاند ولا حوادث خطيبها ، فكانت تستقبل زوار أبيها حسب عاداتها وبينهم ألتباري الذي كان يكثر تروده تبعاً لليوم حتى بات يزورهم كل يوم .

الأم

\*

تقدم لنا القول إن سيلفيا والدة رولاند قد اختلت بسكالا



برينو، وقد طالت هذه الخلوة مدة طويلة فكانت سيلفيا تتكلم بصوت منخفض وسكالا برينو يصغي إليها أتم الإصغاء ويحجب من حين إلى حين بكلمة أو بإشارة .

وقد جمعنا تلك الأم تقول لذلك اللص إنه يجب أن نبدأ بالانتقام من ليونور، ذلك لأنها باتت تكرهها في ذلك الحين كرهها قائلاً فإنها كانت تعتقد أنه إذا تخلّصت الأرض والسماء عن رولاند وهجره أصحابه ومريده ، فإن خطيئته لا تتخلّى عنه لما كانت تعلمه من تبادل الحب بينهما ، فإن رولاند لم يكن يقول جملة حتى تتخلّصها كلمة ليونور ، ولم يبحث في موضوع إلا كانت ليونور نقطة دائرة البحث فيه . وكذلك ليونور . فكيف استحال هذا الحب بعد نكبة رولاند ؟

إذن لقد كانت كاذبة غداة أفتاكة أحبته في أيام الرخاء وتخلّصت عنه في ساعة الشدة !

ومن أين لتلك الأم المنكودة أن تعلم ما يحول في نفس تلك الفتاة الطاهرة ؟ بل أين لها أن تعلم تلك المكيدة التي كادوها لولدها فاتهموه يجب تلك المومس ؟

ولذلك كانت كلما خطرت ليونور في بالها هاجت أحقادها عليها وتبين الكره في عينيها . وعندما قالت كل ما تريد قوله لسكالا برينو وأيقنت أنه فهم كل مقاصدها قسالت له : إذ ذهب وأفعل كل ما قلته لك ، ولكن لا تضربها أنت قاتلي أحب أن تكون من يدي تلك الضربة القاضية . فانهب وأحضرها إليّ فسنداً بها . إذ ذهب وعُد إليّ سريعاً بما سألتك أن تأتيني به من

الأنباء . قال : سأعود اليك بعد ساعتين بما تطلين .

ثم تركها وانصرف . فأقامت أم رولاند في زاوية من العزقة وغطت وجهها ورأسها بقناع كثيف كي تحجب عنها النور كأنها تريد أن تطابق بين الظلمات وظلمات نفسها القانطة . وبعد ساعتين لم يعد سكالا برينو كما وعد ، وسان الظهر دون أن يحضر . وعند ذلك دخلت إليها جوانا وقالت :

— ألا تريد أن تأكلي قليلاً يا سيدي ؟ قالت : أشكرك يا ابني فلا أجد شهية للطعام . قالت : إذن ألا تريد أن أغتسل رباط جسمتك ؟ قالت : لا حاجة لي إلى ذلك فإنه لا يؤلني . فخرجت جوانا وهي تقول : ممكنة هذه المرأة فياني أذوب إشفافاً عليها .

ومضى ذلك النهار دون أن يعود سكالا برينو ، ثم مضى اليوم التالي والذي تلاه وهو غائب . وقد صبرت سيلفيا أربعة أيام دون أن تعلم شيئاً من أخبار هذا الرجل ، فبدأ اليأس يخامر قلبها .

ولم تكن تفكر في خلال هذه الأيام الأربعة إلا بالانتقام لولدها أو بإنقاذه . وكان خاطر الانتقام قد تغلب عليها وهي معتمدة فيه على سكالا برينو ، فكانت تعدّ غيابة ضريبة قاضية على أمانيتها إذ لم يبق لها من الأعوان غير جوانا ، وماذا عسى تنيدها هذه الفتاة وهي لا تتجاوز أربعة عشر عاماً ؟

فبعد أن أطالت التفكير في وسائل الانتقام وأيقنت من عجزها عنه جعلت تبكي وجعل الانتقام يزول تبعاً من قلبها

ويحل محلها جميعاً لولدها حتى باتت شغلها الشاغل ، وامتنحى كل أثر للانتقام ولم تعد تفكر إلا بوسائل إنقاذه .

ولكن أنشأ لها ذلك وهي قد سمعت بأذنها خبر غزل زوجها وأنه لم يعد حاكم فينيسيا ، ورأت بعينها أن التيلاء يحملتهم قد تخلتوا عن نصرتهم لحوقهم العاقبة بحيث لم يبق لها من معين غير الدموع والرجاء والاستعطاف .

ورأتها جواراً خارجة في صباح يوم من المنازل فقالت لها : اني ابن قنهبين يا سيدتي ؟ فلم تجبها وأشارت لها إشارة استدلت منها الفتاة على مبلغ بأسها وأنها لا تعود .

أما سيلفيا فإنها كانت بعد ساعة قرب منزل فوسكارى رئيس مجلس التفطيش وقد وقفت هناك فتتظر قدوم هذا الرجل . فعضى النهار دون أن تراه فلم تجد بداً من العودة في الليل الى تلك للفرقة الحظيرة عند الرصيف . فلما رأتها جواراً داخله صاحبت صيحة فرح ، ولكن سيلفيا لم تتبته اليها لأنها كانت منشغلة بما هي فيه عن كل ما سواه في الوجود .

وفي اليوم التالي ذهبت أيضاً الى موضعها في الأمس عند منزل فوسكارى ، وكذلك في اليوم التالي بحيث باتت تبصر القرفة كل يوم فتقيم خارجها كل النهار ولا تعود اليها إلا عند هبوط الليل . وكان الناس يرون تلك المرأة تنقف كل يوم قرب منزل فوسكارى وهي مبرقة بالسواد فيقتربون منها حتى إذا عرفوا أنها امرأة الدوج حاكم فينيسيا السابق ابتعدوا عنها خائفين ، لأن كل من يتودد لهذه العائلة المحكوم عليها بموت شريكاً لها

بالعصيان .

ولبثت على ذلك خمسة عشر يوماً الى أن أتيح لها أن ترى فوسكارى ، فتقدمت منه وقالت : فوسكارى ، اني أتيته اليك متوسلة . فأظهر فوسكارى علائم الضجر ، قضت يديها وقالت له : اني أتيته ملتصقة قاسم يا فوسكارى رجاء أم ترسل اليك أن ترد لها ولدها . فوسكارى ، إنك لست من أهل الشر وإنك قادر على إخراج ولدي من سجنه بكلفة تغزج من شفتيك ، فأجابها بنفسه : إن ولدك قد حكم عليه مجلس العشرة فلا أستطيع المداخلة بشأنه على الإطلاق .

ثم تركها وهو يحاول أن يركب القارب ، فركضت اليه والهة حتى اضطر أن يقف بالرغم مما فطر عليه من القوة . وعند ذلك قالت له كل ما يمكن أن تقول له أم في مثل موقفها من الكلام المؤثر الخنوع ، حتى إذا قرعت من حديثها التفت فوسكارى الى جنديين كانا يصحبانه وقال لها : أبعدا عني هذه المرأة ولا تدعها بعد الآن تقرب من القصر .

فأبعدتها الجنديان بتهنئتي العنف بينما كان فوسكارى يرقب القارب ، فسارت تلك المنكودة وهي لا تعي لباسها ، وفي اليوم التالي نظرت صدقة في المرأة فرأت أن شعرها قد شاب يحملته ويات تصعب اللياس وقد غارت عيناها وبرزت وجنتاها وشعب لونها بحيث لو رآها من كان يعرفها من قبل لا عرف أنها الدوجة سيلفيا امرأة الحاكم السابق ، تلك المرأة التي كانت تفنن الناس بأدبها وكرم أخلاقها .

على أنها إذا كانت قد نشت من فوسكاري فلم تباين بعد من أولئك النبلاء ذوي التفوذ ، فذهبت اليهم الواحد تلو الآخر فكان بعضهم يرفضون طلب مقابلتها وبعضهم يشيرون عليها بالخروج من فينيسيا . فلم تدع أحداً من أولئك الأعيان الذين كانوا يتزلفون إليها بالأمن حتى ذهبت اليه والتبست مساعدته فلم تظفر بمساعدة أحد .

وبينا كانت ذات ليلة تطوف باحثة عن مساعد جديد لقيت ذلك الرجل الذي دل عليها سيكاللا يريثو يوم الثورة ودفع له مائة ريال كي يقتلها وهو ببو . فلما رآها ببو عرفها فنظر الى ما حوالاه وقد خطر له أن يلقيها في التربة ، ولكنه رأى رجلين يسيران الهويناء في الطريق فالتفت عن هذا العزم . أما سيلفيا فقد ذكرت أن هذا الرجل كان يتردد الى منزلها وقد أكل مراراً على مائدتها وكانت تعلم أنه من أصدقاء ولدها فدنّت منه وحكّت له أمرها ، حتى إذا فرغت من قص حكايته تظاهر هذا المنافق بالحزن الشديد حتى لقد تظاهر أنه يسبح دموعه ثم قال لها بلهجة المشفق :

— إنك تعجيبين يا سيدتي كيف أنك لم تجدي من يسعى لإنقاذ ولدك ولدك بين أصدقائه الكثيرين ، ولكنهم لم ينتهوا عن ذلك لسبب وجيه . وأنا أعجب كيف أنهم لم يحسروا على إخبارك بهذا السبب ، أما أنا فإني رقيق الشعور وقد أثار عني حزنك تأثيراً عظيماً حتى عزمتم على إخبارك بالحقيقة ، لأنه لا يروق لي أن أرى امرأة في مقامك الرفيع تطوف على الأبواب وتتوسل

الى الناس وتسألهم زلفة مستحيلة . وإنما أقول « مستحيلة » يا سيدتي لأن ما يريده أصدقاؤه ولذلك وما تريدينه أنت يستحيل على مجلس التقيش وعلى مجلس العشرة تنفيذه .

قالت : أعرف ذلك وأسفاه ! فإني الشرائع تحول دون تحقيق رجائي ، ولكن ...

فهر ببو رأسه وقال : ليس هذا الذي أعنيه يا سيدتي . قالت : إذن ماذا تعني ؟ قال : أعني يا سيدتي أنه لا يمكن إطلاق سراح الأموات !

فستطلت سيلفيا على ركبتيها وخرج من صدرها صوت يشبه صوت الحيوان عند الذبح ، إذ لم تستطع أن تقول كلمة أو تذرف دموعاً .

ثم نهضت وسارت في ظلام الليل ، فكان الناس ينظرون اليها كما ينظرون الى الأشباح الخارجة من القبور . ومنذ ذلك الحين لم تعد تقف عند باب قصر رئيس المفتشين ولم يعد يراها النبلاء ولم يعرف أحد من الناس مصيرها ما خلا تلك الفتاة المدعوة جوانا .

## الحقد

\*

لقد دنا الزمن الذي يجب علينا أن نزيح الستار فيه عن مقاصد



ببؤ قنعل كيف أنه يحقد على رولاند هذا الحقد ، رأي مارب له  
في وضع هذه الخطة التي قضت على رولاند وأسرته ، وكيف أنه  
على ضعفه وهو في ذلك العهد راهب بسيط تمكن من استخدام  
مثل قوسكاري وألتباري وأمباريا للتشكيل برولاند .

ولأجل ذلك يكفي أن نسمع أقواله من فمه ، فإن هذا  
الشقي بعد أن ضرب والدته سلفيا هذه الضربة الأخيرة جعل  
يحدث نفسه فيقول :

إذن ، لقد تم لي الآن ما أريد . فإن المسيو رولاند سجين في  
أعمق الآبار ، وهذا حقيقي فما أنا من الحالمين . وكذلك أبوه  
الأبله ، فقد سمعت عيناه ولم يعد يستطيع قضاء أمر . وهذه أمه  
فقد سحقتها سحقاً ، فبانت تلك العائلة ووجودها شبه العدم .  
ويح لهذا الأبله ألتباري ! إنسه أراد أن يقتل رولاند بالخنجر  
وكاد يفعل لولا أن تدخلت في أمره ودرت هذه المكيدة .  
والآن يا سيدي رولاند كاندبانو . . إنك على عمق ثلاثين قدماً  
في جوف الأرض تعذب كما عذبتني بأقوالك غني ! أتذكر يا  
سيدي رولاند حين كنت تقول : إن ببؤ يكلفك كثيراً من  
النفقات ؟ أتذكر حين كنت تحملني هزأ في عيون النساء إذ  
كنت تنظم الأشعار في قمع وجهي كي تضحك علي ؟ نعم إني  
قيبح المنظر وضيع النسب أحرقت الأرض غيظاً حين أوازن بيني  
وبينك ، ولكن هذا التهكم وهذا الهزء قد كلفك ما هو أعظم  
من الحياة .

أتذكر حين كنت تقول : مسكين ببؤ ، إني أشفق عليه

فأدعوه إلى مائدة كي أتسلى بمنظره وأحسن إليه ببالي فلإني من  
الأغنياء وهو فقير ، وأنا ابن حاكم قبليسيا وهو من عامة الشعب .  
فلا بدع إذا تبرعت عليه بالصدقات ومتى ضجرت منه تخلت  
عنه !

مهلاً يا سيدي رولاند قسري ما يكون من ببؤ المسكين  
حين أجل في عيون النساء بعد قبحي ، وحين أتصدق على الناس  
بعد أن كانوا يحسبون إليّ ، وحين يشير إليّ الجميع بالرهبة  
والاحترام بعد أن كانوا يشيرون إليّ بالهزاء كما علمتهم .

مهلاً يا سيدي رولاند فستصلك أنباتي وأنت في جوف  
الأرض حين أكون قد بلغت أعلى قمة من الجبل .  
ثم ضحك ضحكة هائلة وتوارى في جنح الظلام .

### السجن السابع عشر

\*

مضى على ذلك ثلاثة أشهر ورولاند لا يزال في سجنه الرهيب  
وكان لا يزال ضائع الرشد بحيث أنه لم يكن يعلم أن هو ولا  
ماذا أصابه من الكوارث . فقد كان نما رأى من نكبة أبيه  
شبه حالم لا يزعجه شيء في ذلك السجن غير البرد حتى أنه أليف

هذا البرد تبعاً فلم يعد يشعر به شعوره الأول ، وفوق ذلك فإن  
حارس السجن رآه مرة يرتعد من البرد فأعطاه دثاراً فصار  
يلتف به كلها ثم فوق سريره الحجري .

فبعد أن مضى ثلاثة أشهر شعر يوماً وهو يأكل أن صوابه قد  
عاد إليه فوضع يده على جبهته ثم ألقى قطعة الخبز التي كان  
يأكلها وقال : ما هذا الخبز العفن الجاف ؟ وقد نظرت إلى ما  
سواليه فوقف فجأة ومشى بضعة خطوات وهو يقول :

— ماذا أعمل هنا وأين أنا ؟

ولم يكن ذلك غير لحظة فعاوده الذهول وعاد إلى الأكل .  
غير أنه بعد بضعة أيام دخل السجناء إليه وبحث في ذلك الظلام  
الحالك عن رولاند في سريره الحجري فلم يجده فنظر في جوانب  
تلك البئر بعينيه المزدحمين على الظلمة فرأى بريق عيني السجين  
ثم سمع منه زفيراً يشبه زفير الأسود ورآه قد وثب هاجماً عليه  
فأمسح وخرج من الباب وأحكم إقفاله وهو يقول : يظهر أنه قد  
عاد إلى الهياج بعد السكون !

أما رولاند فإنه حين وصل إلى الباب وجده مغلقاً فجعل  
يضربه بيديه ورجليه ويحاول فتحه دون أن يستطيع ، فارتد  
صاحباً ساخطاً وهو يقول : وحب لأوائك الجبناء ، إنهم اغتبنوا  
فرصة الإغمائي فحصلوني إلى هذا السجن .

وقد عاد إليه كل صوابه في تلك الساعة فعرف بعد البحث  
أنه سجين في بئر ، وأنه في ذلك السجن الذي لم يخرج منه أحد  
حيّاً ، وأنه سيدفن في هذا القبر ولا يرى ليونور قبل الموت ولا

يرى أمه ولا يرى فينيسيا وترعها وقواديبها الحقيقة ، ولا يرى  
سجاء إيطاليا الزرقاء !

عاد إليه كل صوابه فعرف تلك الحقيقة الهائلة وعنسى أن لا  
يكون قد عاد إليه الصواب ، فأقام بقية ذلك اليوم وهو في أشد  
حالات الهياج يتمثل له موقفه قبش إلى الباب ويعود عنه دامي  
اليدين مقبوع الرأس واقفي القوى فيستريح هنيهة ثم يعود إلى  
ما كان عليه إذ لم يكن يريد التصديق أنه مثل ما يكون في مثل  
هذا السجن .

وقد فعل ذلك عدة مرات حتى أيقن أن فتح الباب محال ،  
فعاد إلى مجلسه الحجري ووضع رأسه بين يديه وجعل يتعمّن في  
أمره فانتبه بعد هنيهة إلى أن شعره قد طال حتى بلغ كتفيه وأن  
أظافره قد طالت كثيراً وأن لحبته كادت تبلغ صدره وأن ثيابه  
قد بليت لكثرة استنكاكها بالحجارة ، ولم يكن رشده قد عاد  
إليه قبل ذلك اليوم فعلم بعد الإيمان أنه كان مدة طويلة في حالة  
غير طبيعية .

وفي اليوم التالي دخل إليه السجناء وهو مسلح بخنجر طويل  
فراه هادئاً مطمئناً مفكراً فقال في نفسه : لقد عادت إليه  
السكينة أو عاد إليه الذهول . وعند ذلك ناداه قلم يحبه . وكرر  
النداء ، فلما رآه لم يجب ترك له الخبز والماء وانصرف عنه وهو  
يتوجع لمصابه .

ومضى على ذلك شهر لقي رولاند في خلاله أشد ما يلقاه  
القائضون حتى أنه لقد خطر له أن يهدم جدران البئر عليه وعلى

من يحاوره ويحرسه كما فعل شمشون . ولكن أنسى له ذلك وقد بُنيت هذه البئر على أمّين الدعائم ؟ فكان يهيج ثم يهدأ إلى أن وهنت عزيمته وبدأ دور الخطاطم .

وقد خطر له بعد أن بقي على هذه الحالة ستة أشهر تخاطب أعاد إلى قلبه شيئاً من الرجاء ، وهو أن يجلس العشرة لم يحاكمه لأنه كان مصاباً بالشذوذ في فكره ، فإذا تمكن من إقناع حراس السجن بأن صوابه قد عاد إليه فلا بد للسجن أن يحاكمه ويُطلق سراحه لأنه ليس من المذنبين . ولم يأت أمراً يستوجب السجن ، لا سيما وأنت له بين أعضاء المجلس أصدقاء مخلصين كالتباري ! فجعل منتهى ذلك الحين يتحدث كل سجين يدخل إليه باللطف والجمامة حتى إنه كان يروي لهم النكات المضحكة فأنسوا به وجعلوا يدخلون إلى محبسه بالطعام بعد أن كانوا يُدخلونه من نافذة صغيرة .

وقد دخل إليه أحد أولئك الحراس يوماً فقال له : أرى أن السكينة قد عاودتك بعد ذلك الهياج . قال : نعم ، فقد كنت مصاباً بنوبة ذهلي وقد ذهبت بحمد الله !

— إذن لقد وجبت مكافأتك !

فانتقدت عينا رولاند ببارق من الرجاء وقال : بماذا تكافئوني وكيف ؟

— بتعزية رجال الدين ... فقد أذن لأحد الكهنة أن يزورك ويعزيك عما أنت فيه .

— متى يحضر هذا الكاهن ؟

— في هذا اليوم ، وهي منتهى ألم ينلها سواك . فإن كثيرين من المسجونين هنا يموتون دون أن يتلقوا بركات الكهنة .

ثم تركه الحارس وانصرف ، وبعد هنيهة افتتح الباب ودخل كاهن قد غطي رأسه فاستقبله رولاند بلاء الارتياح وقال له : أشكرك يا سيدي الكاهن لتفضلك بزيارتي بعد أن تحلى عني الجميع . قال : لا تشكركي يا ابني بل أشكر الله .

— دع الله يا سيدي الآن حيث هو وحدته عن الذين أحبهم .

— أيها المسكين ، أبلغ منك اليأس أن تتكرر فضل الله ؟

— إن الله لا يهتم في الآن فلا يشغلك أي أهمية به ، وإذا

كان في صدرك قلب يحرق وفي عروقك دم إنسان فأجيني .

فقال له الكاهن بلهجة غريبة : لا شك يا ابني أنك تعذبت كثيراً . فقال رولاند : نعم ، وكيف لا تعذب وأنا أدفن حياً

في هذا القبر الذي أموت فيه كل يوم ألف منتهى ؟ فظهر على

الكاهن كأنه يلثم كلام رولاند وقال له : يا ابني ، إني أرثي لحالك . فارتعش رولاند لصوت هذا الكاهن كأنه قد سمعه من قبل ولكنه لم يحفل بذلك فحصى في حديثه فقال :

— لملك تشفق علي يا سيدي متى عرفت حقيقة أمري ،

فتصور يا سيدي أن أباك وأهلك وخطيتك وكل الذين تحبهم لا

يبعدون عنك غير بضعة أمتار وراء هذه الجدران المظلمة وأنت تعلم أنهم سيكونك بدموع من الدماء . ولا تستطيع أن تراه ولا

أن يروك . وأقطع من كل ما لقيت أنهم ألقوني في هذا السجن

الرهيب دون أن أعلم السبب ودون أن يحاكموني ، فإذا أمكن



مثولي أمام مجلس العشرة تجوت دون شك فإن لي بين أعضائه  
كثيراً من الأصدقاء مثل ألتباري ... وسواه .

— ألتباري ؟

— نعم . أملكك تمرقة ، قل .

— كلا .

— لا بأس ، فإنك تذهب إليه وتجبره بما سمعت ورأيت  
أليس كذلك ؟ إنهم يعتقدون أنني شاذ يا سيدي الكاهن وهذا  
الذي منعهم دون شك عن عماكني . ولكنك أنت من رجال الله  
والمرورة وقد رأيت أنني عادي بحيث تستطيع إخبارهم بأمرى  
وأنهم يقدرزون على عماكني .

— إطمئن يا سيدي فساخبرهم .

فأسرع رولاند إلى يد الكاهن فقبلها وقال له : ليباركك  
الله يا سيدي ، قل لي اسمك .

— إني من خدم الله وهذا هو اسمي وإطمئن يا ابني فسابداً  
اليوم فعل ما يجب فعله . وعند ذلك حاول الكاهن أن ينصرف  
فقال له رولاند : أتوسل إليك يا أبي أن تمكث قليلاً فقد أعدت  
إلى قلبي الرجاء .

— لم يأتوا لي يا ابني إلا بدقائق معدودة وقد انقضت .

— أوآه ! فإني كنت أريد ... وهنا بُحَّ صوته ولم يخرج

الكلام من شفثيه ، فقال له الكاهن : ما الذي تريده يا بني ؟

— أريد أن تحدثني عن ليونور .

— لا أعرفها ، فإني كاهن بسيط .

— في أية كنيسة تخدم ؟

— في كنيسة سانت فورموز .

فصاح رولاند صيعة فرح وقال : إنها تقيم على مسافة  
خطوتين من هذه الكنيسة وهي ليونور ابنة دندولو .

— إذن سأذهب إليها ... وسأقول لها ... ولكن الوقت

أزف وهذا السجن قد أتى للبحث عني .

— متى تعود إلي ؟ إنك تعود قريباً أليس كذلك ؟

— نعم سأعود إليك بعد بضعة أيام فتعرف مني كل ما تريد  
عرفانه . فأراد رولاند أن يقول له بعض كلمات تشف عن  
شكوه ولكنه لم يجد كلمة يقولها فشكوه بعينه وأغنت هذه  
الظفرات عن ألف شكر .

أما هذا الكاهن فإنه حين خرج من الغرفة وصعد في السلم  
أراح ذلك القناع عن رأسه فأنكشف عن وجه يني وهو يبتسم  
ابتسام الأبالسة ويقول : لقد سمعتمهم يقولون إن أشد ما يعذب  
به الأسرى امتزاج الرجاء واليأس في قلوبهم .

نجاة دندولو

\*

لندع الآن جهنم وماكنيتها ولنصعد إلى عالم الأحياء فنرى ما

صنع الدهر بأبطال هذه الرواية الذين يتوق القراء الى معرفة أخبارهم .

مضى ثلاثة أعوام على هذه الثورة التي أخذ جنودها جنود ألتباري وامسحت آثار أجزائها من النفوس ما خلا نفوس الذين قُتل لهم في هذه الثورة أب أو أخ أو حبيب ، فإنهم كانوا يرددون أخبار هذه التكية حساً في الأذان .

وكان قوسكاري قد بلغ مراده فانشب دوجاً بدلاً عن والد رولاند وحكم بإلقاء الرعب في القلوب عللاً بالقاعدة السياسية العقيمة المشهورة ، وهي إذا خيف الحاكم خير من أن يُحبب . وقد اشترك أيضاً بلء المهارة في الأحكام العليا مع ألتباري وسواء بحيث زاد نفوذه وقوته العسكرية .

أما ببو فإنه ارتقى الى درجة كاهن ولبث على علاقته مع الدوج بحيث كان يغزو أكثر الأحيان خلوات سرية مع قوسكاري . وأما أمباريا فإنها بعد أن قبضوا على رولاند وزجوه في سجنه العميق رحلت فينبسيا الى فاورنسا كما كانوا يقولون ، ثم عادت فجأة الى ذلك القصر الذي وهبها إياه دافيليا وعادت الى فئة أهل فينبسيا يحياها القتلان . ولكنها خصصت جانباً من ذلك القصر لإقامة فتاة فيه تبلغ من العمر اثني عشر عاماً . وكانت هذه الفتاة تشبه أمباريا شبة عجيباً كما أن أمباريا كانت تحبها بلء جوارحها . فهل نسبت أمباريا رولاند ؟ وهل ندعت على تلك الجريمة الهائلة التي دفعها اليها ببو وغيرها ؟ وما الذي

حلها على أن تعود الى فينبسيا ؟ ذلك مما سيصله الى القراء دون شك في مقامه .

\*

ولقد مضت تلك الأعوام الثلاثة وغيثت الأيام أحوالها وبدلت شقامها وأفرجها ودفع بعضها بعضاً كما تدفع موجة البحر موجة .

ففي إحدى ليالي شهر أبولون أتت ليونور أشغالها البقية في منزلهم الكائن في جزيرة أوليفيو وجاءت الى أبيها كي تودعه قبل الرقاد ، فأخذت تدنولو بيدها بين يديه وقال لها : اجلسي قليلاً يا ابنتي بيجاني . فامسكت ليونور لأبيها وجلست وهي غير عالمة بما سيقوله لها .

كانت ليونور لا تزال على جمالها الساحر ولم يرها أحد منذ ذلك العهد قد تنهدت أو ذرفت دموعاً أو استرسلت الى التفكير ، غير أن تلك الفتاة التي كانوا يلقونها « عذراء الفقراء » كان يظهر للناس أنها اعتزلت الناس يجعلتهم وعاشت عيشة راهبات الأديرة .

وجعل أبوها يتمتع في وجهها تنعماً خاصاً على غير عادته ويدها بين يديه فقال لها : ما ليذك باردة يا ابنتي ؟ قالت : ذلك لأن الطقس بارد في هذا العام كما يظهر .

فكثرت أبوها وسكنت هي فإنها لم تكن تتكلم إلا حين يوجهون اليها السؤال . ثم قال لها : أتعلمين يا ابنتي بما أفكر الآن ؟

— إني أنتظر يا أبي أن تقول لي .

— إني أفكر أنك بلغت عشرين عاماً يا ليونور وهذا السن سن الزواج حسب عاداتنا .

— إنك حادقني يا أبي مراراً يشارف الزواج بالتياري ، ألسنت تريد الآن أيضاً أن تعود إلى البحث في شأن هذا الزواج ؟ إذن لنبحث فيه إذا كنت تريد ، وأما أمر صباي فدعه الآن فليس لي شباب ولا كهولة ولنبحث في فوائده الخاصة دون فوائدك الخاصة دون فوائدي .

— إنك غططت يا ابنتي ، فلا شغل لي غير هنالك .

— إذا كان ذلك يا أبي فإن المشكلة سهل حلها ، فإن هنائي الوحيد أن أقيم في هذا المنزل الذي ربيت فيه وأن أموت فيه حين تدنو ساعتى الأخيرة .

— إذن أنت لا تريدان الزواج من ألتاري ؟

— ولا بسواه يا أبي !

— أتأبين الزواج على الإطلاق ؟

— نعم !

— وإذا قلت لك إن سعادتي موقوفة على هذا الزواج ؟

— أنا أعلم يا أبي أنك أصبحت فقيراً وضعيفاً وأن ألتاري غني قوي وأنه يحبني وأنه اقترح عليك أن يشتريني بالثمن الذي نعتته منها غلاً ، أليس كذلك يا أبي ؟

— ليونور ، إنك شديدة القسوة !

— لماذا تريد تضعيفتي على مذبح أغراضك ؟ ولماذا لا تريد

أن تعيش كما نحن عائشان ؟ إنك شديد الطامع ، ولكن لا تسق قلبي بيد مطامعك فإنك تسحقه سحق الزواج .

— إنك غططت يا ابنتي ، فإني لا أريد تزويجك لتحقيق مطامعي بل لصيانة حياتي .  
— حياتك ؟

— نعم حياتي ! فاعلمي إذن الحقيقة الهائلة . . . إني متهم منذ ثلاثة أعوام بأبي من الشائرين ، وهم لم يبقوا عليّ إلى الآن إلا بفضل ألتاري وبما بذله من الجهد في سبيل الدفاع عني . فإذا تزوجت به نجوت من كيد فلا يحسر أحد بعد ذلك على أتهامي . وإذا أبنت هذا الزواج فسي عليّ القضاء المبرم .

والآن فإن حروتي وحياتي بيدك ، وأنا لا أستشفع في ذلك قلبك فإني لا أعلم ما جرى لهذا القلب بل لا أعلم ما جرى لك حين أراك مقطوعة الجبين تنظرين إليّ هذه النظرات القاسية وتكلميني بهذا الجفاء . على أبي لا أقول لك شيئاً فوق ما قلت ، فإذا قبضوا عليّ بعد أسبوع وألقوني في إحدى تلك الآبار الهائلة واجهزت بدوري جسر الشهيدات ، تقول الناس : إن هذا الشيخ المنكود لم يقتله غير ابنته .

ثم خرج وهو يضطرب فلبثت ليونور جالسة على كرسيها وهي مصابة بأشد من اضطرابه .

وفي اليوم التالي لقيها أبوها لا يزال جالسة على نفس الكرسي الذي كانت عليه أمس وهي جامدة كالآصنام وقد بلغ منها اليأس أقصى حدوده . فدنا منها ولمس كفها وقال : ليونور !



فتنهبت . وقد انذهلت ذهولاً عظيماً لطلوع النهار فإنها أقامت كل ليلتها على ذلك الكرسي دون أن تكتبه . فلما رأت أباهما واقفاً أمامها وهو يرتجف قالت له :  
— قل لألتباري : إني راضية أن أكون إمرأة .

فصاح دندول صيحة فزع عظيمة وأخذ يد ابتته وحاول أن يضمها إلى صدره ، ولكن ليونور أفلتت منه وذهبت إلى غرفتها فأقفلت بابها من الداخل وحشت إلى سريرها . غير أنها لم تتمكن من الوصول إليه فسقطت على الأرض مغعياً عليها ضريبة اليأس .

## أهوال تحت البحر

\*

انتظر رولاند عودة الكاهن مدة طويلة دون أن يعود فتدلم لأنه أبى أن يسمع غظاته الدينية وحسب أنه حقد عليه قال على نفسه أن يرضيه حين يعود . وقد أقام أسبوعين ينتظر وهو كل ما سمع وقع أقدام أسرع إلى الباب ووقف مصغياً .  
وكان مثال ليونور لا يفارقه خلال هذه المدة فإنها كانت تتمثل له في كل سبيل فينجسها وتناجيه كما كانا يفعلان حين خلوتها تحت تلك الأزقة الكبرى فيتعزى بقرمها الوهمي على ما

هو فيه . على أنه كان كل ما طالبت مدة غياب الكاهن يشتد قلقه ويعود إلى مساكن عليه من اليأس ، إلى أن كبر عليه الأمر يوماً فسأل السجان قائلاً : أعلم أنها الصديق كم مضى على زيارة ذلك الكاهن لي ؟ قال : نحو عام !

ثم أن أنيتا مزعجاً وانطرح على سريرها المجري ! فقال السجان في نفسه ، لقد عاد إلى اليأس ، ورجائي أن لا يعود إلى غضبه القديم فإنه لا يطاق !

وقد لقي هذا التمس المنكود أشد ما يلقاه أهل القنوط وعاد إلى العنف والغضب حتى انقطع السجان عن زيارته وجعل يحادثه من الشباك . وكان يشتد استياءه حين يحضرون الطعام إذ يعلم يقيناً أنهم لا يريدون قتله وهو لا يريد غير الموت . ولم يكن يعيش في خلال هذا العذاب إلا بفراغه فإنسه كان يذكر اسم ليونور ألف مرة في اليوم ولا يرى في تلك الظلمات الهدنة به غير وجهها . وقد ساعده على احتال هذه الشكيات قوة أعضائه فقد كان يلقب برولاند القوي .

وفيا هو يحول يوماً في سجنه كما يحول الأسد في قفصه عثرت رجله بقطعة من الفخار فتذكر أنه مرة في إبان غضبه كسر الإبريق الذي كان يحضره له السجان فأحضر السجان له بدلاً منه وترك بقايا الإبريق القديم . وقد جرحت هذه القطعة رجله إذ كان حافي القدمين فإن الحذاء الذي كان يلبسه يوم حفلة خطبته قد أخنت عليه الأيام كما أخنت على ملاسسه ، ولو لم يعطه السجان ذلك الدثار لما مات من البرد دون شك . وترتب رولاند على سرير

وجعل يمسح بدمائه الدم الذي سال من وجهه .

وفيا هو على ذلك سمع صوت غناء فجعل يصغي إصغاء شديداً ، وارتاحت نفسه إلى ذلك الصوت لا لأنه صوت غناء بل لأنه صوت بشر وقد طال حنينه إلى صوت الناس . وعلم بعد الإصغاء أن هذا الصوت لم يكن واحداً بل كان جملة أصوات رخيصة نسائية فأيقن أنها أصوات نساء يتنزهن في قسارب وهن ينشدن نشيداً غرامياً انكشت له نفسه فإنه سمع هذا النشيد وفهم كلامه فعلم أنه قصيدة له كان قد نظمها قبل سجنه لخطيبته ليونور فانتشرت وذاعت بين الناس على كل شفة ولسان . واشتد به اليأس وجزع جزعاً شديداً فقال :

وأسفاه ! إني حين كنت حراً ونظمت تحت السماء المرصعة بالنجوم هذا الشعر الجميل الذي أوحاه إليّ الغرام أكان يدور في تخلد أحد من الناس أفي سامع هذا الشعر نفسه وأنا سجين على عتق ثلاثين قدماً من بطن الأرض !!

وبعد هذه القصيدة فإنها بعد أن كانت صوت الحياة أصبحت لدي صوت الموت ، فإن كل شيء في الوجود يبعث خارج هذا القبر أما أنا فأموت فيه !

وعند ذلك جعل يسير في تلك البئر ذهاباً وإياباً وهو لا يشعر بحرجه ويقول : لا بد لي من الخروج من هذا الضريع ! وكانت هذه أول مرة خطر له فيها خاطر الفرار . ولكن كيف يمكنه نزع هذا الحجر العظيم الذي ختموا به ضريحه ؟ فإن ذلك كان يبدو له مستحيلاً في بدء الأمر لأنه على

عتق ثلاثين قدماً في جوف الأرض وجدوان البئر الموجود فيها كثيفة وباب سجنه من خشب السنديان المصقح بالحديد ومركز الحراس على مقربة من هذا الباب .

وجلس فوق سريره الحجري وقاه في مهامه التفكير وفيها هو على ذلك شعر بألم رجله قد عاوده فصاع صبعة قرح وأسرع إلى بقايا الإبريق المكسور فجمعها كلها وجاء بها فخبأها تحت سريره كأنها كنز عظيم لأن هذه البقايا المهدودة الأطراف كان يرجو أن تكون آلاؤه للخلاص .

\*

ولم يبدأ لفوره بالعمل بل إنه جعل يفكر بمشروعه العظيم بضعة أيام حتى استقر رأيه على أن النجاة ممكنة له بالصبر الطويل . وذلك أنه كان يعرف أحوال السجون ويعلم أن هذه البئر المظلمة فيها مبنية تحت سطح البحر وأن الأمواج تلتطم في أعلاها فإذا انتزع حجراً من جدران البئر انكشف عن جدار آخر يتصل أعلاه بحجر يتهدد الشرف على البحر ، فلا يبقى عليه إلا أن يفتح هذا الباب ويسلق ذلك الجدار ويثب منه إلى المياه من فوق الجسر فينجو .

إن المشروع كان سهلاً معقولاً ولكن أين له أن ينتزع هذا الحجر الضخم وليس لديه من الآلات غير أظافره وقطع الإبريق ؟ على أنه لم يقتطع . وبدأ في اليوم التالي العمل فأخذ إحدى قطع الإبريق وجعل يزيح بها الطين اللاصق بالحجر .

وأقام على ذلك مدة طويلة وهو كلما أخرج شيئاً من التراب حمله  
وفرشه في سجنه وتحت سريره . وكان يخرج له مع التراب بعض  
قطع من الحجارة الصوانية الصلبة فيستخدمها الحفر بدلاً من  
قطع الإبريق .

ولكنه كان يعمل كالعامل في عمله ، فبان سخافة الحجر لم  
تكن تقل عن خمسة أقدام وهو يصر على إخفاء التراب الذي  
كان يزيله وإخفاء صوت حفره عن الحراس .

وأما إخفاء التراب فقد تقدم لنا أنه كان يخفيه تحت سريره  
ويفرشه على الأرض . وأما إخفاء صوت الحفر فقد عمد فيه إلى  
الحيلة بإبعاد الحراس وذلك أنه كان يوم حارسه أنه عاد إلى  
الجنون فيإذا سمع وقع خطواته جعل يجرر ويصيح مغضباً ناعماً  
حتى إذا دنا منه الحارس صاح به صيحة منكرة وهجم عليه  
هجوم المنتقم فلا يجد الحارس بداً من الفرار بحيث بات يضع له  
طعامه في النافذة ، وهو لا يحضر غير مرة في كل يومين بحيث  
أمن رولاند مراقبته وجعل يشتغل آمناً مطمئناً في مهمته الصعبة  
التي لا يخطر الإقدام عليها لأحد في بال .

ولا تطيل وصف ما لقيه هذا المنكود من العناء حرصاً على  
صبر القاري . ولكننا نقول إنه بعد شغل ستة أعوام وكان  
معظمها عملاً إذ لم يكن ينام غير خمس ساعات في اليوم ، فكان  
من نزع هذا الحجر فتفتتس الصدعاء ومدة رأسه من ذلك الباب  
الذي فتحة وهو يرجو أن يجد منه ما كان يطمع فيه .

ولكنه ، وأأسفاه ، لم يجد ذلك الجدار الذي كان يعمده

طريق الخلاص ، بل وجد فوق ذلك الحجر الذي انتزعه حجراً  
آخر فعلم أنه سجن فوق سجنه وقبر آخر فوق قبره ، فارتد  
قائظاً مضطرباً لرجوعه بالحيلة بعد صبر ستة أعوام .

وأقام يومين وهو مطرق يفكر بما قاساه من العناء وكيف  
أنه كان يقرن أظافره بالحجارة حتى تنكسر وتسيل دماؤه ،  
وكيف أنه مضطرب إلى أن يعود إلى العمل أعواماً طويلة أيضاً ،  
وكيف غلط بحسابه وهو من العارفين بهندسة هذه السجون ،  
إلى غير ذلك من هذه الأفكار ، فيشتد به اليأس حتى يعزم على  
الانتحار . ثم يعاوده الرجاء فيرجع عن عزمه وقد انحطت  
قواه . وقد تتمثل له ليونور فتشتد قواه ويذكر أعداءه فيصيح في  
صدره الانتقام وتعود إلى نفسه العظيمة تلك الهمة الشاه .

ومما زال على ذلك إلى أن خطر له أن يفتح ذلك السجن  
الجديد ويدخل إلى قبر آخر وليفعل الله ما يشاء ، فقد يكون  
ذلك القبر الجديد باباً للحرية وسبيلاً إلى الحياة .

وعند ذلك عاد إلى ذلك المنفرج الذي انكشف له حين أزال  
الحجر وتسلق أعلاه ، أي إلى ذلك السجن الجديد الذي ظهر له  
وأخذ يعالج أكبر حجر فيه إلى أن تمكن بعد شهرين من إزالة  
الحجر .

فتنقل بيده صوانة شبة الحنجر ومدة رأسه من ذلك المنفرج  
فظهر له رجل كان ينظر إليه نظرات تشف عن الرعب ، فرفع  
رولاند الحجر بكنفته وقصد عزم على الدخول إلى هذا السجن  
الجديد فلما يقتل أو يقتل .



## لقاء في أعماق الأرض

\*

عندما رفع رولاند الحجر بكنفته دفعه إلى داخل السجن عند قدمي ذلك السجين ، أما السجين فإنه لبث واقفاً في مكانه وقد أخذ منه الرعب فقال له رولاند بصوت أجش : من أنت ؟ فلم يجبه الرجل لفوره وكانت هيئته تدل على التوحش ، فتعمن برولاند قليلاً ثم تشهد تشهداً عبقاً وقال :

— سجين ؟

فبدت ملامح البشر على رولاند وجعل يفرس بهذا الرجل الذي لم يكن قاضياً ولا جلاداً ولا سجاناً بل كان سجيناً مثله وقد يكون أيضاً ضحية مثله فقال له : كم بقي لك في هذا السجن ؟ قال : لا أعلم .

فجن رولاند عليه وبسط له يده ولكن الرجل ابتعد منذراً فقال له رولاند : إني سجين مثلك ، ولقد لقيت من الشقاء نفس ما لقيته ، فكيف لا تصافح تلك اليد التي أمدتها إليك وتقبل ذلك الإخاء الذي أعرضه عليك ؟ قال : أتعلم من أنا أنها الرجل الذي يطلب لإخائي ؟ إني كنت من كبار المجرمين

الذين ترتعد لذكورهم الإنسانية ، فقد سرفت وقتلت وارتكبت جميع الآثام ، وعندمسا كنت من سكان الأرض كانت النساء تخيف أبنائهما باسمي فيرتعدون كما يرتعدون لاسم إبليس ، يسأل كان حراس السجن أنفسهم يخافوني ويحسبونني وحشاً مفترساً فلا يدخلون إلى سجنى إلا وهم مسلحون بخناجرهم . وعلى الجلة فقد كنت لصاً مفاكاً مفاسحاً يهرب مني الناس أين كنت .

أما أنت فقد يكون لك من يبكيك خلافاً لي فلا أب لي ولا أم ولا أخ ولا عائلة ، فإذا نكيت وشيت وجمعت وبردت فلا أحد يحزن لحالي ويعلم أمري . وهذه يدي الملطخة بدم جرائمي فصافحها إذا كنت تجسر .

وعند ذلك بسط له يداً وتحنف فصافحه رولاند وقد سالت دمة من عينيه فقال له الرجل : إذن لم تحف مني ؟

— كلا ، بل أشفقت عليك !

— ولا ترفض موالاتي ؟

— إنك ترى .

— ومع ذلك فقد قلت لك إني من زعماء اللصوص .

— إنك سجين مثلي وسأحاول أن أعزيك ، فإن وجودك وحده يعزيني .

— اسكت ... اسكت فإن صوتك يؤثرني أبلغ تأثير .

— مسكين ! ألم لك شغيت أكثر من شغائي ؟

— كلا ، بل لأنك تكلمني برفق وحنان !

ثم وضع رأسه بين يديه واستمر إلى البكاء فجعل رولاند

ينظر اليه ويقول في نفسه : كلا ! إنه لم يلقَ مثل شقائني إذ لا يزال في عينيه دموع ! ثم قال له :

— صبراً أيها الضديق ولا تجزع فقد تكنت وحدي من ثقب الأرض والوصول إليك ، فإذا كنا اثنين يشتغلان فقد نهدي الى طريق الخلاص .

— ماذا تقول ؟

— أقول إننا إذا عملنا يداً واحدة فقد يتيسر لنا الخروج من هذا السجن .

— كيف ذلك ؟

فأخذه رولاند بيده وأراه ذلك المنقرج الذي حفره فاندبش الرجل وقال له : كيف توصلت الى ذلك ؟ قال : إني بدأت الحفر بقطعة يوريق محطم ثم بما كنت أجده بين التراب والأخشاب من الحجارة والمسامير ، فأنت ترى أن الأمر بسيط . فنظر اليه الرجل نظرة إعجاب ، ومضى رولاند في حديثه فقال : ولكنني أخطأت في الحساب ، ولا بد لي من معاودة الحفر . فهزّ الرجل رأسه وقال له : إلى أين ترجو أن تصل بعد الحفر ؟

— إلى القرة .

— ذلك محال .

فسال العرق البارد من جبين رولاند وقال : كيف تقول محال ؟ ألملك عارق يهدمة السجن ؟

— أصغر إليّ أيها الرفيق فإنني لست هنا إلا منذ بضعة أيام . — أين كنت قبل ذلك ؟

— كنت في سجن غير هذا يشرف على القرة من نافذة حديدية فرأيت جميع الضواحي وسمري النوج وجسر التهدات والقرعة . وأنا أيضاً أخطر لي أن أحتال على حديد النافذة وألقي بنفسي الى القرة من ذلك العلوّ ، ولكنني رجعت بعد الإمعان عن هذا العزم .

— لماذا ؟ ... لماذا ؟

— لأن الحراس يحرسون القرة دائماً فلا يكاد السجين يصل اليها حق يصلوه بنار يتادقهم .

— ولكن في الليل .

— وكذلك في الليل ، فإن الحراسة فيه تكون أشدّ . وقد راقبت ذلك حين دخولي الى السجن وعلت أنهم يبالغون هذه المبالغة بالحراسة لحرسهم على رجل خطير مسجون ولخوفهم من فراره . فثيق أيها الرفيق أن من يدخل الى هذا السجن لا يخرج منه حياً .

فأيقن رولاند أنه هو ذلك السجين الخطير الذي يحرس عليه مجلس العشرة هذا الحرس . ومضى الرجل في حديثه فقال : ومع ذلك فلو سلمنا جدلاً أن الفرار ممكن فذلك لك لا لي .

— لماذا ؟

— لأنهم سيحكون عليّ بالإعدام ، وأنت تعجب كيف أقول لك هذا القول بل السكينة ، وذلك لأنّي أوّفر الموت ألف مرة على هذه الحياة الشقية . أما الآن فإن المجلس ملتئم والقضاء يتداولون بأمرى وسبائي السجن ويقول لي إن الجلاء ينتظرني .

.. نعم ! فإني منذ خمسة عشر يوماً هاج غضبي على حارس سجنني فضربه ضربة شديدة لم تقتله ولكنهم اعتبروا أنني حاولت قتله فقتلوني إلى هذا السجن وقالوا لي إنه ممتد للمحكوم عليهم بالإعدام .

.. صبراً أيها الصديق وتشجع فقد يبقون عليك .

.. كلا ! فإنهم يقتلونني هذه المرة .

.. كيف تقول هذه المرة ؟

.. نعم ، فإنهم عقوا عني يوم قبضوا عليّ في حين أنهم كانوا قد عتسوا جائزة لمن يقتلني .

.. إذن كيف صفحوا عنك ؟

.. لأنني خدمت مجلس العشرة كما يظهر خدمة جليلة ، وبما يحبي من هذه الخدمة ! فإني حين أفكر بها أعتبر أنها أعظم جريرة ارتكبتها في حياتي !

.. ما هي هذه الخدمة ؟

.. أية فائدة من ذلك ؟ فقد قضى الأمر وسأقتل دون شك .

.. لا بأس ، فأرجو أن تخبرني لماذا تعددت خدمتك لمجلس العشرة أعظم ذنب ارتكبته .

.. لأنه بسبب هذه الخدمة أصيبت عائلة بأسرها بضربة قاضية وهي بريئة بما اتهمت به . براة الذنب من دم ابن يعقوب . ولكن دعني بالله أموت دون أن أحيي هذه التذكارات التي تفوق لها نفسي فقد أموت بسلام إذا تمكنت من نسيانها .

.. ولكن أؤمل اليك أن تخبرني بكل ذلك .

.. إذن ليكن ما تريد ، فقد أسفقت عليّ منذ ساعة فملت اليك وسمعت صوتك الخنون فبكيت ، وفوق ذلك فإن إسماعيلي إلى هذه العائلة لا يكفيها عقاب الموت وسأجعل تذكراها في ساعتني الأخيرة عقاباً أشد . فاعلم إذن أنه كان يوجد في فينيسيا عائلة سعيدة يحسدها الناس لحاشائهم ووجاهتها وكان أبو هذه العائلة اللودج ...

فارتعش رولاند وأصغى أتم الإصغاء ، فقال السجن :

.. وكان للودج والودجة ولد شاب فتن الناس بأدبه وشعره وطرقة وقوته ودعة أخلاقه ، وقد أحب هذا الفتى فتاة فبيلة مثله وأحبته هي حب عبادة ... ولكن ما لي أراك تتضطرب أيها الصديق وأنا لم أبدأ حكايتي بعد ؟

.. امض في حديثك .

فوضع السجن إصبعه على فيه وقال له : اسكت . ثم أصغى هنيهة وقال : أسرع بالاجتهاد فقد أتى حارس السجن .. ووثب رولاند إلى الحجر الذي نزع ورفع من موضعه ، ونزل وهو يقول : سأعود اليك .

وعند ذلك فتح الباب ، وكان السجن قد بسط رداءه فوق الحجر كي لا يظهر منه أثر ، فدخل حارس السجن يصحبه اثنا عشر جندياً يتقدمهم قاض باللباس الجمراء ، فدنا القاضي من السجن وقال له : قف واسمع تلاوة حكم مجلس العشرة .

فوقف السجن وتلا عليه القاضي صورة الحكم بسرعة عظيمة



ولكنه فهم أنهم حكموا عليه بقطع الرأس فقال :

— حسناً ، فعلى تريدون تنفيذ الحكم ؟

— كيف ذلك ؟ ألم تفهم ما تلوناه عليك ؟ إن الحكمة أذنت لك بالحياة إلى الغد كي تلتصم عفو الله ، فهل تريد أن تخضر لك كاهناً ؟

— ماذا أصنع بكاهنكم ؟

— إنا نرسله اليك فأصنع إلى صلواته والتمس منه عفو الله عنك .

— لا . أقسم بالله بل أقسم بالأبالسة أنه إذا وصل إليّ هذا الكاهن خنقته وقتلته شر قتل .

وإنما رفض الكاهن لأنه تذكر مسا قاله له رولاند أنه سيعود إليه .

فقال له القاضي : ذلك إليك ، فمت أيها الشقي إذن موت الكلاب ، وأنت أيها الجلاد إبدأ بأجباتك .

فدنا منه الجلاد عند ذلك وألبسه في رأسه كيساً أسود يصل إلى ركبتيه وهو كيس شفاف دون أن يغفل يديه فأنهم لا يفعلون ذلك إلا ساعة الإعدام . فارتعد السجين حين أمس هذا الكيس ووقف بعد خروج الجميع من عنده مضطرباً قلقاً ، فانه على شدة توقه إلى الموت جزع منه حين شعر باقترابه ، فتنهد تنهداً طويلاً وقال : أقضي عليّ بالموت ؟

وذلك أنه لم يكن يخشى الموت حين كان باقياً له رجاء بالحياة فلما انقطع الرجاء ذهبت الجرأة واشتد الجزع وباتت تلك الحياة

التي كان يجدها شقية في السجن حياة غبطة وهناء في عينيه . وجلس على سريره ووضع رأسه بين يديه . وناه في عالم الخيال وظلمات اليأس . وفيما هو كذلك شعر أن يداً قد وضعت على كتفيه فاهتز اهتزازاً عنيفاً والتفت فرأى رولاند فقال له : أهذا أنت ؟

فوقف رولاند ينظر إليه نظرات تتقد فارتمش هذه النظرات وتزع الكيس الذي ألبسه بإياه الجلاد . قطرحه في زاوية السجن وقال لـ رولاند : إنك ترى يا سيدي بأي ساعوت .

— متى ؟

— غداً صباحاً .

وكان شديد الاضطراب كثير الملح غير أن السكينة جعلت تعود إليه تبعاً .

فقال له رولاند : إذن سموت ؟ قال : نعم ، فلماذا تنظر إليّ هذه النظرات ؟ قم يجبه رولاند على سؤاله وقال له : إنك كنت بدأت بأن تقصّ عليّ حكاية ... — حكاية ؟

— نعم ، حكاية تلك العائلة التي كانت سعيدة والتي تمكبت وتفترقت بسببك .

— نعم ، نعم .

— إن الأب سموا عينيه ، أليس كذلك ؟ والأم ماتت من الحزن والولد زج في أعماق السجن وخطيئته ... قل ... ماذا جرى لخطيئته ؟

فدع الرجل وقال له : أرى أنك عازف بأسرار هذه الحكاية فمن أنت ؟ نعم ، من أنت ؟

— بل قل أنت من تكون ؟

— أنا سكالابرينو اللص الشهير .

فجعل رولاند يبحث في ذاكرته وهو يردد اسم سكالابرينو ثم قال : ماذا تفيد الأسماء الآن ؟ فقل لي بإذا أساء إليك الدوج كاندبانو فأعنت عليه مجلس العشرة حتى ضربه هذه الضربة ؟ وبم أساءت إليك امبرأتد سيلفيا وخطيبة ولده ليونور ؟ قل أيها الشقي ! وإبدا أسأت إليك أنا ؟ ثم قبض على يده وضغط عليها حتى أوشك أن يسحقها .

أما سكالابرينو فإنه كان ينظر إلى رولاند وهو يكفه بأنذهال ، ثم تحول الإنذهال إلى رعب ثم إلى يأس حتى إذا قال بجلته الأخيرة شق شقة وسالت الدموع من عيفيه وجسا على ركبته وقرع الأرض بجبهته وهو يبكي وينتعب ويقول :

— لقد عرفتك الآن ! فانت مولاي رولاند ! أواه ما أشد شقائي فإني لم أرك إلا في ساعتى الأخيرة . فتأفر رولاند لبيكاته وتحول غضبه إلى شفقة فقال له برفق : إنفض . قال : إني أرى يا مولاي من نبرات صوتك أنك تعفو عني أيضا ، فلماذا خلق لك هذا القلب الكريم ؟ ولماذا لم تقتلني عند جزيرة أوليفو حين غلبتني وأشهرت عليّ خنجرك ؟

فمرق رولاند عند ذلك سكالابرينو وذكر تلك الحادثة القديمة التي جرت له معه قبل حفلة خطبته بيوم ، فقال له :

أخبرني بكل شيء . ولا تقل غير الحقيقة . قال : إن المرة لا يكذب يا مولاي في ساعة موته ، وفوق ذلك فإني أقسم لك أنني ندمت وأن ندامتي كانت صادقة .

— أندمت حقيقة ؟

— نعم لقد ندمت بعد قوات الأوان ، وقد بدأ تأريخ توبني حين قلت لي « إنك لم تخف ولذلك أعفو عنك » ، فلم أكن أود إلا أن أسفك دمي في سبيل خدمتك . ألا تذكر يا سيدي أنني حاولت أن أكلمك ساعة عفوت عني وأبسط لك الحقيقة ، فأبيت جماعي ؟

فوضع رولاند يده على جبهته وقال : نعم ، لقد ذكرت ، فإذا كنت تريد أن تقول لي ؟

— كنت أريد أن أقول لك إن المرأة التي أنقذتها ...

— المحظية ؟

— نعم ، إنها هي التي استأجرتنا كي نكن لك ونقبض عليك دون أن نسيء إليك .

— أتم حديثك ...

— إن هذه المرأة أرادت دون شك أن تعلم كيف تنفذ أمرها فوقفت في موقفها . ورأى رجالي ما كان عليها من الحلى الثمينة فطمعوا بها وجمعوا عليها فاستغاثت وأنت تعرف البقية . ولكن الذي لا تعرفه يا مولاي هو ما حدث بعد ذهابك ، أي في اليوم التالي وهو يوم خطبتك ، ألا تذكر ذلك اليوم ؟

فوضع رولاند يده على صدره كأنه يخشى أن تنتزع هذه

الذكرى قلبه وقال : نعم أذكر . قال : إنه في تلك الليلة بعد أن ذهب مع الحظية للفتي رجل فقال لي : « إنك تدعى سكاللا برينو وإنك تحكم عليك بالإعدام وقد وضعت الحكومة جائزة لمن يقتلك » قبل تريد أن تتألف عفواً فأما وأن تكسب فوق ذلك مالا كثيراً ؟ قلت : ماذا تريد أن أصنع مقابل ذلك ؟ قال : لا شيء سوى أن تذهب غداً إلى ساحة سانت مارك مع من تستطيع حشدهم من رجالك فتصيحوا بأعلى أصواتكم « ليحيي رولاند كانديانو » . فقلت : إذا كنت لا تريد مني إلا أن أعتف لهذا الرجل فلأني أعتف له كل حين ولولم أكتسب شيئاً . قال : إذن لقد اتفقنا .

فقال له رولاند : من هو هذا الرجل ؟

— إنني لم أعرفه يا مولاي .

— وماذا جرى بعد ذلك ؟

— إنه فقدني مـاً وعذني به من المال ثم قال لي : يحسن بكم غداً أن تحضروا مسلحين بالبنادق ، فإذا أقبل الجنود لصباحكم وحاولوا منعكم عن الذهاب فاستقبلوهم بإطلاق البنادق . قلت : إذن تريد أن تثير معركة ، وسأثيرها فلأني أحب المعارك .

وعند ذلك هز سكاللا برينو رأسه وبدت عليه علامات الحزن الشديد فقال : إن هذا الذنب ذنبي الوحيد يا سيدي ، فإن المعركة ثارت بين الشعب والجنود بفضل صياحي فتغلب الجند على الشعب . وفي اليوم التالي اتصل بنا نداء القبض عليك ... ولكن ليس هذا كل شيء .

فسح رولاند العرق عن جبينه وقال : أتمتع بحدثك . قال : إنه في نفس تلك الليلة التي نشبت فيها المعركة جاءني الرجل نفسه الذي أغراني بالجناب لسك فدلّني على امرأة . وقال لي : « اختطف هذه المرأة واقتلها » .

فاختطف المرأة يا مولاي ولكنني لم أقتلها لسبب لا أعلمه وما كان أشدّ سروري حين عرفت من هي .

— من هي ؟

— إنها كانت أمك يا مولاي .

— أمي ؟

— نعم أمك ! فإنها كانت قد جاءت إلى ساحة سانت مارك كي تحض الشعب على إنقاذك ...

فمشق رولاند شقّة كادت تؤدي بحياته وقال : وارتحاه لك يا أمّاه كم شقبت من أجلي !

قال سكاللا برينو : إنها شقبت يا سيدي إلى حد أسألت فيه دموعي ، أنا الذي لم أبك في حياتي والذي كان يلقبني اللصوص بالرجل الصخري .

وقد حاول سكاللا برينو أن يتم حديثه ولكن رولاند وضع يده على فمه وقال له : أسكت واصبر . ذلك أنه شعر بأن قلبه يتقطر . ولم تسلم الدموع من عينيه فإنها ذهبت منذ عهد بعيد . ولكنه شعر أنه يبكي في داخل نفسه وأن الدموع تسقط كسقوط الرصاص الذائب على قلبه .

وأقام نحو نصف ساعة يتألم لهذا الحزن الجديد ثم شعر بأن



هكذا الحزن أخذ يزول تبعاً وبحل محله الحق وحسب الانتقام  
فالتفت إلى سكالا برينو بعد إطرافه وقال له : لقد قلت لي إن  
أمي كانت تحاول إنقاذني .

- نعم ، ولكن الجنود تغلبوا على الشعب كما قلت لك وقد  
انتهت أمك عندي في منزلي فلما عرفت حقيقة أمري سألتني إذا  
كنت أريد مساعدتها في إنقاذك ، فقلت إنني أمك آخر نقطة  
من دمي في هذا السيل .

فقد رولاند يده إليه فصافحه وقال له : إنك رجل .  
فصافحه سكالا برينو وقال له وهو يبكي : إنك بكرمك يا  
سيدي ستجعلني آسف على الحياة .

ثم أطرق برأسه إلى الأرض وقال : وبعد أن اتفقت مع  
أمك برحت المنزل لأنفذ أول أمر أصدرته إلي . قلما بلغت  
متعلقا ضيقا هاجمني فجأة نحو عشرين جنديا فقلبوني إلى  
الأرض وأحسكوا وثاقي وجعلوني إلى السجن . وهنا قالوا لي إنهم  
عقوا عن قتلي بسبب الخدمة التي خدمتهم بها ليلة حفلة خطبتك ،  
وبعد ذلك لم يقولوا لي شيئا . والآن يا سيدي ... إنهم سيقطعون  
رأسي بعد بضع ساعات . ولكنني أموت فرير العين ناعم البال  
لأن أمك صفعت عني ولأنك صفعت عني وقلت إنني رجل !  
وسكنت الاثنان بعد ذلك وكان كلاهما يفتكران بأمر واحد

كشجرتين اقتلعتهما رياح العاصفة فوقعتا جنباً إلى جنب إلى  
حيث جرفتها السيول . وهذا التيار الجارف ينتهي بها إلى  
أوقيانوس اللانهاية ، أي إلى العدم ، أي إلى الموت ! نعم ، فإن

الموت كان في تلك الساعة بغية الاثنین ، فإن سكالا برينو لم يعد  
يرهب الموت بعد ذلك الصبح ، وكذلك رولاند فإنه بات يشتهي  
الموت بعد ما علفه من سكالا برينو وقد عول على الانتحار بعد  
ما انتصح له أن كل ما عمله في سبيل الفرار ذهب سدى وأن  
هذا الفرار بات مستحيلا وأنه قدّر عليه أن يفارق ليونور وأباه  
وأمه إلى الأبد !

ونظر بعين الخيال نظرة سريعة إلى تلك الأعوام التي  
سيمكثها في ظلمات سجنه كما ينظر من يسقط من قمة جبل عالٍ  
إلى الهابة التي سيهبط فيها .

ورأى نفسه أنه في مقتل الشباب وأنه لا يزال قويا بحيث  
أنه يستطيع أن يعيش أيضا ثلاثين عاما بالرغم مما يلقاه في هذه  
الأعوام التي سيموت فيها ألف مرة لا سيما أن ليونور ستناديه  
فيها بصوت خافت نداء الغائطات ولا يستطيع أن يلبي نداها  
رأى كل ذلك ورأى أنه لا ينفذه من عذاب الجسد والنفس  
غير الموت ، فابتسم لهذا الموت وارتاح إلى استقباله وعادت إليه  
السكينة .

ولما صحت عزيمته على الموت جعل يفتكر بطريقة الوصول  
إليه فخطر له ثلاث طرق إحداها أن يتنصع عن الطعام فيموت  
جوعا ، والثانية أن يضرب رأسه ضربة شديدة بجحر سجنه  
فينفلق ، والثالثة أن يطعن قلبه بذلك الحجر الضوافي الذي  
عالمه حتى صار كالحجر قيموت ويستريح .

ولكن فشل له أن هذه الضربات قد لا تكون قاضية فكلم

يكون عذابه بها إذا لم تجهز عليه ، وأن الانتحار بالجوع قد يتغلب فيه عذاب ذلك الجوع على الإرادة فيهجم على الجبن الذي كان يمنع عنه . فكانت هذه الأفكار تجول في غيخته فبرى أن الموت غير سهل ويقول : رياه ماذا أصنع ؟ وفيما هو على ذلك سمع سكالا برينو يشتم قائلاً :

— هي هنية قضي نسياتي الجلاد !

فاهتز رولاند حين سمع قوله وخطر له خاطر غريب فجأني .. فالتفت إلى سكالا برينو وقال له وهو يتسم : إطمئن يا سكالا برينو فانك لا تموت !

#### ورعود وعواصف

\*

أما سكالا برينو فانه نظر إليه نظرة انذهال لا توصف فقد ظهر له رولاند في تلك الساعة شبه ذلك الملاك الذي كانوا يحدوثونه عنه في أيام حداشته ، فقال : ألا أموت ؟ قال : كلا ! قال سكالا برينو : ولكن إحذر يا مولاي فسان اليأس بعد الرجاء هائل في مثل هذا الموقف لا تجعله النفوس . قال : إنهض واتبعني .

فامتثل وتبعه وسار به إلى ذلك المنفذ الذي يؤدي إلى سجنه فآزاح الحجر وقال له : إنزل إلى سجنني فأمن فيه الموت . فترجع سكالا برينو مندعراً دون أن يجيب . فقال له رولاند : — انه قد يمر بك في السجن أعوام كثيرة دون أن تعرفوا أمرك وإذا عرفوك فانه يمرضون دون شك عن قتلك إذ أنهم يكونون قد قتلوني بذلك . قال : وبج نفسي ! أأشتري الحياة بهذا الثمن ؟ اني أؤثر الموت ألف مرة في كل يوم على أن أرى هذه المتضجرة الهائلة .

— وأنا قلت لك اني أريد وقد قلت مرة لأمتي انك تبذل كل عزيز في خدمتها ، فهل تأبى أن تعاملي بما عاملت به أمتي ؟ — مولاي ، اني ما خدمت أمك الا من أجلك على أنني لا أود الموت الا لإنقاذك ! فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له :

— اصغ اني ، فانك لا تعذب في سجنك غير عذاب جسماني فتتألم من البرد وتوجع من الجوع وتشكو من الوحدة والسكرات والضجر من الظلمات . أما أنا فان أنواع هذا العذاب تعدت نسيماً بالقياس إلى عذابي ! فان نفسي تلقى من ألم الاضطراب فوق ما يلقي جسمك من البرد ، وإن توجع نفسي يزيد على توجعك من الجوع ، وإن تلك الوحدة وذلك السكون في ضميري أشد علي من سكون القبر ، وإن هذه الظلمات المهدقة بسجنك تعدت نوراً بالقياس إلى تلك الظلمات المحيطة بغواصي .

— مولاي ...

— ولكن ألا ترى .. ألا تعلم أن الموت خير منقذ لي إذا كنت

تريد اتقاضي كما تقول ؟ وأنت اذا أبيت أن تخدمني هذه الخدمة  
لقيتُ عناء آخر بالبحث عن وسيلة للاتجار ،

فانضطرب سكالا برينو وضاح صبيحة حزن مؤثرة إذ أبقن  
من صعة عزية رولاند وعلم أنه لا يستطيع خدمته إلا بمساعدته  
على الموت فقال : ربا ! إن هذا هائل لا يطاق .

— أمّا وعدتُ أمي بالطاعة والامثال لأجلي ؟

— نعم ، نعم .

— إذن إمتثل لي وأطعني .

— مولاي عفوك !

قال : قلت لك إمتثل . ثم دفعه بعنف الى المنفذ ، فزول  
سكالا برينو بالرغم عنه وبسط يديه شأن المتوسل . ولكن  
رولاند وضع الحجر فوق المنفذ فتوارى سكالا برينو في تلك  
الظلمات وهو يصيح بصوت مختنق : أستودعك الله . الى اللقاء !  
فلم يحبه رولاند ، وصبر نهاية الى أن وثق من أن سكالا  
برينو لا يحاول الصعود فأمرع الى ذلك الكيس الأسود فالتقطه  
عن الأرض ولبسه في رأسه وأقام ينتظر .

\*

في تلك الساعة سمع رولاند دويًا عظيمًا وصل الى مسعمة من  
عمل بعيد . وفي تلك الساعة بينما كان ينتظر الموت ويقاسي عذاب  
النزع غثث له خيال أبيه وأمه ورسم ملا قلبه وضميره فجأ كل  
تلك الرسوم وهو رسم ليونور ، فلم يكن يلفظ غير اسمها وكانت

هذه اللقطة تخرج من فم شبه قبلة تسكره حبًا وتلبيه موقفه  
الخطير .

وعند ذلك اشتد ذلك الدوي الذي كان يسمعه وتلاه صوت  
أعظم اهتزت له أركان السجن . فلم رولاند هذه المرة أن هذا  
الدوي دوي الردد وأن ذلك الصوت القاصف كان صوت  
الصاعقة وأن الصواعق تنور خارج سجنه الرهيب وهي صواعق  
هائلة يتفق جذوبها أحيانًا في قينسبا فتكون أشد العواصف  
هولًا بحيث تعظم القوارب وتهدم المنازل وتظلم السماء في رابعة  
النهار فلا تستنير الأرض إلا ببرقها الخاطف ، وتجول الصاعقة في  
ذلك الأفق إلى أن تسقط في مقرها النهائي !

وطال زمن هذه الأنواء ، غير أن رولاند لم يعد يسمع هزيم  
العود فقد انتقل بالخيال الى حديقة جزيرة أوليفو وجلس عند  
تلك الأرزة الكبرى تحت تلك السماء المرصعة بالنجوم ونسي نزع  
الآخر فلم يحط له غير قبلة ليونور الاولى .

غير أن دوي العود كان يصل إلى أذنيه بالرغم عنه فيقطع  
عليه هذه التصورات العذبة . ثم سمع أصواتًا قريبة منه وهي  
وقع أقدام كثيرة ، فلم تكن غير هتفه سق فتحت الباب ودخل  
السجان والجنود والجلاد فدا منه أحدهم وقال له : هل أنت  
مستعد ؟ قال : نعم ، فأحاط به الحراس وجعل كاهن يتمم  
قربه بصلواته ومشى الجلاد أمامه .

وعند ذلك دوت العاصفة دويًا اهتزت له جذران السجن  
كأنها الصاعقة قد انتقضت عليه .



ورأى رولاند من خلال الكيس الأسود الشفاف أولئك الجنود من حوله وقد رسموا علامة الصليب على وجوههم كأنهم يريدون بها انتقاء العاصفة والنبعث رائحة كبريتية في أروقة السجن فامتزجت بما هناك من روائح العقوبة .

وكان رولاند قد اجتاز عتبة ذلك السجن فاجتاز به الحراس بضع خطوات فوصلوا إلى سلم وجعلوا يضعون عليه يينا كانت السماء لا تزال تنذر الأرض برعودها وسواعتها .

وعند ذلك تلمس رولاند تنفساً طويلاً وقد أسكره هذا الهواء الجديد الذي كان ينشقه لاعتقاده أنه هواء الموت .

\*

في تلك الساعة نفسها رفع الجسر الموصول بين سجن رولاند وسجن سكالا برينو وظهر منه رأس سكالا برينو وقد جمحلت عيناه ووقف شعر رأسه وحده في ذلك الباب الذي خرج منه رولاند فبرقت عيناه ببارق الرجاء ، وذلك لأنه وجد ذلك الباب مفتوحاً فإن الحراس لم يفلحوا حين خروجهم منه إذ لم يبق فيه سجين يريدون الحرس عليه !

### جسر التهديدات

\*

كانت الساعة في ذلك الحين قد بلغت الساعة من الصباح أي

أن الأرض كانت قد استارت بالشمس منذ ساعة ، غير أن السماء كانت مظلمة فلم تكن الأرض تستنير إلا بنور ضعيف كنور الشفق . ولكن السماء كانت تفتح من حين إلى حين وتخرج من جوفها تلك البروق الخاطفة فتضيء بها فينيسيا .

وكانت المعادة في فينيسيا أنهم يعدمون المجرمين في السجن فيقطعون رؤوسهم فوق جسر التهديدات وتصل دماؤهم إلى القلعة إلا حين كانوا يريدون إرهاب الأهالي فيعذبونهم علناً وينصبون المقصلة في ساحة سانت مارك ، ولا بد للمحكوم عليه أن يجتاز جسر التهديدات للبلوغ إلى ساحة الإعدام .

وقد تقدم لنا وصف هذا الجسر فإنه شبه نائوس كان يصل بين السجن وبين سراي الحاكم وبه قبة بُنيت بنساء غير متين بحيث لم يكن هذا الجسر غير رواق من أروقة السجن .

وقد وضعوا في الجهة المظلمة منه على البحر نافذة لها قضبان رفيعة من الحديد وكانوا يأذنون للمحكوم عليه أن يقف هتية فيها قبل إعدامه ويردع قلبه الوداع الأخير .

ففي يوم أمس كانوا قد أعلنوا في شوارع فينيسيا وكنائسها أن اللص الشقي سكالا برينو سيقطعون رأسه في ساحة سانت مارك . ولكن تلك الساحة بقيت خالية في ذلك اليوم وكذلك الشوارع فقد كانت مقفرة ، وذلك أن عناصر الطبيعة حين تنور المعارك بينها يغفل الإنسان أنه تجري أمور لا يجب أن يراها ، وأن اقتتال الغيوم في السماء قد يعود وبالأعلى عليه إذا هو تجاسر وحضر تلك المعارك .

والحقيقة أن الناس كانوا مشغولين بما أصابهم من غضب الصواعق عن مشاهدة ذلك الحكموم عليه بالوت ، فإنها كانت قد أحرقت كثيراً من البيوت . وكانت بعضهم يأنفون أن يروا تنفيذ الإعدام بالهرمين لاعتقادهم أن أولئك الهرمين أبرياء لا محالة ، لما كانوا يعملونه من سبّور مجلس العشرة ، ثم لاعتقادهم أن الإنسان لا يحق له أن يقتل الإنسان ، فإننا نأخذ القاتل لقلته وتعدا جريمته من أقطع الجرائم ، فكيف يجدر بنا أن نعاقبه وأن نركب نفس جريمته ؟ وإذا قتلناه لقلته سواء ، ألا نكون ارتكبنا جريمة القتل ؟

ولذلك كان فريق من أولئك الناس ينكبون على الحكومة المعاقبة بالقتل ولو كان من باب الإرهاب فإن الإرهاب طرقاً كثيرة غير سفك الدماء كالتشهير وتضييق السجون والأعمال الشاقة إلى غير ذلك مما يخافه أهل الشر أكثر مما يخافون القتل . وعلى الجملة فإن بقاء أهل فينيسيا لم يكن لتلغف في ذلك اليوم بل كان لغضب الطبيعة والحرقهم من صواعقها .

ففي تلك الساعة كان رولاند يصعد على السلم وقد تقدّمه الجلاّد وهو يحمل قاسه على كتفه وسار كاهن على يساره وجعل يصلي ، ومشى الحراس من خلفه وهم ممدّجون بالسلاح . فكان كلما صعد درجة تلتشق هواء جديداً لم يستنشق منذ ستة أعوام فيشتدّ وتلمّش قواه . وقد سكن اضطراب أفكاره حين أبغى من دنو الساعة الأخيرة وخلاصه من العذاب . فلما انتهوا من ذلك السلم التفت إليه الكاهن وقال :

- إنك ستسمع القدّاس يا بني وتتناول القربان !  
فارتعد رولاند إذ لا بدّ له أن يكشف الغطاء عن رأسه حين مناولة القربان فيفتضح أمره إذ يعرفونه ، فضم قبضتيه وعوّل على أن يموت في تلك الساعة فلا يعودون به إلى سجنه القديم . وكان رجل يسير مع الكاهن فقال له : إن حفلة القدّاس تمنّا عن حفلة الإعدام لفترات الوقت ولاضطراب الجو ، ألا ترى أن هذه العواصف كل حين في ازدياد ؟

وفي تلك اللحظة أبرقت السماء ودوت دوتاً هائلاً كان خير جواب مؤيد لقول الرجل ، فاصفر وجه الكاهن وقال :  
- إذن أصرعوا فإني أستبدل القدّاس بالصلاة البسيطة والقربان بالبركة . فوافق الرجل واطمأنّ بال رولاند ليقيته من أنه سيموت .

وعند ذلك سار الموكب إلى جسر التمهّدات وأوقفوا رولاند عند تلك النافذة المطلّة على البحر لكي يودع فينيسيا الوداع الأخير حسب العادة التي كانوا مصطلحين عليها . وفي تلك الساعة أبرقت السماء برقاً متصلاً استنارت به ظلمات المكان بنور متألق وصاح أحد الحاضرين قائلاً : لقد أخطأتم ، فليس هذا الرجل بسكالا برينو !

فوقف الحراس متذعرين ودنا الجلاّد من رولاند كي يتزع عن رأسه الغطاء الأسود فهاج بأس رولاند ومزّق ذلك الكيس قبل أن تصل إليه يد الجلاّد وقال بلمحة وحشية مخاطباً الجلاّد : إنك تريد قطع رأس فاقطع رأسي .

فأرعبت هذه الحادثة ودوي الرعد جميع الحاضرين حتى الجلاء نفسه إذ لم يكن بينهم من يعرف هذا الرجل أو يعلم كيف أتى .

أما رولاند فإنه اغتم فرصة اضطرابهم وذهولهم فدفع عنه الحراس بمنع شديد ووقف عند تلك النافذة وهو يحاول أن يموت ولكنه لا يوت إعداماً بيد الجلاء بل نبهاً على شقار السيوف وفي كل حال لا يعود حياً إلى سجنه .

ولما رأى ما كان من ذهول الجنود جعل يستجثهم ويخضعهم على قتله فيقول : أيها الجنود ، ما بالكم تضطربون ؟ أليس من العار عليكم أن تهلع قلوبكم وأنتم عشرون على واحد ؟ فصاح قائدهم : قائلا : إقبضوا عليه دون أن تقتلوه .

فهجم عليه اثنان من أولئك الجنود فاستقبلها رولاند بقرعة عالية ، ولم تكن غير لحظة حتى كان الجنديان صريعين على الأرض ، فهجم عليه الجميع وصاح القائدان بهم يقول : إقبضوا عليه ولا تقتلوه . ولكن صوته لم يُسمع فقد دوت السماء دويًا هائلًا في تلك اللحظة اهتزت له أركان الجسر كأنها الأرض قد زلزلت زلاها ، وهدمت بجانب من قبة الجسر وانتشرت رائحة الكبريت وثار الدخان من جميع الجهات ، فذعر الجميع وجعل بعضهم يقولون :

— ليهرب من يستطيع الفرار .

وعند ذلك حدثت حادثة أخرى زادت رعب الجنود وهي أنهم رأوا رجلاً قادمًا من طرف الجسر وهو رجل عظيم الجثة

هائل الجثة عاري الصدر واليدين مخرق الملايس يجعل بين يديه حجرًا ضخماً رُمقه إلى فوق رأسه ... وقد وصل إلى الموكب وعيناه قد دخان تاراً فكان أشد هولاً من تلك الصاعقة المنقضة من السماء .

وكان هذا الرجل سكالاً بريئاً فلما وصل إلى قيد خطوتين من الموكب ألقى على الجنود حجره الهائل بقوة عظيمة ففرا كض الجنود متذرعين وقد قلق الحجر رؤوس بعضهم . ثم أسرع إلى ذلك الحجر فالتقطه وحمله بين يديه وهو لا يستطيع أربعة رجال حمله وأطلقه من يديه على حديد النافذة المطلة على القرعة فتعطم وفتح منفذاً في تلك النافذة .

وبينا كان الجنود متذرعين وبعضهم يتحفزون لمعاودة الكرة على الرجلين أمسك سكالاً بريئاً رولاند ووثب الاثنان من النافذة إلى القرعة . وعند ذلك أسرع القائدان إلى جمع جنده وأمرهم أن يطلقوا بنادقهم من النافذة . فأطلق الجنود بنادقهم فلم يصب رصاصهم غير الماء ثم اضطروا إلى الرجوع وقد كادت تعمى عيونهم من الدخان ، فإن الصاعقة كانت قد انقضت على سراي الحاكم فتشبت فيها النار وملأ دخانها الفضاء .

ولم يبقَ غير الجلاء ، فإنه أطول من النافذة فلم يرَ غير اضطراب الأمواج السوداء وبراغص الفوارب فوقها والتطلم بعضها ببعض ، ثم لم يكد يرى شيئاً لتكاثف الدخان ، فارتد عن النافذة وهو يقول : إنها إذا تجوّاً من غضب الأرض فإن ينجوا من غضب السماء .



\*

أما رولاند فإنه شعر أنه غاص في الماء حتى بلغت وجلاه الأرض. وقد أعاد إليه هول هذا الموقف سكنته وعرف بسرعة التصور ما يجب أن يفعل ، فكان أول ما خطر له أنه لا يجب الظهور فوق سطح الماء خذراً من رصاص البنادق ، فجعل يسبح تحت الماء مبتعداً عن جسر التهديدات نحو نصف دقيقة ، ف شعر أنه لم يبق له يسد من التنفس وصعد إلى سطح الماء واختبأ بين قاربين أخفياه عن العيون . وتنفس تنفساً طويلاً وجعل ينظر إلى تلك السماء التي كانت تتوهج ببروقها فيجد بذلك لذة لم يشعر بثلاثها فيما مضى به من أدوار الحياة .

وعند ذلك ظهر سكالابرينو أمامه فلم يقل أحدهما كلمة لرفيقه فإن الأفكار قد ازدحمت في رأسها حتى أنها لم تجد كلاماً يعبر عنها .

ثم غطس رولاند في الماء فاقتدى به سكالابرينو وما زالا يسبحان تحت السماء ولا يصعدان إلى سطحه إلا للتنفس حتى اجتازا مسافة عظيمة في الترع وتوارت السجون عن أنظارهما . وعند ذلك صعد سكالابرينو إلى قارب وصعد رولاند في أثره وسار بهما في عرض الترع فجعل سكالابرينو يحذف وأقام

رولاند في القارب وقد أطلق لتصويراته العنان وقتلت له ليونور بله جلالها وجالها فلم يعد يكثر تلك الأمطار التي كانت تنهل كأفواه القرب ، فوضع الحطة التي يجب أن يتهجها وهي: أنه يذهب توتاً إلى جزيرة أوليفو فيظهر نفسه لليونور ثم يسافر بها من فينيسيا فيجد أمه وأباه ويذهبون جميعهم إلى ميلانو أو إلى فلورنسا فينيسيون أمنا عيش وينسون بحلاوة هذا الاجتماع مرارة الماضي .

ولما اقتصرمت خطة رولاند على هذا الحد لأنه لم يكن يحقد على أحد في تلك الساعة إذ كان يحبل أعداءه ويعتقد أنه كانت ضحية وشاة كاذبة .

غير أنه قُتِلَ له عند ذلك عقاب أبية فانتقد الانتقام في قلبه كما كانت تنقد السماء ببروقها وعزم قبل سفره من فينيسيا أن ينتقم لأبيه من فوسكاري لأنه هو الذي تلا عليه ذلك الحكم الجائر دون أن تتحرك عواطفه بأواصر الشفقة وصلات الوداد السابق .

وبعد هتية قال له سكالابرينو : لقد وصلنا يا سيدي . فالتفت رولاند فرأى أن سكالابرينو قد رسا بالقارب عند شاطئه حي من أسياء الفقراء فتذكر أنه طاف مرة في هذا الحي وسمع غناء نساؤه ، فحاول أن يتشم هذه الذكرى ولكنه لم يستطع فقال في نفسه : إني نسيت عادة الأبتسام دون شك . ونزل من ذلك القارب مع رفيقه وبعد هتية وقف به سكالابرينو عند منزل حجير وقرع بابه ففتحت لها فتاة دعت

لننظرهما فقالت : من أنثى وماذا تريدان فليس في هذا المنزل ما  
يطعم فيه . فقال لها سكالا برينو : كيف ؟ أم تعرفيني يا جونا ؟  
ألملتي قميرت كثيرا ؟

فنظرت إليه جونا بحدة ثم صاحت بصوت مضطرب قائلة :  
رباه ! أيمكن أن يكون هو ؟ قال : لندخل الآن . ثم دخل مع  
رولاند إلى ذلك المنزل الذي كان كل ما فيه يدل على الفقر .

أما جونا فقد كانت لابسـة في عنقها عقدًا من الزجاج الملون  
وقد وقفت مضطربة وهي تشير بيد ترعجب إلى قطعة من الورق  
موضوعة على المائدة . فالتفت رولاند لإشارتها ودنا من تلك الورقة  
فقالـت له جونا : إني انزعجت أـمس عن جدران الكنيسة .

أما هذه الورقة فقد كانت صورة إعلان الحكم على سكالا  
برينو بالإعدام ، وقد قرأ رولاند تاريخها فوجد أنه في ٤ تموز  
سنة ١٥١٥ فقال : أيقيت ستة أعوام في ذلك السجن الرهيب ؟  
نعم ، إنه أقام ستة أعوام في سجنه يقاسي أشد أنواع  
العذاب وقد دهش دهشاً عظيماً إذ كان يعتقد أنه لم يدم فيه غير  
عامين .. وذلك أن جهل المواقيت في مثل هذه الشؤون يختلف  
عند الناس باختلاف أخلاقهم ، فإت بعضهم يحسبون الساعات  
أياماً والأيام أعواماً ، وبعضهم يحسبون الأوقات على عكس  
الطريقة المتقدمة ، وذلك عندما يشغلهم عذاب أجسامهم كما  
اتفق لـرولاند ، فيصابون بما يشبه الذهول وتكثر تصوراتهم فلا  
ينتهيون لمرور الأزمان .

وكان يوجد على تلك المائدة امرأة فظـر رولاند وجهه فيها

وارتدت متذعراً فأنـسـه لم يعرف نفسه لفرط نفيره ، فقد تجعد  
جبينه وبرزت وجنتاه واصفر وجهه وغارت عيناه ! فوضع  
المرأة في موضعها وعاد إلى قراءة إعلان الإعدام فوجد في ذيله  
هذه التوقيع :

دندولو رئيس مجلس التفتيش . فوسكارى دوج فيليسيا .  
ألتباري القائد العام . بيو كرينال وأسقف فيليسيا بنعمة الله .  
فلم يفـه رولاند بكلفة وأخذ كرسياً فجلس عليه وأسند يديه  
إلى المائدة ورأسه فوقها وقبـد فـشـلت له هذه الأسماء الأربعة  
كانها كتبت بحروف من نار وخيل له أن الحكم عليه بالإعدام  
لم يكن سكالا برينو بل رولاند كلنديانو ابن الدوج .

## جونا

\*

وكان سكالا برينو قد رأى أيضاً هذا الإعلان فمز كـتـفـه  
ولم يكثر له وكان أول ما فعله أنه عانق جونا فقبلت وجنتيها  
وقال لها : إنك لم تكوني تتوقعين أنت تربي في هذا الصباح ،  
أليس كذلك ؟ فسالت دموع الفتاة وقالت : إني كنت أصلي من  
أجلك .

— ألم تفسيني يا جونا ؟ ألم تلعنيني مع اللاعنين ؟

— أنا أنساك وألعتك ؟ ألسنت أنت الذي ربيتني منذ  
حدثني فكنت أبي وأخي وعائلي ؟ لقد كنت لدى كل الناس  
أصا مفاكا وأما لدي فلم تكن غير الأخ الأكبر الحنون !

— هو ذاك يا ابنتي ، فإن حنوتي عليك أشد من حنو الآباء !  
وكانت جونا جالسة على ركبتة وهي تنظر إليه والدموع  
تسيل من عينيها فقالت له :

— ولكن كيف خرجت من السجن ؟ ألعنهم عفوا عنك ؟

قال : كلا ، بل عفوت عن نفسي !

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به أبي هربت ، فإذا علم الجلاد والجوايس وعجليس  
العشرة أبي هنا لا تقضي ساعة حتى يقطع رأسي في ساحة سائت  
مارك .

فارتعدت جونا ووثبت إلى النافذة كي ترى إذا كان يوجد  
أحد من الرقباء ثم ذهبت إلى الباب فأحككت إقفاله وعادت إلى  
سكالا برينو وقالت له : إنك هربت في نفس اليوم الذي كانوا ..  
رباه إني لا أجسر أن أتم جملتي .. ولكن كيف استطعت  
الفرار ؟

— لا تسأليني فلإني أنا نفسي لا أعلم ولكنني أكاد أموت  
جوعاً .

فاشارت جونا إلى حيث كان رولاند وقالت لسكالا برينو:  
وهذا الرجل من هو ؟ قال : أسكتي ، دعيه في شأنه وأتيني بنا

عندك من الطعام .

وكان هذا البيت مؤلفاً من غرفتين إحداهما للنساء وهي  
الغرفة التي كان فيها رولاند والثانية للطعام وهي التي كانت  
فيها جونا مع سكالا برينو .

فأحضرت له ما طلب وجلس يلثم ذلك الطعام إلتهاماً  
وهو يتغزل بين كل لقمة ولقمة بذلك الخبز الأبيض الذي لم يأكله  
منذ ستة أعوام ، حتى إذا قرغ من طعامه جعل يتمعن بوجه  
جونا . ورأى لأول مرة آثار ذلك التبرج الذي كان منحضراً  
بمعد الزجاج فتنهت تنهداً طويلاً وقال :

— ما أحلى الحياة ! فلإني أحسب نفسي حائماً وأكاد أن لا  
أصدق بأنني جالس على هذه المائدة أنظر إلى وجه جونا الجميل  
بعد أن كنت في ذلك السجن الضيق .. ولكن سجنني لا يذكر  
إلازاء تلك البئر التي كان مسجوناً فيها ...

— من هو ؟

— أسكتي ، قمو يقول لك اسمه إذا أراد . أما أنا فلإني  
عبده ! ولكنك قد كبرت يا جونا وغاب كل جمالك حتى لقد  
يقال عنك إنك بت مبالاة إلى التبرج والزينة خلافاً لما كنت  
عليه من قبل .

فأصفر وجه جونا وعاد سكالا برينو إلى الحديث فقال :

ما هذه الربطة الحمراء في شعرك ؟ وما هذا العقد في عنقك ؟  
فأرخت جونا عينيها إلى الأرض . فجعل سكالا برينو  
يتمعن فيها ، ولا بد لنا هنا أن نقول إنه لم يكن يحب هذه الفتاة



غير حب طهارة فإنه لقيها طفلة مجهولة فالتقطها ورباها وكان  
يحبها كما يحب الرجل بنته وهي تحبه هذا الحب .  
وعند ذلك قال لها : إنك لم تجيبي على سؤالي ، فهل لك  
عشيق ؟ فقالت بصوت خففت : كلا !  
- إذن ما هذا الذي أراه ؟ قولي كل شيء .

فأصفر وجه الفتاة وجعلت تبكي ، فقال بصوت أجش : لقد  
فهمت الآن أينها المشكودة ، فقد انقطعت عنك الموارد بعد غيابي  
فاضطرت إلى الارتزاق من هذه المهنة الهائلة ! فقالت له بصوت  
خفتته العبرات :

- اذن أنت لا تحترقني ؟

- أحتقرك ؟ ومن أنا في هذا الوجود كي يحق لي أن أحتقرك ؟  
إني أيتها العزيرة فان البكاء يعزيتك . أما وقد عدت إليك  
فستعودين إلى ما كنت عليه من العفاف .

فهزت الفتاة رأسها وقالت : اني لم أصب بذلك الشقاء الا  
بعد ذهاب تلك المرأة الصالحة . فارتش سكاللا برينو وقال :

- أية امرأة تعنين ؟

- تذكر ، قلاني أعني بها تلك المرأة التي أتيت بها في تلك  
الليلة ، ليلة الثورة ، أي تلك الليلة التي رأيتك تبكي فيها أمامها .  
ألم تذكر ؟

- نعم ، نعم .

- أتعلم من هي ، انها امرأة الدوج كانديانو وأم ذلك  
الفتى المشكود الذي قبضوا عليه يوم خطبته .

- نعم أعلم ، فاسكتي .  
- مسكينة هذه المرأة !  
- ماذا أصابها ؟  
- انها ماتت ؟

فأصفر وجه سكاللا برينو وقال : ماتت ؟

وعند ذلك فتح باب الفرقة التي كان فيها رولاند ودخل  
رولاند وهو مصفر الوجه ولكن آثار السكينة كانت بادية عليه  
فدنا من جوانا وقال لها : أخبريني كيف ماتت أمي .

- أمك ؟ أهى أمك ؟ اذن أنت ...

- أنا رولاند كانديانو يا ابنتي . وما زلت عرفت كيف  
ماتت فاني أحب أن أعلم منك كيف كان موتها . فارتعشت  
الفتاة وقالت له : انك تسألني أن أخبرك بأمر هائل !  
- أهو هائل إلى هذا الحد ؟

- نعم !

- لا بأس ، أخبريني بكل ما تعرفينه اذ يجب على الإبن أن  
يعرف كيف ماتت أمه !

- اذن أنت تريد يا سيدي ... ؟

- نعم أريد أن أعلم كل شيء بالتفصيل .

- من أين تريد أن أبدأ الحديث ؟

- من حين خرج سكاللا برينو من هذا المنزل بأمر أمي دون  
أن يعود إليه .

- إذن قاعلم يا سيدي أن مدام سيلفيا انتظرت عودة سكاللا

بريشو حيناً وقد عانت بعد شهر أنهم قبضوا عليه قبضت ،  
وبكيت أنا ولكن ماذا تفيد دموعي ؟

ولم تكن مدام سيلفيا تبكي ولكن حزنها الساكت كان يقطع  
قلبي ، فإنها كانت تخرج في صباح كل يوم فلا تعود إلا في المساء ،  
وكنت أتبعها على مسافة بعيدة كي أعينها عند اقتضاء الحاجة ،  
فإن الناس كانوا ينظرون إليها نظرات تشفق عن الخوف . فقال  
رولاند : إذن لم يشفق عليها أحد ؟ فأطردت برأسها وقالت :  
- إن الذين كانوا يشفقون عليها لم يحسروا على التظاهر  
بالإشفاق .

فأطبق رولاند عينيه كأنما قد ثقلت له أمد جاثية بالأسواق  
وهو لا يطبق النظر إلى شغافها ثم فتح عينيه وقال لها : ماذا  
كانت تعمل حين كانت تجول في الشوارع ؟ قالت جواها : إنها  
كانت تروود حول منازل رؤساء الحكومة .

فتنهده رولاند وقال : لقد فهمت ! فإنها كانت تلتصق منهم  
المغوغي ! قالت : هو ذاك ، وقد شكنت يوماً من الوصول إلى  
فوسكاراي ، ولكنه أمر حراسه بأن يبعدوها عنه .

- أليس فوسكاراي دوج قيتيسيا ؟

- نعم ، إنه الحاكم .

- حسناً . أقتي حديثك .

- قفي ذات يوم بينما كنت أقف أثرها حسب عادتي رأيت  
رجلاً قد دنا منها فكلمها ولم أعلم ما قاله لها ، ولكنها حين عادت  
إلى المنزل رأيت وجهها قد امتنع بصفرة الموت وأن شفتيها

توجعنا فاقامت كل ليلا جالسة على كرسي دون أن تصغي إلى  
توسلاتي . وعند الفجر أذنت لي أن أنفضها عن ذلك الكرسي  
فتنهدت تنهداً لا أنساه طوال حياتي . وقد أصدعتها إلى سريرها  
فأدارت وجهها إلى الجدار وأنا أحسب أنها ستنام . ولكنني حين  
عدت إليها بعد ساعة لأتفقدتها وجدت عينها منفتحتين وهي  
تردد هذه الكلمات :

- « إنه مات ... مات ... قفي الأمر ! »

ففسح رولاند العرق عن جبينه وجعل يسير في تلك الغرفة  
وقد غرست أظفاره في باطن كفه لشدة ضغطه كأنه أصيب  
بنوبة غضب هائل ، ثم عاد إلى الفتاة وقال لها : ألم تعرفي ذلك  
الرجل الذي كلم أمي ؟

- نعم أعرفه .

- من هو ؟

- إنه كان يدعى بيو ، وهو الآن كردينال وأسقف قيتيسيا !  
فأطبق رولاند عينيه هذه المرة أيضاً ثم فتحها وقال بصوت  
أجش : أقتي حديثك . قالت : إن ما بقي من حديثي يشير  
الأشجان ياسيدي ، فإني كنت أبيع في الشوارع الأزهار  
والفاكهة وأعود بها أكسبه فأقتات به وأطعم حمامتي كنت  
ريبتها ، فكانتا تطيران في كل يوم وتعودان إلي حين الطعام  
فأطعمهما ما اشتريته لهما من الحب مما يزيد عن حاجتي .

فلما بلغت مدام سيلفيا معنا زدت جهدي في البيع ولكنني  
لم أستطع أن أفي بتفقاتنا كلنا بحيث اضطررت إلى الامتناع عن

إطعام الحمامين فذهبتا ولم تعودا وكان حزني عليها شديداً .

ومن عجيب ما لقيته أني كلما زدت جهداً في البيع والسعي وراء الارتزاق كل ما ضاقت أبوابه . ولا أدري سبب هذا الشقاء ، فإن زياتني أخذت تتنوع تباعاً عن الشراء فكنات الأزهار التي اشتريتها تذهب قبل أن أتفكر من بيعها . إلى أن عرفت يوماً السبب الحقيقي وذلك أني شكوت أمري إلى امرأة أعرفها فقالت لي : إن الحكومة عرفت أن امرأة الدوج تقيم عندك فنفر الناس منك . وخافوا أن يشتروا أزهارك كي لا تتهبهم الحكومة بالزواجرة مع امرأة الدوج .

وقد قالت تلك المرأة لي هذا القول وهربت أيضاً خوفاً أن يكون أحد رآها تكلمني . فقلت : ضالعة الرشد مثلثة اللبال ، ولكن ذلك لم يفد وما عساي أن أفعل !

فقال لها رولاند : ألم يخطر لك أن تفرقي عن هذه العجوز التي كانت السبب في شقاؤك ؟ قالت : كلا فإني كنت أعطف على مدام سيلفيا وأحبها كما لو كانت أمي من قبل ، وكنت أجسد نفسي معيدة بهذا الحب .

فاضطرب رولاند وترقق الدمع في عينيه ، غير أنه حبس دمعته عن الانسكاب . وثار الحق في قلبه على أعدائه فتغلب على الحنان وقال : ماذا فعلت بعد ذلك ؟

فاطردت الفتاة برأسها استحياء ثم قالت بصوت يتهدج : مولاي ، لا تسألني عما فعلت فإني أخطأت .

— أنتِ أخطأتِ ؟

— نعم ، وأسفاه ! ولكنني كنت مضطرة إلى ذلك إذ لم يبقَ لدي مال وكانت العجوز المنكودة محتاجة إلى خر معقطة فاضطرت إلى شرائها فباركتني أمك ودعنتي بنتها .  
— تقولين إن أمي دعنتك بناتها ؟

— نعم يا سيدي ، ولكنني ربما كنت غير مستحقة لهذا اللقب لأنني لم أستطع المقاومة ، فقد وجدت في ليلتي أن مدام سيلفيا منهوكة القوى وأنها محتاجة إلى دواء مقو . وأنه لا يوجد في البيت قطعة خبز . وليس لدي درهم فخرجت قانطة في ظلام الليل وأنا لا أدري ماذا أصنع ولا إلى أين أسير ، فلقيني فتى من الأسياد . . . ولما عدت إلى المنزل كان معي ذلك الشراب القوي وما تحتاج إليه من القوت ! مولاي ، إني أتمنى منك العفو جاثية لاضطراري إلى تقضية أمك مال كسبته من أقبح الموارد ! وقد جئت عند ذلك راكعة فأنفضها رولاند وأخذ يدها فقبلها ببله الاحترام وهو يبكي . فاجففت الفتاة وقالت :

— أمثلك يقبل يد مثلي يا مولاي ؟ !

قال : نعم ، فإني أحبك وأباركك وأقول لك إنك أصبحت لدي اختاً مقدمة أعبد قلبها الطاهر !

وكان مكالاً يرينو يشاهد كل ذلك ، ففتح التافذة استنشاقاً للهواء وهو يقول : رباه ماذا أرى ؟ إني سأنتحب !

أما رولاند فإنه جعل يبكي بكاء الأطفال إلى أن تظب الدمع من عينيه فماد إلى جوانا وقال لها : أتمشي يا اختاه حديثك . قالت : لم يبقَ لي يا سيدي غير بضع كلمات أقولها وهي أن



صعقة أمك أخذت بالانحطاط سريعاً فبذلت معظم ما يمكن  
بذله من الجهد كي أخفف شعاعها إلى أن أراحها الموت فماتت بين  
يديّ في العاشر من شهر حزيران سنة ١٥١٠ أي بعد القبض  
عليك بعام ثم فكفنتها ودفنتها ولا تزال أبكيها يا سيدي  
إلى اليوم !

وعند ذلك جعلت الفتاة تبكي ووضع رولاند رأسه بين يديه  
وفاء في عالم الخيال فلم تعلم ما كان يحول في أفكاره تلك الساعة .  
ودام على ذلك إلى أن دوى الرعد دويّاً قاصفاً فارتعد وانتبه  
وقال لجوانا بمنتهى الرفق : إنك منذ هذا اليوم لم تعودى وحدك  
في هذا العالم فإن لك أخاً . ولا شك أن أمي كانت تعلم بأسرار  
الغيب وهي تحتضر فدعتك بنتها . فاذهي أيتها الأخت واذهب  
أنت أيضاً يا سكالاً بريئو ودعاني وحدي فأني مضطر إلى أن أنزل  
إلى أعماق نفسي لأرى هذا الرجل الجديد الذي تولّد فيها .  
فنظر الاثنان إلى رولاند نظرة تشفع عن الرعب وامتنلا  
لأمره . أما رولاند فإنه جلس على كرسيه وعاد إلى التأمل  
والتفكير .

### حديقة جزيرة أوليفو

\*

ولم يجتمع رولاند بسكالاً بريئو وجوانا إلا عند المساء فتناولا

معها الطعام وسهر معها إلى الساعة الحادية عشرة من المساء .  
وعند ذلك نهض وقال لسكالاً بريئو :

— إني ذاهب لشأن فانتظري هنا . قال : ألا تريد أن  
أصحبك ؟ قال : كلا ، فأني ذاهب لزيارة لا يجوز أن يصحبي  
فيها أحد .

فقالَت جوانا : ولكنك لا تستطيع الذهاب في حالتك  
الحاضرة فانك لا تدير بضع خطوات حتى يعرفك الجواسيس  
ويقبضوا عليك .

وكانت جوانا مصيبة في اعتراضها فان شعر رأسه كانت قد  
طال حتى استرسل إلى كتفيه وامتد شعر لحيتته حتى بلغ إلى  
صدره وقرّنت ثيابه بحيث بات يستلقت أنظار الرقباء بمجموع  
هيئته .

فلما رأت أنه أدعِن لاعتراضها قالت له : إجلس فاني أجيد  
قص الشعر وليس في ذلك صعوبة . فامتشل لها رولاند وأخذت  
المقص فقصت شعر رأسه ولحيته ثم صبغت شعر رأسه صباغاً  
غير لونه فتغير كل شكله . ثم أسرع إلى الصندوق ففتحت  
وأخرجت منه ملابس ثلثة وهي تقول :

— هذه ملابس تينو الذي توفي في العام الماضي . فقال رولاند :  
من هو تينو هذا ؟ فأجابه سكالاً بريئو : إنه أحد رجال عصابتي  
وكان يقيم عندي وهو أحد الذين دُعروا منك حين عرفوك يوم  
أنقذت أمباريا !

وبعد هنيهة أتم رولاند لباسه فبات لا يُعرف بفضل جوانا ،

فخرج ذلك المنزل بعد أن شكرها . ومشى في طريق فينيسيا ،  
وكانت الشوارع مقفرة مع أن العاصفة قد هدأ ثأرها وعادت  
السما إلى السكون . وكان يسير وهو يسأل نفسه فيقول : ترى ،  
كيف نال دندولو منصب رئيس ديوان التفيتش ؟ ومتى تمكن  
والد ليونور من استلام منصب قوسكاري المائل ؟

ثم سأل نفسه سؤالاً آخر وهو أنه إذا كان دندولو قد عُيِّن  
رئيس ديوان التفيتش فكيف لم يستعمل نفوذه في سبيل إقناذي ؟  
وهنا اضطرب لهذا السؤال الذي لم يعلم كيف يجيب نفسه  
عنه فأسرع الخطى وهو يقول : إن ليونور ستوضح لي كل ذلك  
بكلمة .

وما زال يناجي نفسه بثل هذه الأسئلة وهو في الوقت نفسه  
يضع خطة مقابلة ليونور ويخشى أن يقتلها الفرح ببقائه ، فلم  
يستطع أن يضع تلك الخطة وقال في نفسه : إني سأصل إلى المنزل  
فأطلب إلى الحديقة من فوق سورها وأجتهد أن أوقف إحدى  
الخادومات فأعهد إليها أن تدعو والد ليونور ، وهناك أرى  
ما يكون .

فلما اجتاز الجسر الأخير ووصل إلى جزيرة أوليفو وبلغ إلى  
ذلك المكان الذي لقي فيه سكانا برينو منذ ستة أعوام جعل  
قلبه يخفق خفوق أجنحة الطائر . وقد واصل سيره بأقدام  
تضطرب حتى اقترب من المنزل فوهنت قواه واشتد خفوق قلبه  
حتى أنه لم يعد يستطيع المسير فجلس على عتبة سلم الكنيسة  
وجعل يحدث نفسه فيقول :

- ربه ! إني أخشى أن يقتلها الفرح ، فقد لقيت دون شك  
نفس ما لقيته من الغناء ، فلا شك أيضاً أن الفرح يؤذيها . ولكن  
ضرر الحزن أشد من ضرر المباشنة بالفرح فلا يجب أن أطبل  
دقائق حزنها .

وشعر وهو يقول بهذا القول أنه لا يستطيع الذهاب إلى  
منزلها ، وعاد إلى ذلك السؤال المائل وهو : أنه إذا كان أبوها  
قد بلغ هذا النفوذ فلماذا لم يتقدمي ؟

وعند ذلك نهض فجأة ومشى إلى تلك الحديقة وكأنه سائر  
إلى الإعدام ، فلو هبطت عليه السماء في تلك الساعة لما عدت تلك  
المصيبة أعظم من المصيبة التي كان يتوقعها . وما هي هذه  
المصيبة ؟ فإنه لا يعلمها . فقد تكون ليونور ماتت ، وقد يكون  
حدث غير ذلك ... فقد كانت مصيبته مجهول هذه المصيبة !

ولما بلغ السور الهدق بحديقة قصر دندولو رأى من خلال  
بابه الحديدي تلك الحديقة الغناء وتلك الأزرة الكبرى وجميع  
تلك التذكارات الحنونة التي لم يكن يذكر سواها في سجنه !  
لقد رآها كلها بعين الحقيقة كما كان يراها بعين الخيال .

ولما ثقلت لعينه هذه التذكارات ذهبت هواجسه حتى بات  
يعتقد أنه حين يهبط إلى الحديقة من فوق السور يجد ليونور تلتظرو  
تحت تلك الأزرة !

وبعد لحظة كان في تلك الحديقة ، فوقف منهية كي يتفحص  
ويسكن خفوق قلبه ثم جعل ينظر إلى ما حواله . وقد كانت  
الحديقة مقفرة ، ورأى رولاند أنه قد نبت فيها نبات بري يدل

على إهمال تلك الحديقة فارتعش وقال في نفسه : رياء ! ماذا حدث ؟ فعهدي ليونور أنها لا تتفانى طرفة عين عن الحديقة . وهنا عارذته المواجس ففسح جيبه وقال : إن كان الموت قد اختطفها مني بعد هذه التكببات فيحسن بي أن أقف على الحقيقة في الحال .

ومشى وهو يضطرب توتاً إلى المنزل ونسي كل ما كان قد أعدّه من أسباب الاحتياطات فطرق الباب بعنف . ولما سمع صوت المطرقة ندم ندماً شديداً وتنبه لو كان بعيداً أو أنه لم يكن أتى . حتى إذا لم يحبه أحد اشتد به الجزع وحسب أن البيت قد أصابه بما أصاب الحديقة . ولكنه عند ذلك سمع وقع خطوات فعاد إلى قلبه ذلك الخوف وخيّل له أنه سيقتضي فرحاً أمام عيني ليونور .

وبعد هنيهة سمع صوتاً يقول : من الطارق ؟ فأجابه رولاند قائلاً : رجل قادم بلباً خطيراً !

ففتح الباب ورأى رولاند أن الذي فتحه خادم قديم في بيت دندولو . أما الخادم فإنه لم يعرفه ، فقال له :

— من أنت وكيف دخلت إلى الحديقة في مثل هذه الساعة ؟ فانك لم تدخل إليها لثبّة صالحة... إذ ذهب إليها الرجل في شأنك . فضم رولاند يديه متوسلاً وقال له :

— رحماك لا تطردني قاتلي مضطهد تطارده الحكومة . ونعم إنني دخلت إلى الحديقة دون استئذان ولكن لم يستعني أن أفعل غير ما فعلت . ولولا ذلك لعرفوني وقبضوا عليّ . أفلا تشفق

على مضطهد ؟

فحدث الخادم رولاند وقد تأثر لاستعطافه ورأى في عينيه ولهجه ما يدل على السلامة ففتح له الباب وقال له :

— ادخل قلا يقال إن فيليب الشيخ أبي حاية رجل مضطهد . والله أسأل أن يصلح حال فيليسيا ويلهم رجالها سبل الرشاد فقد طال عذاب الناس فيها .

فدخل رولاند وجعل ينظر إلى ما حوالبه ويضطرب . فحسب فيليب الخادم أن اضطرابه اضطراب خوف فقال له : لا تخف فانك هنا في مأمن .

فشكره رولاند بإعناء رأسه وكان قد بلغ قساعة الطعام فوجد أن كل ما فيها لا يزال باقياً على حاله حتى ذكر الكرسي الذي كان يجلس عليه يجانب ليونور ، فقال له فيليب : اجلس واسترح مطمئناً فلا يخطر لأحد أن يبعث عنك في هذا المكان . فجلس رولاند ، وصب له الخادم كأس خمر فشربها جرعة واحدة ثم قال له : إنني أشكرك لتكريمك وأخبرك بالحقيقة وهي أنني من المضطهدين وقد أتيت إلى فيليسيا بالسر كي أقابل رئيس ديوان التفتيش ، وقد قبل لي إن هذا المنزل منزله فصبرت إلى أن أذهب الليلة ودخلت .

— ولكنك غطيت يا بني !

— كيف ذلك ؟ أليس هذا المنزل منزل دندولو !

— نعم إنه منزله ولكنه لا يقيم فيه ولا يأتي إليه أبداً ، وأنا أقيم فيه وحدي لحراسته . أما سيدي دندولو فإنه يقيم في قصره

الكائن على التربة الكبرى .

فتنفس رولاند الضعفاء وعلم السبب في إهمال الحديقة وقال :

متى سكن دندولو قصره الجديد ؟

— منذ عامين !

— وإن عائلته مقبلة معه دون شك ؟

— عائلته ؟ من هي عائلته ؟ فوجئت قلب رولاند وقال :

— لقد أكدوا لي أن له بنتاً .

— أتعني بها السيدة ليونور ؟

— نعم ، قبل مائت ؟

— معاذ الله أن تصاب بسوء فهي لا تزال في ريعان الصبا

والجمال وهي تقف في قصر زوجها الشير . . ولكن ماذا أصابك ؟

فوثب رولاند من مجلسه إلى ذلك الشيخ فأمسك يكتفيه

وهزّه هزاً عتيقاً وهو يقول : أيا الشقي ، أقول إن ليونور قد

تزوجت ؟

— نعم .

— متى ؟ قل وأسرع قبل أن أخنقك .

— منذ عامين !

— ماذا يدعي زوجها ؟

— ألتباري أ

فهذه رولاند الساء بقبضته ثم أرت " أننا خرج من صدره

كالزئير وبرح ذلك المنزل كما دخل إليه . فلم يعلم أحد ما فعل في

تلك الليلة .

وعند الصباح عاد إلى منزل جوانا فصاح سكالا برينو صيحة

فرح للتائه فإنه لم يتم ليلة لشدة قلقه عليه . وكذلك جوانا فإنها

لامت سكالا برينو لتخليته عنه ، فأجابها قائل : إن البرنس

أمرني بالبقاء ولا سبيل إلى عصيانه .

وكانت هذه أول مرة استعمل فيها سكالا برينو كلمة البرنس

للكناية بها عن رولاند . وقد قاها بدافع طبيعي ، كما أنه دل

يؤاوبه على شدة تعلقه به وخضوعه له خضوعاً لا يلف عند حد .

أما رولاند فإنه حين دخوله شرب كثيراً من الماء ثم التفت

إلى سكالا برينو وقال له : أليس اليوم يوم أحد ؟ قال : نعم

يا مولاي .

— ألا يروق لك أن تحضر الصلاة في كنيسة سانت مارك ؟

فنظر إليه نظرة اندهال لأنه كان يعلم أن رولاند ليس من

أهل التعبد وكذلك هو فإنه لم يكن يؤمن بشيء ، وفوق ذلك

فإن طجة رولاند كانت غريبة وقد تحلل سؤاله من الأمر

بحيث لم يسع سكالا برينو غير الامتنال ، فقال له رولاند :

— ما زلت قد رضيت الذهاب إلى الكنيسة للشكر الله على

نجاتك فمأصحبك إليها . فدفعت جوانا يداً بيد وقالت :

— لكنهم قد يعرفونكم . قال : كلا ، لا يعرفنا أحد .

وقد قال هذا القول بلهجة ثقة حتى أرت الفتاة نظرت إلى

سكالا برينو نظرة الفاحص وقالت : لقد أصبت ، فإني أنا

أكاد لا أعرفه . فقال رولاند : إذن لقد اتفقنا على أن نتحضر



الصلاة . والآن هلمّ معي . وخرج الاثنان .

\*

كان رولاند حين قبضوا عليه ليلة خطبته يحمل بعض  
مجوهرات منها سلسلة طويلة ذهبية كان يلبسها النبلاء في ذلك  
العهد ، ومنها منقطة مرصعة ، ومنها حزام كانت قبضته مرصعة  
أيضاً بالياقوت والماس ، ومنها خاتم غين كانت ليونور قد أعدته  
إليه ليلة الخطبة فان الفتيات كنّ يمدن خطباتهن في ذلك العهد  
خلاقاً لعاداتنا في هذه الأيام .

وقد ذهبت المنطقة والحزام والسلسلة حين قبضوا عليه على  
أثر العراك ولكن الخاتم بقي في إصبعه فكان خير عزاء له في  
سجنه إذ كان يتمعن به في ساعات يأسه فيخيل له أن ليونور  
تتظر إليه .

وقد أصبح هذا الخاتم الآن ثروة رولاند الوحيدة إذ كان كل  
ما يملكه .

فلما هرح منزل جوانا ذهب توتاً إلى سوق الصياغ وعرض  
هذا الخاتم للبيع دون أن يتردد في بيعه وقبض ثمنه مائتي ريال  
دون مساومة ودفع هذا المال إلى سكالابرينو ثم سار وإياه إلى  
ساحة سانت مارك . وهناك لقي كثيراً من الناس واقفين قرب  
عمود يقرأون إعلاناً ألصقته الحكومة عليه وقد ذكرت في  
الإعلان صفات رولاند وسكالابرينو المهاريين من السجن  
وعينت جائزة قدرها مائة ريال لمن يقبض عليها أو يرشد

الحكومة إليها . فلما قرأ رولاند هذا الإعلان علم أنهم قد يتدون  
إليها لوضوح الصفات ، ولكنه عجب كيف أنهم ذكروا اسم  
سكالابرينو فيه دون أن يذكروا اسمه .

وعند ذلك دخل مع سكالابرينو إلى الكنيسة فدهش  
سكالابرينو إذ كانت هي المرة الأولى التي دخل فيها إلى  
الكنيسة . أما رولاند فانه جعل ينظر إلى رجل واقف في  
المبكل يبارك الناس فكاد يصيح صيحة تفصح أمره وكذلك  
هذا الرجل فانه لو رأى رولاند وعرفه لتوقف عن الصلاة  
وأمر بالقبض عليه . فإن هذا الرجل كان الكردينال جيو .

غير أن رولاند تمكن من ضبط نفسه فضعط على يد سكالابرينو وقال له : تمعن في وجه هذا الأسقف .

فامتثل ، وعند ذلك اصفر وجهه واضطربت يده في يده  
رولاند فقال له رولاند : أرى أن منظر هذا الكردينال قد  
أثر عليك .

- هو ذاك يا سيدي !

- لماذا ؟

- لأن هذا الكردينال الذمير هو نفس الرجل الذي دفع لي  
مئة ليلة خطبتك وطلب إليّ وإلى رجالتي أن نهتف : « ليحيى  
رولاند كاندباتو » . وهو نفس الرجل الذي طلب إليّ أن أقتل  
أمتك !

فابتسم رولاند ابتساماً هائلاً وتم قائلًا :

لم تخدعني نفسي ، فقد خطر لي أنه صاحب هذه الفعلة الشنعاء

ولكن طلب نفساً الآت فسيلقى من العذاب فوق ما لقيت  
وسيكون انتقامي شديداً تتحدث به الأجيال .

وبعد ذلك عاد الاثنان إلى منزل جوانا فنام رولاند بضع  
ساعات وفي الصباح يرح المنزل بعد أن أوصى سكالا بريسو أن لا  
يقلق عليه إذا طال غيابهُ بضعة أيام .

وقد غاب كما قال فطال غيابهُ إلى ثمانية أيام وفي الليلة الثامنة  
عاد فلم يجدها أين كان ولا ماذا فعل بل إنه نظر إلى جوانا  
وقال : إننا سسافر ، وسيعود سكالا بريسو إليك للذهاب بك  
بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، فهل توافقين على السفر ؟ قالت : إلى  
أين يا مولاي ؟

— إلى حيث أكون !

— دون شك !

— إذن خذي هذه اللقطة لتنفقها مدة غيابي .

— مولاي ...

— ألم أقل لك يا جوانا إنني أعثرك أختاً لي ... لا تبكي ولا  
تفكرني بالماضي بل افكري بنفسك وبأخيك .

وعند ذلك لبس رولاند وسكالا بريسو ملابس الفرسان  
وكانا قد اشترياهما من قبل ، ثم ودعا جوانا وانصرفا قريبا  
سفينة كان رولاند قد أعدّها وابتعدا بها عن فينسيا .

## الشيخ

\*

ولبت السفينة تمخر بها حتى رست عند الشاطئ ، فنزل منها  
ودعها مشياً على الأقدام إلى مدينة « ميسر » فأقاما في أحد  
فنادقها وقال رولاند لصاحب الفندق إنه يريد شراء جواوين  
قويين فأجابهُ صاحب الفندق قائلاً : يوجد في قنّدي رجل من  
الأعيان لديه كثير من الجياد يريد بيعها لأنه يريد السفر وهو لا  
يعلم ماذا يصنع بها . فإذا أردت شراء ما تحتاج إليه منها فنفضل  
واتبعني .

فسار رولاند في أثره دون أن يحجب حتى إذا وصلا إلى  
غرفة الرجل التقت إليه صاحب الفندق وقال : لا تعجب لما  
شراء من أخلاق هذا الرجل فإنه واقر الثروة كما يظهر وله  
أطوار غريبة .

ثم دخل به إلى ذلك الرجل فالتقى أمامه حتى كاد يبلغ  
الأرض وقال له : يا أيها المولى الخطير ، هو ذا سيد مع بشرة  
جيادك وهو يريد شراء جواوين منها ، فنظر الرجل شزراً إلى  
صاحب الفندق وقال له :

أبلغت منك المرأة أيها الأبله أنك توعجنى بمثل هذه الأمور  
التافهة ؟ لم تخبر أحد عما لي بهذا الشأن ؟ قال : أسألك العفو  
يا سيدي فقد سببت أذى أحسنت عملاً وحاشاني أن أتجاسر على  
إزعاجك . قال : حسناً ، فاذهب . ثم نظر إلى رولاند وقال له :  
- أرجو أن تعذرنى لفيظي على هذا الرجل الذي حاول  
إزعاجي في ساعة أريد الخلو فيها بياحوس ! وقيليس ؟ . على  
أن هيتك أعيجيتني لغربتها فاني أقسم بصدور مرغريتا أنك أشبه  
بأهل القبور منك بأهل الحياة ، فهل تريد أن تجالسني ؟

فقال رولاند : أسألك العذرة يا سيدي فإن الوقت لا يتسع  
لي وقل إذا كنت تريد بيع جوادين من جيادك وكم ثمنها .  
- الثمن .. الثمن .. ثم قام إلى مائدة وضعت عليها صحنون  
الطعام وأوفى الدمام وجلست حوالها صيئتان جميلتان كان يظهر  
أنهما من المظليات خلاعة لباسها ، فشرّب كأس خمر وقال : نعم  
اني سأبيعك جوادين من خيرة جيادي وهما نيتون وبلاتون لأنني  
أريد السفر إلى فينيسيا الجميلة مدينة الماء ، تلك المدينة التي يوحى  
جمالها أيدع الصور خيال الشعراء ... ما بالك يا مرغريتا ؟ ألم  
ترني كأساً قد قرغت ؟ نعم يا سيدي لا بد أن أشرّف فينيسيا  
بذهابي إليها وقد دعاني إلى زيارتها صديقي بيبو وغيره من أعيان  
تلك المدينة الزاهرة مثل قوسكاراري حاكم المدينة !  
فارتعش رولاند لساع هذين الأسمين ولكنه ضبط نفسه فلم

يظهر على نفسه شيء من علائم التأثر . أما الرجل فانه استمر  
على كلامه فقال :

- يظهر يا سيدي أننا قد نسينا أمراً لا بد منه بين كبار  
الناس وهو التعارف حين الاجتماع ، ولكي أسلح هذا الخطأ أقول  
لك اني أدعى بيار آريتان .

وقد ذكر اسمه وانتظر أن يرى علائم الإعجاب من رولاند  
غير أن رولاند لم يظهر شيئاً فقال له آريتان : اني أدعى بيار  
آريتان كما قلت لك ، وأنت ماذا تدعى ؟ قال : اني يا سيدي  
مسافر يرغب في أن يشترى جوادين فهل تريد بيعهما ؟

قال : أقسم بعنق شاريا وثقو مرغريتا اني أبيعك نيتون  
وبلاتون وهما جوادان تشرفا بعمل بيار آريتان إلى مانتو ومن  
مانتو إلى فيرون ومن فيرون إلى أبادو ومن أبادو إلى ميسكو .  
ولكن هذه أول مرة رأيت فيها رجلاً يسمع اسم بيار آريتان  
ولا يهتز إعجاباً بشهرته التي طبقت الخافقين ، فهل أنت غريب  
يا سيدي ؟

- نعم !

- لقد اتضح الأمر ، ولكن شهرتي قد تجاوزت حد إيطاليا  
فلا بد أن تكون قادماً من مكان بعيد جداً .

- هو ذلك !

- إذن أعذرک ولكنني سأؤنوك عليك بعض قصائدي الغراء  
كي تتحقق من أن شهرتي تليقي بي .

فهر رولاند رأسه إشارة إلى نقاد الصبر ، ورأى الشاعر

أريتان ذلك منه فقال له : نعم إنك مستعجل أنها الرجل  
الأصفر ولكن دعني أقول لك إنك إذا مررت بعد عشرة أيام  
بهذه المدينة تجدني فيها وقد تجد يرمثي ساعة قراع لأنني قبل أن  
أذهب إلى فينيسيا أريد أن أزور مفاور بياغا الكائنة فوق  
تريفيز . غير أنك مستعجل الآن ، فأخبرك بأنني أوافق على بيع  
فيتون وبلاتون بمخمين ليرة وفي هذا البيع غبن علي ، ولكن  
هيتك أعجبتني كما قلت لك في بدء الحديث .

فأخرج رولاند المبلغ من جيبه ووضعه على المائدة أمام  
الشاعر ، ثم انحنى أمامه وخرج رولاند بينما كان أريتان  
يعد المال .

أما رولاند فإنه حين وصل إلى الباب عاد وقال : لقد قلت  
لي يا سيدي إنك صديق فوسكاري أليس كذلك ؟ قال : دون  
شك ، كما أنني صديق أشهر أعيان فينيسيا .  
— مثل الأسقف بيو ؟

— نعم ، فهو من خير أصدقائي فإذا احتجت إلى كتاب  
وصاية إليه أو إلى سواء من أعيان فينيسيا تعال إلي فإني أرتاح  
إلى إفادتك لأنك دفعت لي ثمن الجوادين دون مساومة قبل  
تحضر ؟  
— ربما .

وعند ذلك خرج رولاند من تلك الغرفة وبعد ربع ساعة  
كان يسير مع سكالا برينو على الجوادين في طريق تريفيز وقد  
وجد الجوادين على ما وصفها الشاعر وأنه لم يقب في الشراء بل

إن الشاعر كان مغبوطاً في البيع .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر وصلا إلى تريفيز فاستراحا فيها  
هنية ثم واصل سيرهما إلى جهة الشمال .

وكان رولاند يسأل الفلاحين الذي يمر بهم عن الطريق ، فما  
زالا يسيران حتى بدت لهما ملاحع جبال الألب . وكان سكالا  
برينو كلما تقدمما ينظر إلى ما حوالية نظرة قلق وحذر  
ورولاند يراقبه إلى أن وصلا وقد غابت الشمس عن القرية .  
فالتفت رولاند إلى سكالا برينو وقال له : أتعرف هذه القرية ؟  
قال : نعم يا مولاي ، فقد أتيت إليها مرة .

— وماذا تدعى ؟

— قرية سرفيزا .

فردّد رولاند : سرفيزا ... ثم أوقف جواده وجعل يحرق  
بنظره إلى بيوت واطئة مبلية تحت قبة كانت تجري المياه  
من تحتها .

فدخل سكالا برينو لوقوف رولاند واستقرم سكوته فلم ينبس  
ببنت شفة . أما رولاند فإنه قفم بكلمات لا تفهم ثم نزل عن  
جواده وأشار إلى سكالا برينو أن ينتظره وسار ماشياً إلى تلك  
القرية . فلما وصل إلى أول بيت من بيوتها وجد امرأة عجوزاً  
حقيبة الملابس جالسة على عتبة الباب فمشى إليها ، ولكنه وضع  
يده على جيبه وهو يقول : ترى أجنس على سؤالها ؟ ثم تنهد  
تنهداً طويلاً وقال في نفسه :

« إني بحثت عن أمي فعلمت أنها ماتت أشام ميتة . وبحثت



عن خطيبي فقلت أنها تزوجت بذلك الرجل السافل الذي  
خأبني فما أعلم الآن وقد أتيت للبحث عن أبي ؟ .

وعند ذلك دعا خطوة من المعجوز ولكنه توقف أيضاً إذ  
سمع أصوات غلمان يتضاحكون والكلاب تلبع من حولهم وهم  
يحيطون بشيخ يتنفض شعره الأيام وطالت لحته البيضاء وتمزقت  
ملابسه وقد رفع عصاه يهدد بها الغلمان والكلاب ولكن الغلمان  
كانوا يزيدون ضحكاً والكلاب نباحاً .

أما رولاند فإنه عرف ذلك الشيخ لأول وهلة فشم أن قلبه  
قد وثب من صدره وهم أن ينقض على عصاة الغلمان ولكنه  
رأى في تلك اللحظة أن أحد أولئك الصبيان التقط حجراً عن  
الأرض ورمى بها ذلك الشيخ فألقى الشيخ العصا من يده وشغل  
عن تهديد الصبيان بسحق الدم عن وجهه ، فان حجر الصبي أصاب  
جبهة ذلك الشيخ المنكود .

وقد حاول ذلك الشقي أن يلتقط حجراً آخر ولكنه قبل  
أن يفعل صاح صيحة ألم هائلة ، فان رولاند حمله بين يديه فهزه  
فوق رأسه وحاول أن يضرب به أقرب جدار إليه .

ولكنه توقف فجأة قبل أن يفعل وقال للغلام : أسرع يا  
بنني بالفرار وإذا تأخرت لحظة أتتلك . فنظر الغلام إلى رولاند  
وعلم من انقصاد عينيه أنه يقتله لا بحالة فأمعن بالفرار وكذلك  
بقية الغلمان . وعند ذلك دعا رجل من رولاند وقال :

— أملكك يا سيدي تعرف هذا المجنون ؟ فأجاب رولاند  
بصوت أبغ قائلاً : مجنون ؟ فدلته الرجل على الشيخ ، أي على

كانديانو حاكم فينيسيا السابق ، أي على والده . فكبر ذلك على  
رولاند حتى لم يعد يستطيع احتمالاه ومقط على الأرض  
مغمياً عليه .

\*

وعندما استفاق رولاند من إغمائه وفتح عينيه وجد أنهم قد  
نقلوه إلى منزل قريب وأنه جالس على كرسي . وقد رأى أمامه  
ذلك الرجل الذي كلمه وهو ينظر إليه منذهلاً وأباه الشيخ  
جالساً على كرسي وهو يتتسم ابتساماً لا يترجم عن معنى .

فقال الرجل لروولاند : إنني يا سيدي مدير هذه القرية ، ولما  
رأيت ما كان من عطفك على هذا الشيخ أدخلته إلى هذا المنزل .  
فنظر رولاند نظرة تقطع القلوب وأجاب المدير قائلاً : هل لك  
يا سيدي أن تدعني وإياه ؟ فأغضب المدير وخرج من الغرفة .  
وعند ذلك دعا رولاند من الشيخ وعاداه بصوت منخفض  
قائلاً : أبي !

فترجع الشيخ من مكانه كمن يحاول الإصغاء ولكنه لم  
يجب على النداء . فنادى رولاند إلى مناداته بلفظة أبي . فقال الشيخ :  
إن أولئك الصبيان أردوا القلوب فاني كلما خرجت لأستنشق  
الهواء ضربوني . فقال رولاند بصوت غشيق : أبي !

وقبض على يد الشيخ فقال الشيخ : وأسفاه ! إنه لم يبق  
عدل في الأرض قاتل عدل السماء ؟ قال : بل إن العدل موجود  
يا أبي فقد أتيت إليك .. أبي أصغ إلى ولدك . ألا تذكر ولدك

رولاند ؟ اني ابتك رولاند ... ألا يؤثر عليك هذا الاسم ؟

فكان الشيخ يصغي دون أن يبدو عليه شيء من عجاب  
الاندهال ولكنه أجاب رولاند فقال : ليس لي ولد ولم يكن لي  
قط بنون كما يعرف جميع الناس هنا . وفوق ذلك فإن الأولاد  
لا يحبوني بل يضربوني ويرمونني بالحجارة . فركع رولاند أمام  
أبيه وقال له : أبي ألم تعرفني من صوتي ؟

وقد قال هذا القول وهو يشق بالبكاء فقال له الشيخ :  
صوتك ؟ من أنت إذن ؟

— أنا ولدك ... ولدك رولاند ... أصغ يا أبي الى صوتي .

— لم يكن لي بنون ، أما أنت فأنتك حنون رقيق القلب  
وإني أباركك لأنك تسج وجهي وتعاملني فلا شك أنك من  
كرام الناس .

فقبض رولاند وطوق رأس أبيه وجعل يقبّل شعوره  
البيضاء ثم قص عليه جميع ما انتقم له وبسط له خيالة ليونور  
بزواجها وهو يرجو أن ينتج بهذه التذكارات فيعود إليه صوابه ،  
ولكن الشيخ بقي على ما كان عليه ولم يظهر عليه شيء من  
الاندهال حين كان يسمع شقيق رولاند بالكاء .

فسكت رولاند وقد هاجت براكين الحقد في صدره على  
أعدائه فلم تشعل الانتقام في تلك الساعة لمّا تشعل بغير صورته .  
ومضى على ذلك برهة وروولاند واقف يتأمل في وجه أبيه الذي  
اطمأن من خوفه فنام . وعند ذلك فتح رولاند الباب ولقي  
الدير فقال له : إني أحب أن أقم هذا الشيخ عندي فهل

تعارضني في ذلك ؟ قال : كلا ، فأنت دون شك ستثبت لي  
بالبرهان حقا بأخذه إليك .

— لا أستطيع أن أقدم برهانا على هذا الحق ولكن هذا  
الحق صريح لا يحتاج الى برهان .  
— ولكن ...

— كفى ! فقد تخلّستم عن هذا الشيخ ستة أعوام وتركتموه  
يعاني أشد أنواع العذاب فيضربه الصغار ويضعك عليه الكبار  
وحسبك أني سأذهب به دون أن أقاضيك عمدا لقيه .

— خذ يا سيدي فاني لا أعارضك فيه لاسيما وإنا لا نعرفه .  
— ولكن قل لي كيف كان يعيش خلال هذه الأعوام الستة  
التي قضاها بينكم ؟

— من المصدقة العامة .

— ماذا تعني بالمصدقة ؟

— إنه كان يطوف على الناس فهذا ينعم عليه بقطعة خبز  
وهذا يأذن له أن ينام عند بابه وهم جراً بحيث لم يتم ليلة جالعا  
فإن جميع أهل هذه القرية يحسنون الى الفقراء ...

فتنهد رولاند تنهداً طويلاً ثم ترك الدير وعاد الى أبيه فأخذ  
يده بين يديه وقال له ينتهي الرفق : أريد أن تذهب معي ؟  
فقال له الشيخ : أأذهب من هنا ؟

— نعم .

— ألا أسمع بعد ذلك الضحك والضحك والضحك ؟

— كلا !

— ألا أسمع لعنات الناس حين ألتبس منهم القوت ؟

— كلا !

— ألا يضربني الصغار وتتهشني الكلاب ؟

— كلا ، كلا !

— إذت أفسر بالذهاب .

— فوكا علي ولا تخش أن تبغني فإني قوي .

وعند ذلك خرج الاثنان وبرحا تلك الفرقة حتى إذا وصلا إلى حيث ينتظره سكاللا برينو أصعد أباه إلى جواده . وعند ذلك ترجل سكاللا برينو وقال : إركب جوادك يا مولاي وأنا أسير ماشياً . فجز رولاند وأمه بحيث فهم سكاللا برينو أن الإلحاح يحال فعاد إلى جواده .

أما رولاند فانه أخذ بزمام جواد أبيه وسار به في جنح الظلام يتبعه سكاللا برينو . وعندما وصل إلى تريفيز قال رولاند لسكاللا برينو بضع كلمات فانطلق بجواده إلى جهة مدينة ميستر . ودخل رولاند بأبيه إلى أحد الفنادق فاشترى له ملابس وأطعمه خير الطعام . وبعد الطعام نام كانديانو الشيخ نوما هادئا مطمئنا كما ينام الطفل وهو واثق من أن أمه يجانبه تحميه .

\*

مضى على ذلك ثلاثة أيام لم يفارق رولاند أباه لحظة في خلالها وكان لا يفتر عن محادثته فلا يجيبه أبوه إلا بكلمات مبهمه لا

علاقة لها بالحديث .

وفي الليلة الثالثة أقبل سكاللا برينو تصحبه جوانا فخرج رولاند من الفندق وطاف في المدينة باحثاً عن منزل فوجد منزلاً صغيراً تحيط به حديقة فاستأجره ثم عاد إلى الفندق فأتى بأبيه ويجوانا إليه وقال لجوانا : أتعرفين هذا الرجل ؟ قالت : كلا . قال : إنه أبي ! فقصت جوانا يديها وقالت :

— مولاي كانديانو حاكم فيليسيا !

— كلا يا جوانا ، بل هو كانديانو الأعمى المجنون المضطهد ! بل هو والد رولاند الحارب من آبار فيليسيا ! فاعلمي يا ابنتي أنني سأعبد إليك بأبي ، أي بذلك الرجل الذي لقي من العذاب ما لم يلقه سواه فدفعه اليأس إلى البلاء . وإنما أعود به إليك لأنني لا أتق بسواك فأثمنه على هذا الكنز الثمين عندي . واعلمي أنني مؤقنك به على حياتي فهل تعطيني بالحرص على راحته وهل أستطيع أن أسافر فترير البال !

قالت : إنني أقسم يتسلق المرأة المقدسة التي كانت تدعوني ينتها أنني سأجعل يعيش أهنأ عيش .

وأقام رولاند بقية هذه الليلة مع أبيه وعند الصباح ودع جوانا وامتطى جواده فسار مع سكاللا برينو في طريق تريفيز . حتى إذا بلغاها سارا في طريق مغاور بيافا ، فلما وصلا إلى قرية تريفيز استرقا الجبل وبدت على سكاللا برينو علامات القلق فقال له رولاند : أتعرف هذه الطريق ؟ فأجابه بصوت أجش قائلاً : نعم . قال : إلى أين تؤدي ؟ قال : إلى مغاور بيافا يا مولاي .

## مغاور بيافا

\*

وهنا ترجل رولاند عن جواده واقتدى به سكالا برينو فربط الجوادين الى شجرة وجلسا على صخر فوق سكالا برينو وجعل يشي من حين الى حين وعلائم القلق يادية عليه الى ان قال : ارى يا مولاي انه خير لنا أن نعود . قال : لماذا ؟ فإني أحب أن أرى مغاور بيافا . فارتعش سكالا برينو وقال : مغاور بيافا ؟

قال رولاند : نعم ، فقد طالما سمعت الناس يتحدثون عنها حتى أن ذلك الرجل الذي اشتريت منه الجوادين قال لي إنه يريد زيارتها لجمال مناظرها الطبيعية . قال سكالا برينو : لا أجزم بمخاطرها فقد كنت أرى مناظرها وحشية ولكن الذي أعلمه علم اليقين أنها شديدة الخطر .

— وأي خطر علينا ؟ أتخاف أن يسقط جوادانا في هوة مع أنها قويان ويظهر أنهما متعودان السير في الجبال ؟

— ليس هذا الذي أخشاه يا مولاي .

— إذن ما الذي تخشاه ؟ المصائب في ثكناتهم ومغاورهم وحصونهم ؟ فذهل سكالا برينو وقال : أنعم أنه يوجد مغاور وحصون ؟

— كلا ، ولكنني أقول لك ذلك على سبيل الظن !

— إذن فاعلم يا مولاي أنه يجب الخوف من هذه المغاور وغير لنا أن لا نتقدم كما قلت لك .

— يظهر أنك خائف .

— نعم يا مولاي ، ولكن خوفي عليك لا علي .

— قل لي ما الذي تخافه ، فقد تبين لي أنك عارف هذه الجهات حق المعرفة . فقال له بصوت منخفض : إني أخاف عليك يا مولاي من أصحابي القدماء .

— أوضح لي ما تقول .

فجعل سكالا برينو ينظر الى ما حوله وما بين الضخور فقال له رولاند :

— إني مصغ إليك . فقل دون عيب . قال : ليس خوفي مما سأقوله ومع ذلك فاسمع . إنك لا تجهل يا مولاي ما كنت عليه من قبل وتلك الليلة التي لقيتك فيها لأول مرة .

قال رولاند : نعم ، لقد كنت من اللصوص ولكن لما إذا تخفض نظرك استحياء فإن تلك المهنة التي كنت قتها أشرف من مهنة الدوج ورئيس ديوان التفتيش والكردينال . فاعلم أيها الرفيق أن اللص الحقيقي لا يوجد في مغاور بيافا بل في تلك القصور .

— لا أفهم مقامك فيما تقول يا مولاي ولكنني أعجب بك وأتأثر لكلامك وأحسب نفسي أني كنت قبل أن أعرفك من الوحوش الضارية .



- كلا بل إنك رجل اضطررت الى الصدام في معارك الحياة  
بالسلاح الذي لقيته وعزاؤك أنك لم تسرق غير النقود .

على أنه يوجد لصوص يسرقون مسا هو أغنى من الكدوز .  
فإني أعرف رجلاً سرقوا له خطيبته وكان يعد نفسه سعيداً لو  
استعاضوا عنها بسرقة كل ماله . وأعرف قوماً يقتلون الناس قتلاً  
أشد من قتل الخناجر والبنادق وهم يحولون شاغبي الآف  
ويحترمون الناس . فاعلم أنه لا يجب أن تخجل لماضيك فقد  
حاربته بسلاحك في معارك الحياة فقل لي هل قتلت ؟

- نعم لقد قتلت بعض جنود كانوا يطاردوني ويحصدونني .  
- أتحسب أن الأبطال في الحروب يفعلون غير ما فعلت ؟  
أنت أنت الذي اختلطت مرة اثني عشرة عدواً وأرجعتهم  
دون أن تسبهم يسوء ؟

- نعم ، فقد وجدت نفسي حقيراً ذليلاً إذ استعنت بقوتي  
على ضعف النساء لما لقيت مني غير الإكرام وما سلبتهن غير ما  
كان عليهن من الحلي .

فقال رولاند : أين أنتم يا بيو وفوسكاري وألتياري وما  
أجوبكم الى تلقى دروس الانسانية عن هذا اللص وأنتم  
كردينال ودوج وقائد ؟

فأطرق سكالا برينو مفكراً وجعل رولاند ينظر إليه  
مشفقاً ثم قال له برفق : أنتم سديتلك .

قال : لقد قلت لك يا مولاي إني كنت زعيم فرقة من  
اللصوص كانت منطقة نفوذها متصلة من تريفيز الى فينيسيا .

وكننا نغير أحياناً على فينيسيا ثارة بطريق البر وطوراً  
بطريق البحر . أما مركزنا العام فقد كان في هذه الجهات ، أي  
في مغاور بيافا .

- إذن لقد كنت قائد جيش حقيقي وكان لك اسطول  
وفرق من المشاة والفرسان .

- هو ذاك يا مولاي . فقد كانت عصائبنا تشبه جيشاً  
منظماً إذ يبلغ عددها نحو ألف رجل مسلحين أشداء لا يكثرزون  
الصعاب ولا تقف جرأتهم عند حد .

فاتقدت عينا رولاند يسارق ما لبث أن انطلق . ومضى  
سكالا برينو في حديثه فقال : أما أنا فلم أكن غير زعيم عصابة  
يبلغ عددها خمسين رجلاً .

- إذن لقد كان لكم رئيس عام يدير حركات العصابات ؟  
- كلا يا مولاي ، ولكن عصاباتنا كانت متفقة مؤتلفة

تتعاون وتقسم ما تغنمه بالعدل والقسط . وكان البعارة الذين  
ينقلوننا حظ من غنائنا . وعلى الجملة فقد كنا شبه عصابة  
واحدة .

- ألم تقل إن عصاباتك كانت تختبئ في مغاور بيافا ؟  
- لم أقل إنها كنا نخبئ فيها يا مولاي بل قلت إنها كانت

مركزنا العام نجتمع فيه للداولة والقسمة ، وما خلا ذلك فإن  
كل عصابة كانت تقيم في منطقة نفوذها وتتفرق في البلدان التابعة  
لها ، فكنت أنا أقيم في فينيسيا مع خمسة عشر رجلاً من  
عصائبي .

— إذا كان ذلك كما تقول فكيف تخاف علي من هذه المغاور؟  
— مولاي إن ذلك يضطربي إلى أن أروي لك رواية خاصة  
في ، ولكني أخشى أن يتولأ لك الملل .

— كلا ، بل إن حديثك يقبطني فامض فيه .

— إذن فاعلم أنه كان يوجد في عصائتي رجل كنا ندعوه  
ساندريجو لأنه ولد في تلك المدينة التي حينئذ باسمها . وكان هذا  
الرجل شجاعاً جسوراً يشبهني بالقوة ، فكانت حالتها على أتم  
الوداد . وإن يكن يبدد منه بعض الأعيان ما يدل على أنه كان  
يود لو تولى الزعامة مكانه .

وقد اتفق لنا يوماً حادثة غريبة حدثت منذ خمسة عشر عاماً  
أي قبل أن أسجن بقسعة أعوام . وذلك أنني كنت جالساً هنا .  
في نفس المكان الذي تجلس فيه أنت الآن ، وكنت أنتظر عودة  
ساندريجو لأنني كنت أرسلته في مهمة . وبعد قليل رأيته أقبل  
مع رجاله وبينهم امرأة في مقبيل الشباب لم تقع العيون على أجل  
منها ، وأعترف أنني دهشت لمجالسها مع أنني لم أكن أكثر  
لجمال النساء .

والغريب في أمر هذه المرأة أنها لم تكن جازعة وهي بين  
أيدي اللصوص بل إنها كانت تضحك . فسرتنا بالمرأة وخادميها  
إلى إحدى مغاورها وهي تبسم في حين أن الخادمين كادوا يموتون  
من الرعب . وهناك طلبت أن يتخاطب الرئيس . فقلت لها : أنا  
هو يا سيدتي فاطمني إذ لا تمسك بسوء .

فنهضت إلي نظرة غريبة وقالت : إنني غير خائفة وإنني

سأعطيك كل ما لدي من الثغائن بشرط أن تطلقوا سراحني  
اليوم فإنني مضطرة إلى سرعة الوصول إلى روما . فقلت : إننا  
سنطلق سراحك الآن إذا أردت .

— كلا ، فإنني تعبة وأحب أن أستريح ساعة .

وقد أثرت هذه المرأة تأثيراً عظيماً علي حتى تقيت أنت  
أطلق سراحها دون أن تسلبها ، غير أن نظرات رجالي إلى حليها  
ثلثتني عن هذا العزم فإنهم يشيرون علي دون شك إذا حرمتهم  
منها . ولا سيما وقد رأيت أنها هي نفسها غير مكترثة لهذه  
المجوهرات الثمينة لأنها كانت تنزع أساورها وخواتمها وتودعها  
وأقرأطها بيدها فتلقفها أمام قدمي وهي تضحك وتقول :  
خذ ... إلتقط هذه الثروة .

فدلت عند ذلك من ساندريجو وقلت له : خذ حصتي أيتها  
الصديق من هذه المجوهرات فإنني لا أمسها . فنهض ساندريجو رأسه  
وأشار إلى اللصوص أن يقتسموا الحلى بينهم ثم مشى إلي وبده  
على قبضة خنجره فقال : إنني لا أريد الحلى بل أريد المرأة .  
فقلت له : ما هذا العبث يا ساندريجو وأنت تعرف شرائعنا ؟  
قال : هو ذاك . غير أنني اليوم لا أمثل إلا لشرائعي .

فصعد الدم إلى رأسي وجرت خنجري ، فأسرع رجالنا إلى  
الداخلية بيننا ولكثهم أجعوا كلتهم على وجوب تعديل شرائعنا  
فيا يتعلق بالنساء . وعند ذلك أقبلت إلينا تلك المرأة وقالت لنا  
بلهجة الساخر : أرى أنه لا بد لي إلا أن أكون اليوم لواحد  
منكم .. حسناً فإني أرضى بذلك وسيقتخر من يتألفني حين

يعرف من أنا ولكنني أقترح شرطاً ...

فصاح الجميع قائلين : إننا نقبل شرطك مقدماً وقد أخذوا  
بجملتها الفائق وذهبوا لجرأتها النادرة .

فقالت المرأة : إن شرطي هو أن أتولى بنفسني اختيار رجل  
منكم . قالوا : نعم . قالت : وبعد ذلك أنطلقون سراحي ؟  
فأشار ساندريجو بإشارة دلت على أنه يرضى بهذا الشرط إذ  
كان يرجو أن يقع عليه اختيار هذه الحسناء . وكنت أنا أعتقد  
هذا الاعتقاد فتراجعت إلى الزوا وأغمدت خنجرى ...

وهنا توقف سكالايرينو عن الحديث ثم قال : ألم تضجر الحكايي  
يا سيدي ؟ فأجابه رولاند قائلاً : لقد قلت لك إن حديثك يلد  
لي ولا سباً هذه الحادثة فقد خيل لي بسببها أنني أقرأ حكاية  
ألف ليلة وليلة .

فضى سكالايرينو في حديثه فقال : أما تلك الحسناء فإنها  
أخذت تجيل نظرها بين الرجال فكنت أرى وجوههم تصفر  
إلى أن استقرت نظرها على ساندريجو فشعرت أن وجهي قد اصفر  
أيضاً . ولكنها مرت به ونظرت إلي فأخذت بيدي وقالت :  
— هذا هو الرجل الذي اخترته .

فشعرت عند ذلك باضطراب لم أشعر بمثه في حياتي . أما  
ساندريجو فإنه صاح ضحكة منكورة وخرج ساخطاً مغضباً من  
المسألة . وأما أنا فإني كنت أرتجف سروراً لهذه النعمة التي  
هبطت إلي من السماء فأخذت الحسناء وسرت بها وهي تضحك  
إلى مغاور بعيدة وقد أسندت عنقها إلى كتفي فلو عشت أجيالاً

لما نسيت هذه الساعة .

ولما خرجنا من المقبرة سألتها عن ابنها وقد قلت لها إنني  
أكون عيدها وإني أتبعها إلى آخر الأرض ، ففهمتها ضاحكة  
وقالت : لم تحدث لي في حياتي حادثة ألطف من هذه الحادثة .  
فدلت أن هذه المرأة عابثة بي ولم يكن لي حق عليها بعد أن  
وفت بعهدها فوقيت بعدي وأطلقت سراحي فسارت مع  
خادمتها إلى روما . فقال له رولاند : ألم تعرف اسم هذه المرأة  
فيا بعد ؟

— كلا .

— ألم ترها ؟

— لقيتها مرة في فينيسيا وغيل لي أبي عرفتها ... ولكن  
كلا ! فإن ذلك لا يمكن أن يكون .

— أقول إنك لقيتها في فينيسيا ؟

— نعم ، ولكنني قلت لك إنني كنت متخذاً إذ لا يمكن أن  
تكون هي . أما الآن وقد مضى ستة أعوام ...  
— ستة أعوام ... إذن هذه المرأة التي حسبت أنك عرفتها  
كانت ...

— كانت تلك الحظية التي أغرتني بالمال كي اختطفك . ولكنني  
أحسب نفسي غططاً .

فأطرق رولاند مفكراً ثم قال : حسناً ، إمض في حديثك .  
قال سكالايرينو : هذه هي حكايتي يا مولاي وإنما اضطرت  
إلى قصتها لأخبرك بأن ساندريجو قد حقق علي منذ ذلك اليوم

حقداً هائلاً وقد خشي مني لأنه يعلم أن قنودى عظيم بين رجال  
العصابة . ولكنه بعد القبض علي أصبح زعيم العصابة دون شك  
وهو يحكم في هذه الجهات كما كنت أحكم من قبل . فإذا لقيني  
وعرف مقدار خضوعي لك يتحول ذلك الحقد إليك فيقدم اليوم  
علي ما لم يحسر عليه من قبل .

— أكان ساندريجو في فينيسيا يوم الثورة ؟

— نعم يا مولاي ، وقد ذكرت أمراً لم يخطر لي غير الآن .

— ما هو ؟

— هو أنهم حين قبضوا على الجواسيس خيل لي أنني رأيت  
ساندريجو بينهم .

— إذن لقد انتقم منك ؟

— نعم ، ولكنها نذالة لم يرتكبها أحد من رجال عصابتنا  
وقد كنت أحسب أنهم قبضوا عليه فيا له من خائن مافل .

— وماذا تظن كانت دوره في هذه الرواية الهائلة التي  
مثلها ببو ؟

— لقد عادت إلي الآن تلك التذكريات كلها .

— ماذا ذكرت ؟

— ذكرت أنه حين جاني ببو الأسقف كان ساندريجو الذي  
أنقاني به . وقد اتضح لي الآن أن ساندريجو كان يأتمر بعلي وأنه  
كان يبيعني ويبيعك ببيع السلع .

— إذا كان ذلك فهل تشير علي بعد الآن بالرجوع ؟

— كلا ، كلا يا مولاي . فليمن بنا إلى المغاور إذ لم تعد تطيب

لي الحياة إلا ببقاء هذا السافل .

وعند ذلك سمعت صيحة بعيدة ثم تلتها صيحة ثانية فأمعن  
سكالا برينو وقال : إن هذا الصوت من المغارة السوداء .

— إذن هل بنا إليها .

— والجوادان ؟

— تجدهما هنا ، فدلتي على الطريق .

فمشى سكالا برينو ووثبه رولاند وسار الاثنان بين تلك  
الصخور فكثا كلما اقتربا يقترب الصوت منها . وبعد مسير  
خمس دقائق وقف سكالا برينو وأشار إلى رولاند أن يلزم  
الصمت ، ثم دنا من الأدغال فأزاحها وأوماً إلى رولاند أن يدنو  
ويرى ، فدنا قرأى باب مغارة مظلمة عرف أنها المغارة السوداء ،  
ورأى علي يمينها سلسلة صخور تنتهي بهاية وبين الهاوية والمغارة  
رأى رجلاً مربوطاً إلى شجرة وأمامه رجل آخر كان جالساً على  
صخر يسأله أسئلة لم تصل إلى مسمعه . ووراء هذا الرجل نحو  
اثنى عشر رجلاً وكلهم مدهججون بالسلاح .

فقال رأي رولاند الرجل المربوط ارتعش وكذلك سكالا برينو  
فإنه حين رأى الرجل الذي يسأله صم قبضته متوعداً . وذلك  
إن الرجل المربوط كان الشاعر الذي اشترى منه رولاند الجوادين  
في ميستر وذلك الرجل السائل كان ساندريجو .

وقد كان ساندريجو يقول للشاعر في تلك اللحظة :

— كفالك عناداً أيها السيد آريتان ، فإن حياء رجل شوي

مثلك تساوي أكثر من ثلاثة آلاف ريال .



فإن آريتان أينما مرعجا وقال :

— يا حضرة اللص من أين تريد أن آتيك بهذا المبلغ العظيم ؟  
فقال له ساندريجو :

— وأنا أقول لك يا حضرة الشاعر إنه يوجد هنا ورق وحرير  
وجميع أنواع أدوات الكتابة ولك الحبار بين أن تكتب بالنثر  
أو بالشعر .

— ماذا تريد أن أكتب ؟

— أريد أن تكتب إلى أحد أصحابك في فينيسيا تسأله هذا  
المبلغ ولك كثير من الأصدقاء من تلك المدينة فلا يتأخر أحد عن  
إرساله إليك . وعند ذلك يذهب أحد رجالي بكتابك إلى  
فينيسيا في يومين ويعود منها في يومين فيكون المجموع أربعة .  
ولنفرض أنه يقتضي أربعة أيام أيضا كي يستطيع أصحابك  
إحضار هذه القيمة فتكون الجملة ثمانية أيام .

قضاح الشاعر صيحة رعب وناس . ولكن ساندريجو لم يعبأ  
به واستمر على حسابه فقال : إننا الآن في الساعة التاسعة من  
مساء الخميس ، فإذا لم تده الثلاثة آلاف ريال في مثل هذه الساعة  
من الخميس القادم أتشرف عند ذلك يا حضرة الشاعر الشهير بأن  
أقتلك بيدي فإني لا أدع هذا الشرف لسواي من رجالي .

فقال آريتان بصوت غشيق : الوداع أيها الحياة الزاهرة فقد  
قضيت عليّ أرب أموت وبطني غدرات معان زلت عليها  
الحبال ... وقد هم أن يتدفع ولكن لسانه انعقد فجأة إذ رأى  
أن الأدغال الحاجزة بينه وبين الطريق قد فتحت وظهر له رولاند

الذي وثب من بينها ومشى إلى ساندريجو .

أما سكالا برينو فإنه اقتدى به وسار إلى وجهه القدماء  
فقال بصوت جهوري : إنكم تعملون هنا ما تشاؤون كأنكم لا  
تلتظرون عودتي ! قضاح جميع اللصوص منذهلين : سكالا  
برينو .. سكالا برينو !

أما ساندريجو فحين رأى رولاند أمامه نهض من مجلسه  
مصرعا وخنجره بيده وسأول أن يهجم عليه . ولكنه وقف  
وضاح صيحة ألم فإن رولاند انقض عليه وقبض على يديه بيديه  
القويتين فسقط خنجره من يده وشد رولاند عليه حتى اضطره  
إلى الركوع أمامه .

أما أولئك اللصوص الذين استقبلوا سكالا برينو بالفرح  
فإنهم التقوا عند ذلك حول رولاند وهم ينظرون إليه نظرات  
إعجاب .

فقال لهم سكالا برينو : دعوه يفعل به ما يشاء واعلموا أن  
كل من يتقدم منكم لأمره يكون مقرة هذه الحاقية . فراجع  
اللصوص ممثلين لسكالا برينو ولا نعلم إذا كان ذلك لميلهم إلى  
زعيمهم القديم أو لأنهم كانوا يكرهون ساندريجو وقد رأوه  
صريعا عند قدمي رجل غريب وهو يصبح من الألم .

وقد حدثت هذه الحادثة في زمن وجيز وكان لقوة رولاند  
تأثير عجيب عليهم ولا سيما حين رأوه غلب ساندريجو المهائل  
دون أن يبذل جهدا أو يبدو عليه شيء من علائم الحسدة فإنه  
كان يبتسم .

وأما رولاند فإنه بعد أن أكرمه ساندريجو على الركوع قبض على عنقه وجده إلى الحامية وهناك حمل بهد واحدة وأدلاه إلى تلك الحامية فكان إعجاب اللصوص بهذه القوة لا يوصف . وانقطع سكانا بريغو عن الاهتمام بهم لأنه كان خبيراً بأخلاقهم . وما زال رولاند على حاله مع ساندريجو إلى أن أكرمه على التماس العقوبة فرفعه وألقاه على الأرض ثم قال له : انتفض وفك قيود الأسير .

فنظر ساندريجو إلى رولاند نظرة دموية وقد خطر له أن يهجم عليه ولكنه شعر لغوره أنه مغلوب لا محالة وذهب ذليلاً إلى الأسير فجعل قيوده . فأسرع الشاعر إلى رولاند فأوقفه رولاند وقال له : إني أريد عادتك يا سيدي فتفضل بالدخول إلى هذه المغارة وانتظري فيها قليلاً .

قال : إني أنتظرك أياماً بل أعواماً أيها الرجل الكريم فإننا لسنا الآن في مغاور الجن بل في جنة المخلود . . .

وقد حاول آريتان أن يندفع بأوصافه غير أن رولاند أشار إليه بأن ينتظره في المغارة ، وعاد إلى اللصوص فقال لهم : لقد رأيتم ما فعلت وما أستطيع أن أفعل فمن يريد منكم أن أتولى زعامتكم ؟ فصاحوا جميعهم قائلين : كلنا . . . كلنا .

قال : إنكم تعيشون أشقى عيش ولا تقدمون إلا على صغار الأعمال ، فمن منكم يريد أن يقدم على الأعمال العظيمة ويكون اسمه خالداً في سجل الأبطال ؟ قالوا : كلنا .

فقال : حسناً ، فتفرقوا الآن وعودوا إلى موافاتي هنا عند

انتصاف الليل وأحضروا الغائبين منكم وأخبروهم أنه جاءكم رجل يريد أن يفتح لكم أبواب الثروة ويجعلكم من عظماء الرجال ! إذهبوا وعودوا عند انتصاف الليل .

وقد كان رولاند يتكلم بلهجة مروض الأسود حين يدخل أول مرة إلى قفص تلك الوحوش التي يريد ترويضها ، فصاح الجميع عافين له وانصرفوا دون أن ينظروا نظرة إلى ساندريجو لشدة إعجابهم برولاند .

وقد أراد ساندريجو أن يقتدي بهم وينصرف ولكن رولاند أشار بإشارة إلى سكانا بريغو فدنا منه وقال له : إبقى ، فإن الرئيس يريد أن يكلمك .

غير أن ساندريجو تبعه ضاحكاً وأسرع إلى الحرب فاندفع إلى الحامية فنزل إليها بطريق خطر فأدركه سكانا بريغو وهو يزيد من الفيط فراه نزل إلى تلك الحامية متمسكاً بجواربها البارزة فقال : لو كان لدي بندقية لما نجاني هذا الخائن .

أما رولاند فقد كان مطرق الرأس مسترسلاً إلى التفكير كأنه لم ير شيئاً مما كان ، وبعد هنيهة دخل إلى تلك المغارة التي كان آريتان الشاعر ينتظره فيها ، فلما رآه آريتان على نور المشعل صاح صيحة دهش وقبال : أأنت أنت الرجل الغريب الذي لقينته منذ بضعة أيام في ميستر وبعث جوادين ؟ قال : نعم ، أنا هو . قال الشاعر : لو تعلم يا سيدي ما أصابني ! ألا لعن الله تلك الساعة التي خطر لي فيها أن أزور هذه المغاور ، فقد نهب اللصوص أمتعتي وهرب جميع خدامي وكاد الخوف يقضي علي

إلى أن أثبت فأنقذني ...

فقاطعه رولاند قائلا: أحسب أنني سأطلق سراحك؟ فاصفر وجه الشاعر وقال: أليست هذه نيتك؟

— إن ذلك خاص بك وموقوف عليك .

— ماذا تريد أن أفعل يا سيدي؟ فإن آرثان معروف بحفظ الجميل .

— يجب أن تعلم قبل كل شيء أنك في قبضة يدي ، وأني أستطيع أن أردك إلى هؤلاء اللصوص الذين ملبتهم تروة بإنقاذك من بين أيديهم .

— إذن ماذا تريد مني ؟ قل يا سيدي وإني أقسم بشقة مرغزينا أنك تخيفني بكرمك فوق ما كان يخيفني ذلك اللص بإنذاره .

— إن الذي أريده هو أن أعقد محادثة معك ، فقد عرفت فيك صفات لا تدل عليها ظواهرك فهل أنا غطىء ؟ إن جفنيك المضطربين وقمك الذي يشبه ذم السرطان ورأسك الذي يشبه رأس الذئب كل ذلك يدل على أنك من أهل التثبث والاسترسال إلى الملاذ التي لا تستطيع أن تعيش إلا بها ، فإذا كنت يا بيار آرثان كما يتوهم الناس شاعرا تقتصر على نظم الأشعار وما تبرزه من جميل الأفكار ، فاذهب إلى حيث تشاء فإني أطلق سراحك في الحال . وإذا كنت ذلك الرجل الذي وصفته فأبقى ... والآن هل تريد أن تذهب أم تؤثر البقاء ؟

قال : بلى أبقى !

## بيار آرثان

\*

كان بيار آرثان من الشعراء المشهورين في ذلك العهد حتى لقد صنعوا له تماثلاً . وقد تناولته أقلام الكتاب المعاصرين فكان من الذين كتبوا عنه فيلاروت شامل الذي كتب عنه فصلاً مسهباً سنة ١٨٨٤ في «مجلة العالمين» ولكنه لم يأت به على حقيقة أوصافه لاختلاف المؤرخين في حقيقة هذا الشاعر . ولكننا سننته للفرار بما لم يتله سوانا من الكتاب علنا نعط الحجاب عما يحيط به من الألغاز .

ظهر وجه آرثان في المغارة السوداء على نور المشعل الذي أناره سكالابريشو فقتبتين للأنتظار أنه رجل عالي القامة أسود اللحية أنيق شديد العناية بلباسه وبلحيته على الأخص . وكانت هيئته يجملتها تدل على أنه جواب آفاق جسيور يعرف أن يعبت بالناس .

فكان سكالابريشو ينظر إليه وإلى رولاند ويوازن بين الاثنين فيرى رأس الشاعر يشبه رأس الذئب ورأس رولاند يشبه رأس الأسد وأن الفرق بين الرجلين بالأخلاق بعيد كبعدته

بين هذين الحيوانين .

وقد بدأ الشاعر الحديث فنظر إلى رولاند وقال : إنني أحترمك لأنك عرفت مني ما لم يعرفه أحد سواك ، وعلمت أن لي من الصفات غير صفة الشاعرية . فاسمح لي أن أقول لك أيضاً إنني حين رأيتك للمرة الأولى في مدينة ميستر رأيت فيك رجلاً شديد البأس ثابت الجنان ، غير أنني وثقت بك لفوري ثقة لا حد لها . والآن فأني أقول لك من أنا وماذا أريد أن أكون فاسمع .  
إنني هـيـي بن بـي ، أي أنني رجل مجهول النسب أدعى باسم القرية الصغيرة التي ولدت فيها . ولا ثروة لي ، إذ ليس لدي درهم يزيد عن حاجاتي . وليس لي أب يُعرف ، فقد يكون أبي من أمراء الكنيسة وقد يكون من صالحيك الناس . وكانت أمي من المومسات وقد ماتت في المستشفى بين كثيرات من أمثالها . أما أنا فقد امتنعت منها مختلفه حقيرة حتى أنني كنت في مصاف الخدم . نعم لقد كنت خادماً ولا تزال آثار الضرب بادية على ظهري .

هذا أنا يا سيدي فاسمع ما أريد أن أكون : إنني أشعر بأن نفسي العظيمة تمنع كل الوجود وأحس بضعيري يتوقد ذكاً في رأسي ، وأعتبر أن من الحيف والظلم أن أقف وقوف الخدم في تلك الوليمة الكبرى ، وليمة سعادة الحياة ، لأنني مجهول النسب . وأرى من الحرق والبلاهة أن يتقلد الأحكام والسيادة على الناس أولئك الذين يعدونهم نبلاء لأن آباءهم كانوا يلقبون بالقبائل النبيلة الموضوعة المتأفكة .

نعم إنني ليس لي لقب ولكني أريد نصبي من هذه الحياة . فإن الشمس تشرق على جميع الناس دون تفریق وأريد أن يكون نصبي عظيماً موافقاً لنفسي العظيمة . أريد أن أكون غنياً قوياً قادراً يهابني الأغنياء ويخافني النبلاء ويعاملني الملوك والأمراء معاملة الأكفاء . ولا أستطيع بلوغ هذه الأمنية إلا بسلاح واحد لا تأثير له بيد سواي ، وأما بيدي فهو السلاح القاتل ...

وعند ذلك أخذ قلماً عن المائدة ولم يسكه بأصابعه بل قبض عليه كما يقبضون على الخنجر وهزه بيده كما يهز الفارس الرمح وقال : هذا هو سلاحي . نعم هذا هو سلاحي ، وباطلاً سحقت به الكبراء والأغنياء ، وذلت به نفوس النبلاء وقتلت به نفقات هجائه كما يقتلون باسم أو الخنجر !

إنني أعد هذا القلم إلى الدواة فلا يلتقط حبراً بل حماً نفيعاً ركبت مواد من القند والموشايات واللثائم التي تطوف جميع أنحاء العالم فتقتضي على المذنبين به القضاء المبرم . وهذه هي فوقتي التي لا يستطيع أن يغلب عليها أحد .

إنني لا أبغض الناس ولكني أحب ذاتي حباً لا ينتهي عند حد ، فأني أريد السعادة المطلقة لهذا الحي الممتاز وهو أنا . وإنني أريد لنفسني كل هناء مادي لا أستطيع بلوغه إلا بالقوة . ثم إنني ليس لي أعداء ولا أعجب بأحد في العالمين إلا بنفسني ، فلذا أساء إليّ قدير أو أمير يكون أول مني أن أستخدمه في سبيل هوائي فإذا فزت بذلك بات من أصدقائي .



وإذا عرفني رجل بإحسانه يكون كل شيء أن أبحث إذا كان يستطيع يوماً أن ينقص صفاتي بهذا الإحسان ، فإذا كان ذلك بات عدواً لي . أي أنني أستجلب الأول بالتمليق وأتقي الثاني بالخذر وأنا متاهب في كل لحظة لتغيير الحاليتين .

هذا أنا يا سيدي وهذا الذي أريد أن أكونه فمن أنت ؟ فلم يجبه رولاند لقوره على سؤاله . وقال له : إنك تبحث بكتونات صدرك لرجل غريب وحادثه كما كنت تتناجي نفسك . وهذا خطأ لا ينطبق على خطتك وحذرك . فابتسم الشاعر وقال :

- إنني يا سيدي من أشد أهل الأرض كلاً حتى لقد بلغ من كسلي أنني لو أحاط بي الحدم ساعة الطعام ففتح أحدهم فمي ووضع غيره اللقمة فيه وحرك آخر فكنتي كي تضغ أسناني الطعام . ولو بحثت بحثاً فلسفياً لوافقتني على امتداح هذا الكسل قبا هو في تحديد الفلاسفة غير الامتناع عن كل عمل مشعب والراحة مطلب كل إنسان ، فمن استطاع أن لا يعمل فقد بلغ قمة المجد الإنساني .

ولكنني على فرط كسلي اضطررت إلى اختراع وسائل تسهل لي الكسل ، فاضطررت مكرهاً إلى العمل وأجهدت نفسي فيه جهداً غنياً عشرة أعوام .

والآن فقد وجدت هاتين الوسيطتين إذ ليس لي سواهما . أما الوسيلة الأولى فهي حفظ الأفعال والقوافي وجميع تعابير المدح والثناء والقدف والهجاء . وأما الثانية فهي معرفة دخائل القلوب

بالنظر إلى الوجوه فأكون في الأولى كاتباً وفي الثانية قارئاً . ولذلك وثقت بك وكشفت لك أسرارتي دون أن أعرفك لأنني قرأت دخائل نفسك .

- ماذا قرأت ؟

- قرأت الإخلاص البحث والوفاء المحض . على أنني وإمت كنت أعد الإخلاص ضعفاً فإن ثقي بك لا حدة لها ولا أخشى أن تحقرني لما سمعته من كلامي .

فقال له رولاند : لقد سمعت من كلامك ما دلّني على أن لديك كثيراً من الصفات التي تعينك على تنفيذ الخطة التي رسمتها لنفسك . ولكنني أنا أعرف مثلك دخائل القلوب وقد تبين لي أنه ينقصك صفة لا بد لك منها لتنفيذ مآربك .

- ما هي ؟

- الشجاعة .

فاصفر وجه آرثيان وقال : الشجاعة ؟ قال : نعم ، فإنك جبان وخوفك يحول دون تحقيق رجائك ، فإني من يريد أن يخرج عن أطوار الإنسانية يجب أن يكون متاهباً لاستقبال الموت وهو الكسل الأكبر .

- قد عرفت لأول وهلة موضع ضعفي . نعم إنني جبان ، وما ذلك إلا لإفراطي في حب الحياة وملذاتها حتى أن خاطر الموت وحده يقلق راحتي وقد بذلت كل ما يمكن بذله لأشفي نفسي من هذا الداء فذهب جهدي عبثاً وأيقنت أنني لا أبلغ مآربي ما زلت مريضاً بهذه العلة .

فوضع رولاند يده على كتفه وقال له : أنتقد أني شجاع ؟  
قال : بل أعتقد أن الشجاعة لو صورت لمثلت برسك وأنت  
تستقبل الموت كمن يحيد الراحة فيه . بل إنني توسمت فيك أنك  
تكره الحياة وأنها باتت ثقيلة عليك فأعجب كيف أنك لم تتخلص  
منها إلى الآن . فاصقر وجه رولاند وقال :

— إنك ما زلت على هذا الخوف وقد عرفت شجاعتي . أفلم  
يخطر لك مرة أن تلتصم بحياة أحد الشجعان ؟

— قل يا سيدي ما تعنيه ، فإنني لا أجسر على فهم ما تقول .  
— ذلك أنك ستذهب إلى فينيسيا فلا يطول مقامك فيها حتى  
يكثُر البغضون من حولك فلا تستطيع الخوفك أن تتمتع بهذا  
الهناء ، وتكثر هواجسك فتبتئ تحسب أن الطعام الذي يقدم  
لك مسموم ، وأن نساءك يترقن رقادك لحنقك ، وأن الخنادم  
الذي يأتيك بلباسك يراقب غفلة منك ليطمعك بخنجره ، فكيف  
تستطيع أن تكون سعيداً إذا لم تكن آمناً وكنت تخاف هذا  
الخوف ؟

— الحق يا سيدي أنك زدت رعبي وأنت قلت لي أقوالاً ما  
كنت أجسر أن أقولها للنفس .

— ولكنه لو وجد رجل يراقبك الليل والنهار ويحرص على  
حياتك ويؤمنك من خوفك ويجمعك تتمتع بكل ما تشتهي  
من الملاذ ...

فقاطعه آرثان وقد برقت عيناه بأشعة الفرح فقال : أواه  
يا سيدي ، إنك تفتح لي أبواب النعيم فهذا كل ما أتناه وأشتهيه ،

ولكن من لي بهذا الرجل ؟  
— هو أنا .

فوثب آرثان من موضعه وهو يكاد يطير سروراً وقال :  
إحذر يا سيدي أن تملكتني بهذا الرجاء ولا تكون صادقاً فيه .  
قال : ألم تقل إنك تقر دخائل القلوب ؟ فهل قرأت في وجهي  
ما يدل على أنني أقول ولا أقبل ؟

— نعم نعم ، إنك عظيم وإنني معتمد عليك .

— إذن إطمئن منذ الآن ولا تخش أحداً في الأرض . إذهب  
إلى فينيسيا فمش فيها كما تشاء واعلم أنني ساهر عليك وعلى  
مزيلك لا فرق بين أن أكون حاضراً أو غائباً وبين أن تراني أو  
لا تراني فإنني أكون بقريك وسيكون أعداؤك أعدائي .

— ولكن ماذا تسألني مقابل ذلك ؟ فإنني لا أجد جزاء  
يفي بهذه الحماية ، وإنني أكافئ ملك فرنسا بقصيدة وأجازي  
الأمبراطور بموشع فيحسان أنني كافأتها خير مكافأة . وأما  
أنت ... أنت يا سيدي فإنني أشعر بأنك أعظم من الملك وأرفع  
من الأمبراطور فبماذا أجازيك ؟

— إنني لا أسألك عن هذه الحماية التي ستعيش بها أسعد إنسان  
غير أن تصادق أربعة رجال . ولكن يجب أن تصادقهم بمصادقة  
شديدة لا يرايون فيها قبحهم على أن يشقوا بك مسلماً للثقة  
فتكون نديمهم وصفيهم ومنودع أسرارهم فلا يكتفونك سرّاً  
ما خفي وظهر من أمورهم .

— إنني أفكر بمصير هؤلاء الرجال الأربعة فيتولاني الرعب .

— أوصى بما أقترحت عليه ؟

قال : أَرْضَى . ثم نهض وقال : والآث قبل لي أسماء هؤلاء الأربعة . قال رولاند : أولهم دندولو رئيس مجلس التفقيش . واصلت حين ذكر هذا الاسم . فقال الشاعر : حسنا ، والثاني ؟

— الكروينال بمبو .

— والثالث ؟

— القائد ألتاري .

— والرابع ؟

— فوسكاربي دوج فينيسيا .

### رئيس مجلس التفقيش

\*

لقد تركنا رولاند في الفصل السابق في مغاور بيافا وقد عقد تحالفا مع الشاعر آريتان ما كما أن رولاند يحمي الشاعر من أعدائه وأن الشاعر يسافر إلى فينيسيا فيعقد صلات الصداقة المتينة مع أعداء رولاند الأربعة وهم فوسكاربي حاكم فينيسيا وألتاري القائد العام ودندولو رئيس مجلس التفقيش وبمبو

كروينال وأسقف فينيسيا بنعمة الله ...

فتعهد الشاعر أن يستطلع أسرار هؤلاء الأربعة ، وأقام رولاند في ذلك المغاور ينتظر اجتماع اللصوص الذين عاهدهم على الالتقي عند اتصاف الليل .

والآن فلنعد إلى فينيسيا حيث نعود إلى سياق الحديث منذ تلك الليلة التي هارت فيها العواصف الهائلة فأصاب فينيسيا بما لم تُصَبَّ به منذ زمان ، وهي تلك الليلة التي لبس فيها رولاند الكيس الأسود وأقام في سجن سكالا برينو ينتظر قدوم الجلاد ليسير به إلى موقف الإعدام .

وقد غرق في تلك الليلة ثلاث سفن من أسطول الحكومة في مرفأ ليندو وتحطم نحو مائتي قارب وأصاب الصاعقة جسر التهنيدات فامتدت النار إلى مرابي الدوج وانقضت ضوايق كثيرة على أمكنة مختلفة منها قصر جميل مبني على شاطئ الفرعة الكبرى وهو قصر دندولو ، فان والد ليونور لما تقلد منصب رئاسة ديوان التفقيش وزوج بنته ألتاري القائد العام ، بنى هذا القصر الجميل على شاطئ الفرعة فكان يستقبل نبلاء فينيسيا مرة كل شهر في قاعاته الرخبية .

وفي تلك الليلة التي غصبت فيها السماء على الأرض كان خدم دندولو قد صعدوا إلى غرف رقادهم ولم يبقَ غير دندولو وحده ساهراً فكان يسير ذهاباً وإياباً في غرفة متسعة تشرف على الفرعة الكبرى وقد اشتد اضطرابه حتى أنه لم ينبَ لحظة وبقي يسير في غرفته إلى الصباح فإذا سمع صوت انقضاء الصاعقة وهزيم

الزعود وقف فوضع يده على جبينه وقال :

أيها الصواعق انقضي ويا رياح اعصفي فإنك مهما بَلَغَ من شدتك لا تعادلين البراكين التي تتور في نفسي .

ثم يعود إلى السير بخطوات غير موزونة فينسي تلك العواصف الشائرة كأنها السجاء في سكون .

وفيما هو على ذلك أيرقت السماء برقاً خاطفاً ودوى الرعد دويًا قاصفاً اهتزت له الغرفة التي كان فيها حتى خيل له أن الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، وسمع صوت تهدم جدار فعلم أن الصاعقة قد انقضت على جانب من قصره . . . فقال : ما كان أحرق هذه الصاعقة أن تنقض على رأسي فاستريح . وعند ذلك جلس على كرسي راحي القوة وهو يحدث نفسه فيقول :

هكذا ليلة أبليت فيها أيضاً من غير رقاد فأسير في غرفتي سير المجانين وأحاول أن لا أسمع ذلك الصوت الذي يقرع نفسي فلا أستطيع لأن ذلك الصوت أشد من صوت الصاعقة فهو أين صادر من السجن الرهيب ! هو أين ذلك المنكود . . . إني حين أذهب إلى سراي اللدوج أشاف أن أدخل تلك القاعة التي رأيته فيها آخر مرة ، وإذا ركبت قاربي خشيت أن يمر بي من تحت جسر التنهدات . . .

ثم وقف وقد جعل وجهه يتضح بالعمق فقال : لقد مضت ستة أعوام وهذا المنكود يتعذب في آبار السجن وما ذنبه إلا أن ابنة رجل طماع أحبته وهي ابنتي .

ثم نظر إلى ما حوالبه وقال : أية فائدة لي من هذه الرياض

الفاخرة ؟ بل أية فائدة لي من تشييد قصر أجدادي وأنا فيه الآن أشقى مما كنت في بيتي القديم في جزيرة أوليفو ؟ أولئك أجدادي الذين سفكوا دماءهم في سبيل أوطانهم ونالوا أرقع منزلة بين قومي فلم يحدث في تاريخ أسرهم غير زلّة واحدة وأنا مرتكب هذه الزلّة .

ويح للنفسى مما جئيت به على هذا المنكود وعلى ابنتي ، فلو خامرها الشك في يوماً وجاءتني فصرخت بي تقول :

— أيها الجبان ، لقد عرفت الحقيقة ، فإن رولاند لم يبرح فينيسيا بل إنه يموت في آبار السجن . . .

إنها إذا قالت لي هذا القول لماذا أجيب ؟

وكان الصباح قد أشرق ، وصحا الخدم وتنهضوا إلى أعمالهم في القصر ، ففتح دذلولو الباب المطل على البحر وخرج إليه وهو يكاد يحترق مما أصابه من تقرير الضمير فرأى سراي اللدوج تحترق من الصاعقة فلم يكترث لها وقال : لتحرق فينيسيا بأسرها فإن النار المشتبهة في قلبي أشد سعيراً من نار الصاعقة .

وقد نظر عند ذلك إلى جهة البحر فلم تكن غير هنيئة حتى اصفر وجهه وفتحت شفاهه وحفظت عيناه فإنه رأى رأسي رجلين من تحت الأمواج ثم رأى أن هذين الرجلين قد صعدا إلى قارب وأمعنا بالفرار غير مكترئين للعواصف الشائرة فصاح صيحة رعب وأعشى عليه .

فلما صعدا من إغاليته وجد نفسه في سريره وقد أحاط به

\*



الخدم فنهض لقوره وقال لهم : لا تفلخوا عليّ فقد أصبت يدواري  
يسيطر فدعوني وحدي . فامتثل الخدم . وقام دندولو إلى إحدى  
الموائد فجلس قريبا وأسند رأسه إلى يديه وجعل يتمم مردداً  
هذا القول :

— رياه ماذا أعمل ؟ بل هو ماذا يعمل ؟

ذلك أنه رأى الرجلين الهارين وغرف أن أحدهما رولاند ،  
فإذا لم يعد إلى سجنه كان دندولو من المالكين .

وعند ذلك دخل إليه خادم فقال : مولاي ، إن القائد العام  
يريد مقابلتك في شأن خطير . فأمره بإدخاله . وبعد هنيهة  
دخل إليه ألتباري فقال له :

— إني أتيت نبأ عظيم أرويه دون مقدمات وهو أن رولاند  
كاندبانو قد هرب من السجن .

فتظاهر دندولو بدهشة عظيمة . وقال : هرب من السجن ؟  
لقد أضعت رشدي دون شك إذ لا يمكن الفرار من سجون  
فينسيا . قال : ولكنه هرب فقد كان اليوم موعد إعدام اللص  
سكالا برينو قهرّب وإياه كما يظهر . وقد ثبت بعد البحث أن  
رولاند نخب في جدار السجن وقطع منفذاً إلى سجن سكالا برينو  
فالتقيا دون شك . ولما وصلا باللص إلى جسر التهديدات عرف  
رئيس الحراس أن هذا الرجل الذي كانوا يسرون به إلى ساحة  
الإعدام لم يكن سكالا برينو ولا ريب أنه كان رولاند .

— إن ذلك لا يحتمل التصديق !

— ولكنه حدث ، وقد حدث عند ذلك أمر هائل ، فانه

بينما كان الحراس منهذهلين من تأثير الصاعقة ظهر اللص سكالا  
برينو وهو يحمل حجراً لا يستطيع أربعة رجال حمله ، فاشتتم  
فرصة ذهول الحراس فضربهم ضربة هائلة زادتهم رعباً على رعب ،  
ثم أخذ الحجر أيضاً وضرب به حديد النافذة المشرفة على البحر  
فتحطم ، وعند ذلك ألقى الاثنان بتسميها إلى البحر ونجا  
رولاند .

— نجا رولاند ؟

— نعم إنه نجا ، وقد أمرت إليك حين تلقيت هذا الخبر  
لأنك ، وأنت ، والد ليونفور ورئيس ديوان التفتيش ورئيس  
بوليسنا الأكبر ، ماذا عزمتم أن تفعل ؟

فارتعش دندولو لأنه لم يكن في تلك الساعة بناجي نفسه بل  
كان محادث رجلاً بشأن رولاند ، وأي رجل ! إنه زوج ليونفور  
خطيبة رولاند ! فقال بلهجة المضطرب : ماذا أعمل ؟ قال :  
أرى أنك متردد في الأمر !

قال دندولو : كلا ، ولكنني اضطريت لهذا الخبر الغريب  
الذي لو لم أعلم منك لمصادقته . فقال ألتباري : نعم إنه  
خبر غريب شديد الخطر وذلك يفيدني في أن لا أشفق على أحد  
بعد الآن ، فقد كان يجب أن نقتل عينه كما فعلنا بابايه أما  
الآن فإن القضية قد حدثت وبقي علينا أن نتلافاهما وذلك بموط  
بك ، فأرسل جوايسك وبوليسك يبحثون في جميع منازل  
فينسيا دون استثناء ، وأقول ميناء ليدوكي لا يستطيع الخروج  
منها ، وعين الرقباء لمراقبة السفن التي تتوغل في الترع ، وخذ

كل ما ينبغي اتخاذه من وسائل الاحتياط لأنه إذا تمكن من الفرار فارت حرب هائلة بيننا وبينه فأسرع ما استطعت .  
قال : اطمئن ، فلن يمضي يومان حتى يعود إلى تلك الآثار التي كان فيها .

وعند ذلك انصرف ألتباري فبقي دندولو وحده فحمل رأسه بين يديه وقال : رياء ، لا بد لي من القبض عليه ولا مندوحة عن ارتكاب هذه الجناية الجديدة ، وأنا الذي يجب علي أن أقبض على رولاند !

وقد بقي على هذه الحالة نحو ساعة تتنازع الأفكار وتتخاطف نفسه المواصف المؤلة إلى أن تمكن من تسكين اضطرابه قدخل إلى غرفة أعماله وأمر سكرتيره أن يرسل من يدعو إليه رئيس البوليس . فقال له السكرتير : إنه هنا يا سيدي . قال : إذن أدخله إلي .

ودخل رئيس البوليس فقال له دندولو : أعلم ماذا حدث ؟ قال : نعم يا سيدي ، فإن اثنين من المسجونين قد هربا ، وقد علمت أن أحدهما كان مقضيا عليه أن يعدم اليوم فأسرعته إليك لتلقني أوامرك . قال : أخبرني بما علمت من تفاصيل هذا الفرار .  
وبمنا كان رئيس البوليس يروي هذه التفاصيل كان دندولو يقول في نفسه : ويلاه ، لا بد لي من القبض عليه . ولكنه قد يكون لجأ وبرح فينيسيا .

ولما سكث رئيس البوليس قال له دندولو : أتم حديثك . قال : لم يبق علي إلا أن ألقني أوامرك . قال : أوامري ؟ قال :

نعم يا سيدي إلا إذا أمرت أن تطلق يدي في العمل .  
قال دندولو : إنني أطلق يدك بشرط أن تخبرني كل ساعة عما فعلت ، فإن الأمر خطير وهذا الرجلان شديدا الخطر وأنت تعرفها فجا أظن . قال رئيس البوليس : إن أحدهما هو اللص الشهير الذي قبضنا عليه منذ ستة أعوام .

— والآخر ؟

— إنه رولاند كانديانو .

— إذئت اذهب ولا تنس أن تسرع إلى إخباري بكل ما تعلمه .

فانصرف رئيس البوليس وهو يعتقد أنه ظفر بكل ما يتمناه وأن أبواب الثروة قد فتحت له .

\*

كانت الأيام الثلاثة الأولى هائلة على دندولو فإنه لم تكن تقضي به ساعة حتى يأتيه جاسوس بنقري شفاهي أو كشافي وقد جعل هؤلاء الجواسيس يتسابقون في وضع التقارير طمعا بما يرجون نيله من رضى الرئيس عنهم .

وكان دندولو كلما جاءه جاسوس يسيل العرق البارد من جبينه فقد كبر عليه أن يكون الساعي في القبض على رولاند حتى أنه لو تمكن هو في تلك الأيام الثلاثة الأولى لأخرجه بيده من فينيسيا .

على أن رجال البوليس بحثوا أدق الأبحاث فلم يعثروا على

الهاربين الى أن أجمع الرأي العام على أنها غرقنا وأن جثثها أصبحت طعاماً للأسماك. وقد شاركهم التباري نفسه بهذا الرأي في البدء .

وفي إحدى الليالي كان دندولو ساهراً أرقاً كما كان يتفق له ذلك منذ بضعة أعوام ، فإن إشاعة موت رولاند قد أراحت باله وأعادته اليه شيئاً من السكينة ، فالذي كان يخافه إنما هو تفريق ضميره على ما كان يلقاه رولاند في سجنه من العذاب . فلما وثق من موته استراح ضميره لاعتقاده أن العذاب قد انتهى بالموت . وجعل يعزي نفسه عن إسماعه بقوله إنه ليس هو الذي جنى عليه بل إنه تركهم يحنون وهو غير قادر على صدقهم . فاستراح بعد ذلك وكان كل ما أتاه جاسوس بتقرير عن غرق رولاند بشرق وجهه بتور البشر .

ففي تلك الليلة دخل خادمه وأخبره بقدم جاسوس فأمر بإدخاله فلما دخل هذا الجاسوس بإدركه بقوله : مولاي ، إني وقفت على أثر سكالابرينو ورولاند كاندبانو .

فاضراً وجه دندولو وقال له بصوت أجش : أخبرني بما علمت . قال : ولكني قبل أن أخبر مولاي بما علمت ألتبس منه أن يذكر بأني فعلت ما لم يستطع فعله بوليس فينيسيا .

قال : سأذكر هذا ، فقل ما علمت وكيف وقفت على أثرها ؟ قال : إن الأمر بسيط يا مولاي ، وهو أفي ذكرت أنت سكالابرينو كان يتردد قبل سجنه إلى فتاة ربما كانت خليلته وهي تدعى جوانا فذهبت إلى منزل تلك الفتاة واستأجرت غرفة

عازية لفرقتها فتقبت في جدارها ثقباً رأيت منه ومجعت . - ماذا رأيت ومجعت ؟

- رأيت سكالابرينو ومجعت يتحدث مع الفتاة وذلك أمر لا ريب فيه .

- والآخر ؟

- لم أره يا مولاي ، فإنه كان مسافراً ولكني علمت مما مجعت من الحديث أنه سيعود قريباً . وعلى ذلك فإن القبض عليها بات سهلاً ميسوراً فإننا نقبض على سكالابرينو وعلى الفتاة ونقيم الجنود متتكرين في ذلك المنزل فمتى عاد رولاند يقبضون عليه .

فدعر دندولو ذعراً عظيماً وقال : نعم ، إن ذلك سهل كما تقول .

فقال الجاسوس : هو ذاك يا مولاي ، ولكن مهما يكن من سهولته فأتا الذي اهتديت اليه دون سواي .

- نعم ، فإني سأذكر ذلك ولا أنساه ورجائي أن تكون أخبرت رئيسك وأن يكون قد طوق منزل هذه الفتاة . فالجنى الجاسوس وقال :

- مولاي ، إن رجلاً فقيراً مثلي قد يقضي العمر دون أن تتفق له مثل هذه الفرصة في خدمة الحكومة ، فلو أخبرت رئيسي بما فعلت لكان له الفضل دوني ولكان قتلي كي يخفي أمري ويستأثر وحده بهذا الفضل . فسمح دندولو عرق جبينه وقال : إذن لم تخبر رئيس البوليس ؟

- كلا !

- ولا أحداً من رفاقك ؟

- كلا !

- أنت وحدك العارف بهذا السر دون سواك ؟

- نعم يا مولاي فلا يعرفه إلا أنا وأنت .

قنض دندولو وجعل يسير في غرفته بخطوات غير متوازنة تدل على شدة اضطرابه ثم وقف أمام الجاسوس وقال له : هلم وأرشدني إلى هذا المنزل .

وعند ذلك خرج دندولو من المنزل يتبعه الجاسوس حتى وصلا إلى الشاطيء فركبا قارباً وأمر دندولو الجاسوس أن يحذف ، فامتلل الجاسوس للأمر حتى إذا توغلا قليلاً أمره أن يسير إلى جهة ليدو . فقال له الجاسوس : ولكن المنزل ليس في هذه الجهة يا سيدي ؟

- لا ياس ، فإني أريد أن أتقعد هذه الجهة .

فامتلل وسار حتى بلغ إلى ميناء ليدو فقال له : لقد وصلنا .

قال : توغّل أيضاً .

فاخترق الجاسوس بقرابه تلك الميناء الغاصة بالسفن والقوارب ومما زال يسير حتى توارى عن الأنظار . وعندئذ أمره دندولو بالوقوف وقال له : تعال واجلس بجانبك يا فأكبر الجاسوس هذه المرة وقال : أنا أجلس بجانبك يا مولاي ؟ قال : امثل لما أمرتك به .

فلم يسمع الجاسوس غير الإمتثال ، فقال له دندولو بصوت

منخفض : أعد عليّ ما قلته فهل أنت واثق كل الثقة بأنه ليس أحد سواك يعلم أين هو رولاند كانديانو ؟ فقال : كل الثقة يا مولاي .

- ألم يتبعك أحد حين كنت تبحث ؟

- إن مهنتي تقضي عليّ أن أتبع الناس وأنا أعلم كيف أسير متى أردت أن لا يتبعني أحد .

- حسناً فأخض إلى الآن ... ماذا تقول إذا اقترحت عليك أن تنسى كل النسيان أنك رأيت رولاند ؟

فدهش الجاسوس واعتقد لفوره أنه وقف على سر عظيم وأن هذا يفيد رئيس ديوان التفتيش فائدة كبرى وأنه سيغتنم غمماً عظيماً فقال له : ماذا تريد بذلك يا مولاي ؟ فابتسم دندولو ابتسام هياج وقال : أريد أن تنسى أنك رأيت سكالا برينو وأنتك تعرف المنزل الذي سيأتي إليه رولاند .

- كيف ذلك يا مولاي ؟ ألم تقل لي إنك أنت نفسك تريد أن ترى هذا المنزل ؟

أجبني أيها الأبلة ولا تسأل . أتوافق على ما أقترحه عليك ؟ فأجاب الجاسوس بجرأة قائلاً :

ماذا يكون جزائي إذا قبلت ؟ قال : إن سؤالك معقول فاعلم إذن أنك تبرح فينيسيا فتذهب إلى روما ولي تفوز كبير في تلك العاصمة فتجد فيها بواسطي منصباً أرفع من منصبك الحاضر ثم أنقذك خمسين ديناراً ساعة رحيلك غداً .

قال : إني يا مولاي لا أريد أن أبرح فينيسيا على الإطلاق



مها أغطيني ، وفوق ذلك فإن ما تسألني إياه خطير يقتضي الإمعان والتفكير . فقال دندولو : متى تستطيع مجاويتي ؟ فقال الجاسوس في نفسه : لقد بلغت منه ما أريد كما يظهر ، ثم قال له :

— أما لك يا مولاي أن تهلني إلى القد ومسا هي بهلة طويلة في جنب فوائد هذه المهمة .

فابتسم دندولو وقال : ليست هذه المهلة قليلة فقط بل إنها غير كافية فافتكر أها الشقي إلى الأبد . وعند ذلك جرد خنجره وانقض عليه فأخذه في صدره فسقط الجاسوس صريعا دون أن يصيح .

أما دندولو فإنه جعل يثمن في وجه هذا الرجل الذي قتله على ضوء القمر ثم نظر إلى ما حواله كي يستوثق أنه لم يره أحد ثم ألقى جثة القتيل إلى المياه وعاد يقاربه .

فلما دخل قصره وخلا بنفسه تنفس الصعداء وقال : لقد خدمت رولاند الآن خدمة تخفف جرمي الماضية . أما وقد اطمأنت إلى رولاند فقد بت أستطيع الرقاد .

## الحزن الدائم

\*

كان قصر ألتباري على مسافة مائتي خطوة من قصر دندولو وفي نفس الشارع . وكان بين هذين القصرين قصر أمباريا بحيث أن هذه المحطية كانت إذا وقعت في شرفة قصرها ونظرت إلى الشمال ترى ما يجري في قصر دندولو ، وإذا نظرت إلى اليمين ترى ما يحدث في قصر ألتباري ، أي ما يحدث عند ليونور .

فلما جاء ألتباري في صباح يوم الصاعقة لإخبار دندولو بفرار رولاند لم يكن لديه غير بضع خطوات اللبوغ إلى قصره ، ذلك القصر الفخم الذي كانت قاعاته غاصة بالقواد وكان عشرون جنديا يحرسون أبوابه في الليل والنهار . وذلك لأن منصبه في فينيسيا كان أرفع المناصب ولم يكن نفوذه أقل من نفوذ الدوج نفسه . فإن للمعادة قضي بأن يكون الدوج رئيس الجيش الأكبر . غير أنهم حين ضربوا كاذبانو تلك الضربة الكبرى اتفقوا على اقتسام السلطة ، فتولى فوسكاري السلطة السياسية واستقل ألتباري بالسلطة العسكرية . ولكن فوسكاري كان يراقبه مراقبة دائمة لاعتقاده أن القوة العسكرية يجب أن تكون آلة

تتفقد أغراض السبابة .

وفي مثل هذه البلاد التي تقتل فيها إرادة الشعب لا بد من اتفاق مائتين القوتين . فهل كان فوسكاري وألتيساري متفقين هذا الاتفاق ؟ ذلك ما سنظوره في ختام هذه الرواية دون شك .

\*

ولنعد الآن إلى ليونور ، فإنها بعد زواجها بألتيساري ، أي بعد عامين ، كانت تقيم في جناح من ذلك القصر الفخم . فكيف تقفل أبوابه على الدوام وتعيش فيه مع نساها عيش العزلة . فلما عاد ألتيساري من عند أبيها أرسل إليها يخبرها بأنه قد قدم إليها ، فاستقبلته دون أن تطلق سراح خادمتين كانتا عندها . ولكن ألتيساري صرفها بإشارة ، فخلت الزوجان وجلس كل منهما على كرسي .

وكان ألتيساري قد اضطرب اضطراباً عظيماً لفرار رولاند . ورأت ليونور ما كان من اضطرابه حين دخوله فتوقعت حدوث خصام جديد ، وصيرت ساكنة حسب عاداتها فإنها لم تكن تكلم إلا حين تضطر إلى إجابته على سؤال .

وكذلك ألتيساري فإنه سكت إذ لم يكن يجد ما يقوله فإنه إنما جاء إليها وهو يخشى أن لا يجدها في المنزل بعد فرار رولاند ، لاعتقاده الراسخ أنها تهواه . أما وقد وجدها في القصر فلم يعد يعلم ما يقول . غير أن فرار رولاند هاج غضبه على ليونور فابتسم ابتسامة غريبة وقال : أرى أنك لا تزالين تعملين في خدمة المنزل

كأنه لا يوجد فيه خدم . وكأنك تريد أن تكوني قدوة النساء . وإنما يجعل هذا القول مقدمة للخصام ، فلما رآها لم تحبها قال لها : نعم ، إن أباك لم يعطني زوجة بل أنعم علي بمبرة منزل . فأصفي لي يا ليونور : إن هذا العيش يتعبني . قالت : بماذا تؤنبتني ؟ فليس بين أهل فينيسيا من يعرف شيئاً عن حقيقة أحوالنا .

— لقد أصبت ، فلا يحق أن أتألم إذا كان ألمي لا يعرفه أحد .

— إنني أحضر جميع الحفلات التي تحبها في قصرك ولي عتابة خاصة بداخلتك ، وأذهب أكثر الأحيان معك إلى الحفلات كي لا يعلم أحد شيئاً من اتفاقنا . فإني حين عقد بيننا عقد الزواج كان أول ما اشترطته عليك أن لا أكون امرأتك إلا بالاسم فقط ، وقلت لك : أرفض بهذا الشرط وتنتع عن اضطهاد أبي ، فرضيت . والذي أراه هو أنه كان يجب عليك في ذلك اليوم ، حين كان كلانا حراً ، أن تقترح علي ما تشاء من الشروط ، ولكنك أقسمت يومئذ أن تحترق جسدي ونفسي ، وأقسمت أنا أيضاً أنني لا أدعك تشكومي مني ، وقد وقيت بقسمي فبماذا تؤنبتني ؟

قل بما تشكو ، فإني أعبر نوع معيشتي على ما تريد ولا أدع للشكوى أقل مجال . فإنك تذكر أنك شكوت مرة أنني لا أصبحك في زهاتك فتزهد وإياك في قاربك في ذلك اليوم ، وقد خطر لك أن تسير في تحت جسر التهنيدات فامتثلت لك ولم

أقل لك إن ذلك الأنين الذي سمعناه كان يقطع قلبي ، وما سألتني يوماً أن أصحبك إلا وجدتني مستعدة للاشتغال ، فماذا تريد اليوم ؟ فاصبر وجه ألتباري واتقذت عيناه وقال بصوت أجش : أريد أن تكوني امرأتي . قالت : صكفي يا سيدي ، فأنك تعلم يقيناً ما فطرت عليه أسرة تدولو من البسالة وصعوبة العزبة ... إني أرى في خطئك ما يدل على الإنذار وهو خير من احترامك الكاذب للنبيين التي أقسمتها ... إن إحدى بنات دندولو أنقذت يوماً الجمهورية بقتلها ذلك القائد الذي كان زاسحاً إلى سراي الدوج . وما فعلته ابنة دندولو لحرية الجمهورية ففعله قريبتها لحرية نفسها .

— تريدن بذلك أنك تقتلينني إذا لجأت إلى العنف ؟

— دون تردد .

— وإذا حاولت التشكيل بأبيك .

— أدعك تفعل فقد ضحيت في سبيل أبي آخر ما يمكن أن أصحبه ، فافعل به ما تشاء فإنه لم يعد أبي منذ ذلك اليوم الذي أراذ فيه أن زوجتي بك وهو يعلم أن هذا الزواج يقضي عليّ بالحزن الدائم .

فارتعش ألتباري لغضبه ولعجزه ، فقد ثقلت له ليونور مثل عذارى العهد القديم اللواتي يثدثن نفوسهن لقيستا إلهة الطهارة فكان أعظم ميلاهن من الملوك بسلطانهم ، ولكن ذلك لم يكن إلا ليزيده تعلقاً بها .

أما ليونور فإنها أشارت إلى انتهاء المقابلة فأيقن ألتباري أن

خطبتها عنث وأن كل ما ينتقله من الرجاء والوعيد لا يفيد شيئاً في التغلب على إرادة هذه الزوجة العذراء التي لا تزال تحن إلى خطيبها القديم وقد نذرت في سبيله نفسها فنهض وقال :

— هذه هي المرة الثانية التي أسألك فيها يا ليونور أن تكوني زوجتي . أما المرة الأولى فقد كانت في ذلك اليوم الذي مردنا فيه تحت جسر التهديدات والمرة الثانية اليوم . وقد دفعستني إلى تجديد هذه المباحثة حادثة خطيرة حدثت فيه .

ثم ابتسم ألتباري ابتسامة هائلة وقال : نعم ، وهي حادثة قد تثنيك عن عزمك وتغير تهجك معي فإن الوفاء محمود ولكنه لا يجب بعد الموت .

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به أنه وردنا نعي رولاند كانديانو .

فلشت ليونور واقفة ولم يظهر عليها شيء من علامات الاضطراب فإنها كانت تعتقد أن رولاند هجرها وأنه ميت منذ ذلك العهد فبقي حزناً في نفسها على ما كان عليه . أما ألتباري فإنه انصرف وهو يقول في نفسه :

« إني أكاد أن لا أكون كذبت في ما أخبرتها ، فإن رولاند إما أن يكون قد غرق أو يكون باقياً في قيد الحياة . فإذا كان غرق كنت صادقة في نقل خبر موته وإذا كان حياً فلا بد لي من قتله في أقرب حين فأكون صادقة في الحالتين » .

وأما ليونور فإنها لما خلت إلى نفسها سقطت على ركبتيها

وجعلت تبكي بكاء أليماً كأنها لم تبك عند ستة أعوام حين  
أخبرها أبوها بأن رولاند هجرها وبرح قيتسيا .

### سكوتير الشاعر آريتان

\*

نذهب بشهين القارئ بعد هذه الحوادث يشهرون إلى قصر  
الشاعر بيار آريتان فقد كانت له قصر كدندولو والنياري  
وأمباريا ، وكان قصره على شاطئ القرعة الكبرى كسائر  
القصور .

وكانت شهرته قد ملأت محافل قيتسيا مع أنه لم يكن فيها  
إلا منذ عشرين يوماً ، وذلك أنه أعد حفلة عظيمة دعا إليها  
أكابر الشعراء والمصورين والموسيقين فخرجوا يشنون على كرمه  
وحسن ضيافته ويعجبون بقرش قصره وهو لم يكن قد دفع  
درهماً من ثمنه إذ اشتراه كله بالدين !

ففي ليلة من الليالي دخل اثنان إلى زخمة هذا القصر وكان  
أحدهما شاباً شيطاً يبلغ السابعة والثلاثين من العمر وهو لأبيض  
ملابس أهل فلورنسا ، وكان الآخر رجلاً طويلاً القامة عريض  
الكتاف وتخط الشيب شعره قسار وراء العنق وهو مطرق

الرأس . وجلسا في هذه الردة وأماما ينتظران دور مقابلتها ،  
فإن شاعرت قد قلت الحكام في المقابلات فجعل يقابل كل زائر  
حسب مركزه واستحقاقه .

وما زال صابرين إلى أن جاءها خادم ودخل بها إلى غرفة  
كان فيها امرأتان تعزفان على القيثارة وفي هذه الغرفة باب دخل  
منه الرجل إلى قاعة جديدة فوجد فيها كثيراً من الرجال  
وأربع نساء كن يسقين الرجال أقضر الخمر بأجل الكؤوس .  
وكان أحدهما متكئاً على المقعد فنظر إلى الرجلين وقال لهما :  
ماذا تريدان ؟ فنظر الفتى إلى ما حواله نظرة اطمئنان وأجابته  
دون أن يتقدم قائلاً : إني أريد أن أرى الشاعر المقيم في هذا  
القصر .

— هو أنا ، وأنت واقف بحضرة آريتان ، قتل ما تريد .  
— إني أتيت خصيصاً من فلورنسا لأظهر إعجابي بشاعر  
إيطاليا العظيم .

فاهتز آريتان لهذاثناء وصاح بتسائه قائلاً :  
— أين أنت ؟ وكيف لا تقدمن كرسيًا لهذا الفتى وتسقينه  
من شرابنا ؟

وقد نظر عند ذلك إلى كيس الفتى المعلق في منطقتة فوجد  
أنه عشو بالدنانير فقرع المائدة بيد وقال : لقد أعجبتني كثيراً  
أيتها النبيل ولا بد لي أن أنظم فيك قصيدة ، فأجابته الفتى قائلاً :  
اسمح لي يا سيدي قبل ذلك أن أقول لك قولين أحدهما أي غير  
ظلم أن إلى الشراب والثاني أي لست من النبلاء .



— ذن أنت من ؟

— إني من الشعراء ، أو إني أسأول أن أكون منهم .

فقضب آريتان حاجبيه وقال : لا فرق في الميزة بين القلم  
والسيف ، فقل يا أستطيع أن أنفعك .

— إني آتيت إلى فيليسيا على رجاء أن أكون مكرتيراً لك .

— يظهر أنك شديد المطامع يا ابني ، فماذا فظمت وبماذا  
تستحق هذا المنصب ؟

— إني أستطيع ، إذا أحببت ، أن أنظم الآن ما تريد .

فنظر آريتان إلى الفتى نظرة الفاحص والتفت إلى النبلاء  
المحيطين به وقال : إني أود ذلك بشرط أن يوافق عليه ضيوفي ،  
فأجابوه أحدهم ، وكان جالساً وراء فرقة من النبلاء قائلاً : إن  
ذلك أقصى ما نتناه . فشكر الفتى ذلك الرجل بابتسامة وأجابته  
آريتان قائلاً :

— ليكون ما تريد أيها الصديق عمو ، ولكن ما عسى أنت  
يقول عندك المؤمنون إذا رأوك بين الكؤوس ؟ ثم التفت إلى الفتى  
وقال له : إيداً يا بني . فقال الفتى : إني سأنظم لكم حادثة  
جرت قرب تريفيز في مغاور بيافا فوق آريتان وقال له : ما  
هو عنوان قصيدتك ؟ قال : الشاعر واللص !

فاضطرب آريتان وقال : إنه عنوان جميل ، غير أنني لا  
أستطيع سماع قصيدتك الآن فقد ضربت موعداً لصديق في هذه  
الساعة ولم أذكره إلا الآن ، فعد إلي غداً واقرأ هذه القصيدة .  
والآن تعال من هنا كي لا تضطر إلى المرور بالردفة .

ثم فتح له باباً ومضى في أذنه قائلاً : إنتظرنني في هذه الغرفة .  
وعاد إلى ضيوفه وقال :

— أسألكم العفو أيها السادة فإن العرق دى فرار سألني نظم  
قصيدة منذ ثمانية أيام فلم أتمكن من نظمها بعد ، وإني مضطر  
إلى نظم قصة أريد إرساها إلى الامبراطور شارل . فقصال له  
بجو : إن حالتك تجعل على الإشتاق أيها الصديق . قال : لا بد  
لي من العمل للارتفاق إذ لست كريدشالاً ينفق عن سعة كما يشاء . . .  
فايتسم ببجو وقال : إني كريدشال بفضل آريتان ! قال  
آريتان : نعم ، إن لي شيئاً من النفوذ لدى قداسة البابا فإنه شديد  
البخل بالمال ولكنه كثير الكرم بمنح الألقاب .

وبعد هنية انصرف الزائرون فأسرع آريتان بالدخول إلى  
الغرفة التي كان ينتظره فيها الفتى وقال له : لماذا اخترت أن  
يكون عنوان قصيدتك اللص والشاعر ؟ وما هي هذه الحادثة  
التي جرت لها في مغاور بيافا ؟

أما الفتى فإنه أسرع إلى تزع شعر مستعار كان على رأسه  
فظهر من تحته رأس رولاند كانديانو وصاح آريتان قائلاً : أهذا  
أنت ؟ قال : نعم ، فإني موفٍ بعهدي على رجاء أن تكون  
موفياً بعهدي . وفي هذا المقام لا بد أن أكون مكرتيراً لك  
حين ، ثم إني أحب أن أحضر وإياك الحفلة التي سيحيونها  
بعد غد .

— عند أمباريا ؟

— هو ذاك . فقل لي الآن كيف تعيش هذه المرأة ، فقص

علقت أن لها بنتاً فهل هذا أكيد ؟

- نعم ، ولكن لا يعرف ذلك غير القليل من الناس !

- ماذا تدعى ؟

- بيانكا .

- وعمرها ؟

- نحو أربعة عشر عاماً .

- إذن يجب أن تتدبر الأمر بشكل تجعل فيه لأمباريا نفة عظيمة بسكرتيرك ، فأني أحب أن أرى بيانكا .

- أهذا كل ما تريد أيها الرئيس ؟

- هذا كل ما أريده الآن . وغداً سأحضر إليك وأقترح عليك أن أكون سكرتيراً لك فتجيبني الى طلي ، وبعد غد أصطحبك الى حفلة أمباريا وسنرى ما يكون . والآن أخرجني من هذا القصر دون أن يراني أحد . . واعلم أيضاً أن هذا الرجل الذي جاء معي سيكون خادمك وسيذهب وإيانا أيضاً الى حفلة أمباريا .

وعند ذلك لبس رولاند الشعر المستعار فسار به الشاعر الى باب خفي كأن خلف القصر فأخرجه منه وعاد الى الرجل الأشيب الذي كان ينتظره وهو مضطرب لزيارة رولاند وجعل يقول في نفسه : إن لهذا الرجل قوة غريبة . وأما أنا الذي لا أخاف إلا أن يقاسمني عدو فقد بت أخاف هذا الرجل ، فإذا يريد أن يعمل في فينيسيا ومن هو ؟

وعند ذلك رأى الرجل الأشيب الذي ينتظره فقال له : أهو

أنت الذي ترصد الدخول في خدمتي ؟ قال : نعم ، وفي أقرب حين .

- إنك قددخل الآن إذا أردت .

- إذن يجب أن يكون لي ثوب خاص يتنجز غداً .

- لماذا ؟ الحضور حفلة المحظية ؟

- لا أعلم ، ولكن هذه هي الأوامر التي تلقيتها . وهناك أمر آخر وهو أنني أحب أن لا أبيت مع الخدم .

- سيكون لك غرفة خاصة !

- يحسن أن تكون مشرفة على التربة .

- تعال وانظر إذا كانت موافقة .

وقد عرف القراء دون شك أن هذا الرجل الأشيب كانت سكالا برينو خلافاً للشاعر فإنه لم يعرفه ، وقد ذهب به الى تلك الغرفة فأراه إياها ووافق عليها .

وفي اليوم التالي قدم الشاعر رولاند لأهل منزله وأخبرهم أنه سكرتيره . وأن صدوقه الدوق جيان دي مديس الشهير أرسله إليه فأقام رولاند في ذلك القصر بصفة سكرتير كما أقام سكالا برينو بصفة خادم .

وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم الذي تلاه كان آربرت الشاعر راكباً في زورق جميل وقد ركب معه فيه سكرتيره الجديد وثلاثة خدم بينهم سكالا برينو . ولم يصحب معه أولئك الخدم للزينة والافتخار بل للحذر والدفاع عنه حين الاقتضاء ، فإنهم كانوا مدججين بالسلاح وسار بهم الزورق بخبر في الترعنة

الكبرى ، وبعد هنيهة وقف أمام قصر أمباريا الفخم .  
وكان هذا القصر في تلك الساعة يتلألأ بالأنوار والألحان  
الموسيقية تحيي القاصدين إليه بأشجى الأنغام وقد اصطف نحو  
عشرين خادماً من شاطئ القرمسة إلى سلم القصر وهم يتلانس  
وُسُيت بالذهب ، فكان عامة الناس ينظرون إليهم وقد أعجبوا  
بهم فوق إعجابهم بالأسياء . فلما مر بهم سكالا برينو أشار إلى  
أحدهم إشارة معنوية أجيب عليها بثلثا ، وسار في أثر الشاعر .  
أما الشاعر فقد كان لابساً أفخر ملابسه فإنه انتشع بوشاح  
من الخمل أهداه إياه المركيز دي جامت ، وليس في رأسه  
قلنسوة رصعت جواهرها بالماس وهي مهداة إليه من الدوق دي  
أربين ، وليس في عنقه سلسلة طويلة من الذهب أهداها إليه البابا  
لاون العاشر .

فصعد السلام إلى ردهة متسعة ودخل منها إلى القاعة الكبرى  
حيث كان المدعوون ومعظمهم من ظرفاء أهل الفن وجيالات  
النساء اللواتي لا مقام لمن بين العاقلات .

وكان في إحدى زوايا القاعة جوقة موسيقية تعرف على  
آلاتها أحياناً ترددتها المغنيات ، والخدم يطبقون بالشراب على  
الحضور .

وقد أخذت الخلعة حدها وقازت دولة المحون وطافت  
أمباريا بين ضيقها تحامل هذه بكلمة وذاك بإقتسامه وهي مشرقة  
الوجه طلفة الخيال لوقوفها في هذه الحفلة موقف الملكات .

فلما دخل آريتان الشاعر كثر المجلس بين المدعوين كما يحدث

عادة حين دخول أحد المشاهير إلى حفلة كثير فيها اجتماع الناس ،  
وسار الشاعر قواً إلى أمباريا فأشار دولاند إلى سكالا برينو أن  
يتبعه وتوارى بين تلك الجوع .

\*

لم يكن آريتان وأمباريا قد عرف أحدهما الآخر قبل هذه  
المرّة فجعل كل منها ينظر إلى صاحبه نظرة الفاحص ليعلم هل  
يستحق ما ناله من الشهرة ، وقد اجتمعت فرقة من الرجال والنساء  
حولها في الحال فبدأ الشاعر الحديث فقال :

أقسم يا ممي يا سيدتي أنه لم تتل امرأة من شهرات الجمال ما  
نلتد ، فإنك فينيس إلهة الجمال نفسها ، بل إنك فوق مرتبة هذه  
الإلهة ، فإن جسمك وأعضائك أكثر تناسلاً من جسم فينيس  
التحيفة الشقراء . إذن أعد نفسي الآن ماثلاً بحضرة جينون ملكة  
الأولم وسيدة الآلهة !

فعدت أمباريا يدها إليه وهي تقول :

لأرب أني جميلة ، ولكنك شاعر مبدع تخلق الكلام الساحر  
والفواقي المذهبة . فأنت أحق مني برضى الآلهة التي تتكلم عنها .  
على أني أؤمر أن أكون أنا كرينون<sup>١</sup> على أن أكون جينون ، ومن  
كانت مثلي لا تسرّ بجمالها إلا على رجاء أن يتدح شاعر مثلك  
هذا الجمال !

١ - شاعر يوناني قديم كان مجنوناً فزلاً لا ينظم الشعر إلا في أوصاف  
النساء .

فتبادل الاثنان ابتسامة دلت على أن كلا منهما قد عَرَفَ صاحبه بحق العرفان . وجلس الشاعر بجانب أمباريا فجمعلا يتحدثنان بأحاديث كان محورها الغرام . واختلط بهما الفتيات والفتيات واقترحت الفتيات أن يتلو الشاعر على الحاضرين شيئاً مما نظمه في الحب ، فقبول الاقتراح بالتصفيق ، ونمض الشاعر وتلا قصيدة رشيقة في هذا الموضوع .

وقبها هو على إنشاده دخل فتى يدعى كريماني وهو ابن كريماني الشيخ أحد أعضاء مجلس العشرة .

حتى إذا فرغ آريتان من قصيدته وفرغ الناس من التصفيق والتهافت للشاعر وقف كريماني وصاح قائلاً بصوت مرتفع :

— أئسفون وتمتفون لهذا المنعزة العاصي الذي يحجو أبي ويشتمه بالظلم والفساد ومصائب العباد ؟

فقال له أمباريا : أرجو أن لا تقسم يا سيدي كريماني أن الشاعر ضيفي .

فظهرت علائم الاسقياء على جميع الوجوه من كريماني الذي أفرط في الشراب هذه الليلة فلم يحترم تلك المحظية التي يحلمها الجميع ولم يحترم الشاعر آريتان الذي يباه به حتى البابا !

أما كريماني فإنه أجابها بلاء القصة قائلاً : لا جرم إذا كان ضيف محظية فهو ابن محظية !

فرفع آريتان قبضته احتراماً لذكر أمته وقال : إنك تهين أميا الفتى امرأة ماتت في المستشفى وقد تحت عارضها تلك القصيدة الشهيرة التي نظمها فيها . أما أنا فإذا كنت ابن محظية فإن بين

جنبي قلب أسد نبيل . ولكنك ابن رجس من مجلس العشرة وليس في صدرك غير قلب جاسوس حقير . ولذلك لا أتداني إلى معاقبتك بل أدع أمر تأديبك إلى خدمني .

قال الشاعر آريتان هذا القول بخبرة نادرة ، فتلهب كريماني حقداً وصاح به قائلاً :

— ويح لك أيها الشقي ! إني سأدعك قوت في المستشفى كما ماتت أمك . فحاول عند ذلك كثير من المدعوين أن يتدخلوا في أمرهما فدفهم كريماني بعنف وهجم على الشاعر . ولكنه قبل أن يصل إليه شعر أن يبدأ من حديد قد قبضت عليه . ذلك أن مكالا برينو كان قد أسرع إليه فقبض عليه وسأل آريتان قائلاً :

— أين تريد يا سيدي أن ألقى هذا الرجل ؟ فقال له آريتان : — ضعه في قفاره واجتهد أن لا تسيء إليه .

فضحك الجميع وحمل مكالا برينو ذلك الفتى الهائج كما يحملون طفلاً وخروج به بينما كان آريتان يقول لأمباريا :

— لقد أحسنت يا سيدي بتدريبي خدمني ، فلو اضطررت إلى أن أودب بنقصي هذا الوقح لحملت جنبه من مشاهدة جمالك ولما غفرت لنفسني هذا الذنب العظيم !

وجرت الحفلة في مجراها وعاد الفتان والفتيات إلى الرقص على ألحان الموسيقى واستأنفت أمباريا الحديث مع الشاعر فقالت : ما الذي جاء بك إلى فينيسيا يا سيدي ؟ قال : أولاً رغبتي في مشاهدة جمالك الفتان ووصفه يا يوحية إلى قريحتي ، ثم



رسالة وردت من صديقي الكرديثال ببو .

قارعتحت أمباريا وقالت : أملكك تعرف الكردينسال  
الجديد ؟ قال : كيف لا أعرفه وأنا الذي سميت لتعبته في هذا  
المنصب ؟ فهل تعرفينه أنت يا سيدي ؟ فقلت بلهجة دلت على  
الحقد والربح معاً : نعم ، أعرفه فهو من أصدقائي .

وعند ذلك أشارت إلى خادم أن يذو منها فقالت له : ادع  
لي ماريا ... وكاننا خطر لها خاطر أخافا حين ذكرت ببو .  
ثم عادت إلى محادثة آريتان فقالت له :

— أفي نيتك الإقامة في فينسيا ؟ فقد علمت أنك استأجرت  
قصرًا فخيمًا وفرشته بأيدع الرياض ؟

— نعم يا سيدي ، وأرجو أن تطول إقامتي فيها لما أراه  
من جمالها الساحر .

— وفوق ذلك فإن هذا القصر الذي أنت فيه يشبه الحصون  
التيمة بحيث تكون آمنًا فيه وتناضل أشد الناس .

— يظهر يا سيدي أنك تحبين قراءة الأفكار فإذا أحببت  
أن تتحد فإننا نسود على فينسيا .

فضمكت أمباريا وقالت : إني أرضى بهذه المخالفة ولكل  
قل لي من هو هذا الرجل الذي كان يسير معك حين أتيت ؟

— أتعنين مكرتيري باولو ؟

فاطرقمت مفكرة وقالت : هو سكرتيرك ؟

وعند ذلك جاءت امرأة طاعنة في السن وقالت لها :  
أدعوتني إليك يا سيدي ؟ قالت : نعم يا ماريا ، فماذا تصنع

بينانكا ؟ إني أريد أن تسهر عليا هذه الليلة وأرجو أن لا  
يصل إليها ضجيج الموسيقى فيقلها .

— كلا يا سيدي إنها لا تصل إليها ، وهي الآن نائمة نوم  
الملائكة ولكنها كانت منعمرة الصحة قليلا قبل الرقاد .

فاصفر وجه أمباريا وقالت : كيف لم تقولي لي ؟

— إني لم أجسر على ذلك بسبب الحفلة .

— وماذا جهمني الحفلة أيتها البلهاء ؟ قولي الحقيقة ، إنها لا  
تزال مريضة ، أليس كذلك ؟

فتمتمت المعجوز قائلة : إنها متوعكة نوعكًا خفيفًا لا يذكر .  
فالتفتت أمباريا إلى آريتان وقالت له بصوت يرتجف : أرجوك  
المعذرة يا سيدي ، فأسعيب عنك لحظة . قال : يظهر يا سيدي  
أن صحة هذه الفتاة عزيزة عندك . قالت : إني أحبها فوق ما  
أحب حياتي .

— أملكك متصلة بها بصلة قريبة ؟

— إنها ابنتي !

— إنك أصبت دون شك ما دمت تحبين ابتك هذا الحب .

فهزت أمباريا كتفها وقالت : إني أحببت مرة في حياتي ،  
فلقيت عذابا لا يلاقيه الكافرون في جهنم . غير أن هذه الفتاة لا  
دخل لها في الحب وأنا أحبها من أجلها حبًا مجرداً .

— مهيا كان الأمر فإنك تسرين أن يكون لديك الآن  
طبيب ماهر !

— إذا كانت بينانكا مريضة فإني أدفع لهذا الطبيب ما يقنيه .

- إني أقدم لك طبيباً من أصدق الأطباء دون أن تدفعي له شيئاً ، فإنه سكرتيري الذي سألتني عنه منذ حين .  
فارتعشت أيضاً أمباريا للذكر هذا السكرتير وقالت : إذن تعال معي .

ثم قامت وسارت وإياه تحترق القاعات وهي تبسم للراقصين والراقصات بالرغم عنها حتى وصلت إلى غرفة صغيرة لم يكن يصل إليها ضجيج المحتفلين فقالت لأريتان : إنتظري هنا ، فإذا كانت بيانكا مريضة دعوتك إلي . قال : حسناً ، وأنا سأبحث في خلال ذلك عن سكرتيري .

وغابت أمباريا بضع دقائق فلما عادت وجدت أريتان مع السكرتير ومع ذلك الخادم المائل الجنة الذي حمل ابن كريغاتي إلى القارب . فلما رأت السكرتير أسرعته إليه وقالت له : هل أنت طبيب يا مسيو باولو ؟ قال : نعم يا سيدي . فاهتزت أمباريا لهذا الصوت وقالت له : تعال معي .

ثم دخلت به فاجتازت ثلاث غرف حتى انتهت إلى غرفة كانت بنحتها منطرحاً على مقعد فيها وهي يلاسلها .

ولم يكن هذا السكرتير طبيباً فإنه كان رولاند ومع ذلك فإنه لم يفقه أن الفتاة غير مريضة . أما أمباريا فإنها أخذت يسد يبتها وجعلت تقبلها وتقول : ماذا أصابك يا ابنتي وماذا تشعرين ؟ لا تكلمي عني شيئاً فإن هذا الرجل الواقف أمامك من مشاهير الأطباء وقد أتى ليشفيك . فقالت لها : إني لا أشكو شيئاً يا أمي ولست مريضة .

ومن الغريب أنها كانت تقول لها هذا القول وهي تحاول الهرب من قبلايتها وتتمند . فقالت أمباريا :

- ألا تتألمين من معدتك ؟

- كلا !

- ألا تشعرين بدوار في رأسك ؟

- كلا يا أمي !

وكان رولاند ينظر إلى الأم واليبت ثم سار بأمباريا إلى آخر الغرفة وقال لها : أملكك تخشين أن تكون ابنتك مسمومة ؟

فذهرت أمباريا ذعراً عظيماً وقالت : إفحصها ، بالله !

قال : اطمني يا سيدي ، فإني أنت واثقة بي ؟ قالت : نعم نعم ، ولا أعلم ما الذي يدعوني إلى هذه الثقة الشامة . قال : إذن تفضلي بالخروج من هذه الغرفة ومري الخادومات أن يخرجن أيضاً . فظهرت على أمباريا علائم الخوف فقال لها : إذا لم يكن لك في ثقة تخليتي عن موضعي لطبيب آخر .

- كلا ، كلا ، فإن بقي بك عطفة .

وعند ذلك أشارت إلى الخادومات فانصرفن ثم غابتت ببتها عنفاً طويلاً وانصرفت ، فقال لها رولاند قبل أن تتواري عنه : تعضلي يا سيدي وقولي لخادم المولى أريتان أن يبقى قريباً مني حتى إذا احتجبت إليه تأديته فإنه متعود علي .

فلما انصرفت أمباريا نظرت بيانكا إليها نظرات تشفق عن الغضب وتمتمت قائلة :

- إذهي : عودي إلى حفتلك واتركي بلك وحدها . وقد

سمع رولاند قولها ففهم عليتها وقال لها برفق :

— أتريدين يا ابنتي أن نتحدث قليلا ؟

فأجابته بنبرات دلت على تهيج عصبي قائلة : إني أود أن أكون وحدي ... إني لست مريضة .

— إني أعلم يقيناً أنك لست مريضة في جسمك بل في نفسك أيتها الطاهرة البرية ، فقولي لي كل شيء وتقي بي فأني صديق .. إنك حزينة جداً أليس كذلك ؟ أنظري إلي يا ابنتي وتعتني بوجهي تعلمي أنني شديد الإخلاص وأني لا أريد لك إلا الخير . وكانت بيانكا مغطية وجهها بيدها فظنرت إلى ذلك الرجل الذي يكلمها بهذا الحنو فدهش رولاند لهذا الجمل النادر إذ كان لها جمال أمها ولكنها كانت تزيد عليها تأثيراً في النفوس لما كان يظهر بين عينيها من دلائل الطهارة والسلامة . وقد كانت تربت خير تربية وتعلمت معظم العلوم كينات النبلاء في ذلك العهد .

وقد كانت أمها أبعدتها عنها زمناً طويلاً إشفاقاً عليها من أن تفسد أخلاقها بإقامتها معها ، ثم تعلبت عواطف الأمومة على ذلك الإشفاق ولم تعد تطبق فراقها فذهبت إليها وعادت بها إلى قصرها فأقامتها في جناح معتزل منه . وكانت كل ليلة تخرج وإياها إلى الزهرة فلا تظهر عند ذلك بظهور المخططات وأهل الخلاعة بل تتأدب كل التأدب بلبسها ومشيتها ونظراتها فإذا اتفق أنها لم تصحبها إلى الزهرة أبقتها في القصر وبالغت في الحرص عليها كي لا يراها أحد من الرجال .

وعلى الجملة فلم يكن هنالك غير القليل يعلمون أن

لأمباريا بنتاً .

وقد لبثت بيانكا منهية تنظر إلى رولاند نظرة الفاحص إلى أن قالت : نعم ، أرى أنني أستطيع أن أعاملك معاملة الصديق فإنك لا تشبه أولئك الرجال الذين يزورون أمي ، وإن نظراتك ليس لها قحة نظراتهم حتى أنني طالما عانيت أن أعيش وإياها منفردة في بيت صغير .

— إذن أنت لا لودين أن تحضري هذه الحفلات التي تجري في هذا القصر ؟

— بل إني أدع منها ، وأمسر توصلت إلى أمي أن تمتنع عن هذه الحفلات فأبث وتركتني شقية .

وهنا جعلت تشفق بالكاء . فتوجع رولاند لمصاها وتركها تبكي إلى أن سكن تأثرها ومسحت دموعها فقال لها : ومع ذلك فإنك تحبين أمك ؟ قالت : نعم ، إني أحبها وأشفق عليها لأنه كان يحيل لي مراراً أنها هي نفسها غير سعيدة ! إني أحب أمي حباً شديداً حتى أنه إذا وجب أن أضحي نفسي في سبيلها لمأخاوت ، ومع ذلك أرى أنه خير لي لو تركتها ورحلت هذا القصر .

فارتعش رولاند وقال : ولكن لماذا تؤثرين قراقها وهي تعبدك كما رأيت وأنت تحبينها أصدق حب كما تقولين ؟

— لا أعلم ، ولكنني أختنق هنا .

— ربما كان ذلك لأنك مقيدة !

— كلا ليس هذا ، فأني لو عشت سجيناً لمأ باليت ، ولكنني

أكاد أحتسب لأنني أشعر هنا بألمة تجري أمور سافلة يهبط  
صدري لها ولا أفهمها .

- إطمئني يا ابنتي وتمزتي فلا تجري هنا أمور يمكن أن  
تثقلك .

فنظرت إليه بياضها عذقة وقالت : إنك لا تقول لي كل ما  
تفكر به وقد عرفت ذلك من اضطراب صوتك ومن عينيك ،  
فلماذا لا تقول لي الحقيقة ؟

- لأن هذه الحقيقة يجب أن تبقى مكتومة عنك فإذا فُتح  
باب قلوبنا ، وإذا سمعت شخيجا فضعي إصبعك في أذنيك ،  
وإذا رأيت خيالا فاعضي عينيك .

- لقد ثبت لي الآن أنك صديق صادق .

- نعم ، وإني خير صديق فتقي لي .

- إنك وصفت لي بكلمات مرجزة جميع ما ألقاه هنا ،  
وإن كل ما أوصفتني به كنت أجريه هنا من تلقاء نفسي وبالسليقة  
دون أن أعلم إذا كان ذلك يقيني الأخطار أو يعرضني لها .  
وحبذا يا سيدي لو تفكرت أن تقع أمي بأن تغادر فينيسيا  
فلأنني قبل أن أكون هنا كنت من أسعد الفتيات .

- أين كنت من قبل ؟

- كنت مقيمة عند عائلة من الفلاحين في قرية ماتتو فكانت  
أمي لا تزورني إلا مرتين في كل عام ، فكنا نلعب سوية كأختين  
وكنا سعيدتين إلى حد أنها حين كانت تسافر أشعر أن قلبي قد  
انزع من صدري ، فهذه هي الحياة التي أريد أن أعود إليها .

- تأملتي خيرا يا ابنتي ، فإني سأبذل جهدي كي أتمكن من  
إقناع أمك . فضمت بياضها يديها وقالت :

- إنك تتقننا معا يا سيدي إذا فعلت . فتش مخاطب أمي ؟  
- عندما تسنح الفرصة ، وربما خاطبتها الليلة بل غدا فلأنني  
في حاجة إلى التمتع .

- إنك كريم القلب يا سيدي ولا أحب أن تنقصني شيء من  
الثقة بك .

- وما الذي ينقصك يا ابنتي ؟

فاحمر وجه بياضها وقالت : إنني لم أقبل لك كل شيء يا  
سيدي ، ولكن يجب أن أخبرك بكل أمري ولا سيما لشغلي  
برجل يأتي إلى هنا .

- أخبريني بأمر هذا الرجل .

- اتفق يوما أن أمي ذهبت بي إلى القرعة فتوغلت في  
القرعة حتى بلغت إلى « يبدو » وهناك لقيها رجل عرفها بالرغم  
عن تبرقع وجهها . أما أنا فلأنني ذعرت ذعرا شديدا لنظراته .

- هل تستطيعين أن تصفي لي هذا الرجل ؟

- إنه شديد القبح وقسود كان في ذلك اليوم يلبس ملابس  
الزهبان ، ولكن ملابسه كانت بنفسجية ...

فتمتم رولاند قائلا : إنه يبرأ

قالت : وبعد ذلك بشر رأيت باب هذه الغرفة قد فُتح  
ودخل منه هذا الرجل وكانت عيناه تتقدان فجعل يقول لي  
أفوالا ألم أقمها لغرض اضطرابي وقد ذعرت منه فصرخت



مستغنية وأقبلت الخادمان فخرج الرجل وهو يعتذر بأنه كان غافلاً .

— وماذا قالت أمك حين عرفت ذلك ؟

— لم أجسر على إخبارها بهذه الحادثة . وفوق ذلك فلاني كنت أرتجف حينما كنت أفكر بها .

— إطمئني يا سيدي فسأحكك من هذا الرجل .

— أتعرفه إذن ؟

— نعم أعرفه . والآن أستودعك الله يا ابنتي فلا تخشي خطراً بعد الآن واشكري الله الذي سهل لك الاجتماع بي واعلمي يقيناً أنني سأتولى حمايتك منذ الآن .

فأخضت بيانكا وقد بدت عليها علائم الامتنان . أما رولاند فإنه فتح الباب ونادى سكالا برينو . فقال له بصوت منخفض : أنظر إلى هذه الفتاة . قال : إنني أراها أنها الرئيس .

— حدثني بها وتضمن في حياتها كي يعلق رسمها في ذهنك .

— إن رسمها لا يغيب عن ذاكرتي .

فلما أيقن رولاند أن سكالا برينو تفرس بوجهها . قال له بصوت مرتفع : إذهب الآن واتنني بالحنجات التي ذكرتها لك . فانصرف سكالا برينو وأشار رولاند إلى بيانكا إشارة وداع وانصرف أيضاً . فلما صار خارج الباب لقيته أمباريا فقالت له : ماذا رأيت ؟ قال : لا شيء . يشغل البال يا سيدي ، وإذا شئت أن تتحققني من ذلك فادخلي إليها .

فأسرعت أمباريا إلى غرفة بنتها وخلا رولاند بآريشان

الشاعر فقال له : أريد أن تدعو صديقك بيو إلى مأدبة لا يحضرها إلا أنت وهو وأنا .

قال له هذا القول واسترسل إلى التفكير فجعل يقول في نفسه : ما هذا القدر الغريب ؟ فإن هذه المظلة السافلة قضت عليّ بالشقاء الدائم لحرمانني إياها من لذة ساعة ، إذ لا شك لديّ بأن يدها قد انغمست في تلك الجريحة ، جريحة الوشاية بي . وهي دون شك قد كانت آلة في أيدي التباري وفوسكاردي وبيو لإلقاءني في هوة لا حدة لها من اليأس !

وقد علمت الآن أن لها بنتاً وأنها تحب بنتها فقلت في نفسي : لقد دنت ساعة الانتقام الرهيبة ! ولكنني حين خفوت بها سرت الشفقة إلى قلبي ورأيت هذه الفتاة تشبه الملائكة الأطهار وأنها جديرة بالرحمة والإعجاب ، وقد أنبت خصيصاً لأفجع أمها بها وأحرق قلبها عليها وعدت . ولا هم لي إلا إنقاذها ... فكيف أستطيع الانتقام من أعدائي إذا لم أنزع هذا القلب الرقيق الذي بين جنبي ؟

وعند ذلك خرجت أمباريا من غرفة بنتها فأسرعت إلى رولاند وأخذت يده بيدها وقالت : إنك حقيقة من أبرع الأطباء ، فلاني لم أجند بنتي قبل الآن على ما هي عليه من الصعوبة والعافية .

ثم التفتت إلى الشاعر آريشان وقالت له : إسمح لي يا سيدي أرت . أمهنتك بسكر قيرك فإنه كنز ثمين . قال : ألم أقل لك يا سيدي إنه من أصدق الأطباء ؟

أما رولاند فإنه حين شعر بلس يد أمباريا هاج الحقد  
والثغور في صدره ولكنه كتم ما به وقال لها : أملكك أطمأنت  
يا سيدي ؟ قالت : كيف لا أطمئن يا سيدي ؟  
— وإذا قلت لك إن ظواهر هذه الصلحة كاذبة وإن ابتلك  
حقيقة مريضة ؟

فاصغر وجهه المحطية وقالت : إنك تعزيني يا سيدي . قال :  
أنأذنين لي بخلاوة ؟  
— دون شك ، فسلم بنا !

— كلا ، فلترجى ذلك إلى الغد فإن ضجيج الحفلة يزعميني ،  
— إن الغد بعيد ولا أظن أنني أعيش إلى الغد ، فإن القلق  
يقتلني ، فعد عند انتصاف الليل فلاني أجده وسيلة للفرض هذه  
الحفلة وإطلاق سراح الناس .

— حسناً فاحضر عند انتصاف الليل .

ثم تركها وانصرف . فوقفت أمباريا تقول في نفسها : عجباً !  
أذكر أنني سمعت هذا الصوت ... ولكن أين سمعته ؟ وما زال  
نظرات هذا الرجل تثير في قلبي تذكارات هائلة ؟

\*

وعند انتصاف الليل تفرق جميع المدعوين وأمرت أمباريا  
بإطفاء الأنوار وانصرف الخدم فساد السكون في هذا القصر .  
وذهب فجعلت عند الباب الأكبر كي تفتح الباب بنفسها عند  
قدوم الطبيب الذي كانت تنتظره .

وبعد هنيهة أقبل رولاند ، أو الطبيب باولو ، فأخذت يده  
ودخلت به إلى إحدى الغرف فجعلت على كرسي وأشارت إليه  
أن يجلس بجانبها .

فأحسن رولاند باضطراب لم يشعر مثله إلا ساعة فراره من  
السجن ، وذلك أن هذه الغرفة التي أدخلته إليها كانت نفس  
الغرفة التي قادته إليها في تلك الليلة الهائلة التي كانت سبب ثقائه  
الدائم . فاصغر وجهه تحت ذلك البرقع الرفيع الذي كان  
متنكراً به وهاج الانتقام في صدره فخطر له أن يبطش بها  
لفوره وضم يديه وحاول أن يهجم عليها ...

ولكنها لم تر شيئاً من اضطرابه فقالت له برق : تفضل يا  
سيدي للطبيب وحديثي عن بنتي . فضم رولاند يديه وثفنه  
تنهداً عميقاً كاد يتمزق به صدره وقد ذهب من نفسه خاطر  
الانتقام ولم يعد يرى في تلك المرأة غير الأم التي تذوب بحناناً على  
بنتها ، فقبل جهداً عنيفاً كي يترك تلك الذاكرة القديمة وقال :  
ماذا تخافين يا سيدي ؟ قالت : لا أعلم ! فلاني أحب ابنتي حباً  
لا تصفه الألسن حتى إذا أصيبت بأقل عارض أصبت بما يشبه  
الجنون ... وبلاء ، إنني لا أدري ما يكون إذا فقدتها .

— يستحيل أن يكون هذا كل الذي تخافينه !

فارتعشت أمباريا وقالت : ماذا تعني بما تقول :

— إن بسانكا قوية البنية سليمة الجسم ولكنها بارعة الجمال .  
ألست تؤثرين يا سيدي أن تجذب عينها المجهلتان قلب أحد من  
الرجال ؟

فاصفر وجهها وقالت : ولكن يجب مع ذلك أن تزوج .  
- ليس هذا الذي تخافينه ! فلو جاءها كرم الأخلاق حلا  
الشائل بمحبها وتحب وسألك أن تزوجه بها لما رفضت طلبه ،  
ولكنك تخافين أن يكون قد رآها أحد أولئك اللصوص  
الضواري الذين ليس لهم من صفات الإنسانية غير وجوه بني  
الإنسان !

- إنك ترعبي يا سيدي !  
- ربما تكون عيناها قد جذبت قلب واحد من أولئك  
الكواسر ، فإذا كان ذلك فالويل لابتك فإِنَّ ذلك الوحش  
يراقب بنتك وهو شديد الظلم إلى مائتها يعلم يقيناً أن هذه  
الفريسة لا يمكنها النجاة منه ويتأهب للانقضاض عليها . فإذا  
كان ذلك يا سيدي فاحذري قبل أن يفوت الأوان .

فأجفلت أمباريا منزعرة وصاحت صيحة رعب فقال لها  
رولاند : ما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟ فإني لم أقل ما قلته  
إلا على سبيل الافتراض والظن . وفوق ذلك فأنك مقيمة مع  
بنتك تسهرين عليها وتراقبينها أشد المراقبة . ومن يحسر على  
مهاجرة فتاة أمام أمها إلا إذا كانت الأم تحالفت سرّاً مع ذلك  
السيء أو كانت تلك الأم قد اقترفت مع ذلك السيء جريمة  
قيمتها به وجعلتها عاجزة عن صد إرادته !؟

فوثبت أمباريا إلى الباب كي تستوثق أنه لا يوجد من يسمعا  
وعادت إلى رولاند فقالت له بصوت يتلجلج : مَنْ أنباك بما  
تقول ؟ وكيف عرفت هذا الاتفاق المعلوم بيني وبين هذا الوحش

الكاسر بل هذا الأفعى الذي يدعونه بالكردينال ؟  
- لا أفهم ما تقولين يا سيدي ، وإنا قلت ما قلته على سبيل  
الظن . ويظهر أنني قلت الحقيقة دون أن أريد .  
- إذن أنت لا تعلم شيئاً ؟  
- كلا !

فتنهدت أمباريا تنهد المنفرج بعد ضيق وعناء رولاند إلى  
الحديث فقال : ولكن يجب أن أعلم كل شيء إذا أردت أنت  
أضمن سلامة بنتك من الأخطار التي تتهددها .

فارتعدت أمباريا وأرخت عينيها وشعرت أن لصوت هذا  
الرجل سلطاناً عليها فقالت له : سأخبرك بكل شيء !  
- إذا كان ذلك فتفضلي يا سيدي بإبقائي على الحقيقة وثقي  
أنه لم يكن يخطر لي أن أقف على هذه الأسرار المحزنة حين  
عهدت لي أن أفحص بنتك البريئة .  
- البريئة ؟

- نعم إنها بريئة دون شك من الجرائم التي ارتكبتها سواها ،  
وربما قضي عليها أنه تتحمل تبعاتها .  
فأثنت أمباريا أنيثاً حزينة وقالت :

من أنت أيها الرجل ؟ فلاني يجازيني لم يكلفني أحد بئل هذا  
السلطان ولم يسر أحد قبلك غور أفكارني كما تسيرها فمن أنت ؟  
إني أريد أن أعرف من أنت !

وقد قالت له ذلك وحذقت به كي تتحصن ملاحة لتري إذا  
كانت تنطبق على ملامح الرجل الذي كانت مثلاً في ضميرها في

تلك الساعة . فأجابها رولاند قائلا :

- إني يا سيدتي كما تعلمين سكرتير الشاعر آرنتان تلتيت دروسي في فلورنسا وقضيت شبابي في درس العلوم الفلسفية وربما كانت هذه العلوم هي التي ترشدني إلى خفايا القلوب . وقد كنت قبلا عند الدوق جان مديس ولولا صداقته العظيمة مع آرنتان الشاعر لما تخلى عني . فتكلمي يا سيدتي فأني مصغ إلى بكائك واسمحي لي أن أسألك .

قالت : سل يا سيدي ما تشاء فاني مستعدة لإجابتك . قال : لقد خطر لي خاطر يا سيدتي وهو أنه إذا كان هناك خطر يتهدد بيانكا فلا بد من وجود رجل يشارك معك بالدفاع عنها . - من هو هذا الرجل ؟

- أيوها !

- أيوها ؟

- وما الذي أدعلك ؟ فأني واثق أنه إذا بلغ ما يتهدد بناته من الخطر يسرع لفوره إلى نجدها وهذا طبيعي معقول . واسمحي لي يا سيدتي أن أتكلم بملء الحرية والجلاء كي لا يكون بيننا سوء تفاهم ، فإنك مشهورة بالطرف وسلامة الذوق فلا يمكن أن يكون والد بيانكا من أوضاع الناس وهو دون شك من كبارهم وله سلطة ونفوذ .

فعاد الرب إلى قلب أمباريا لما كانت تحمده في لهجة رولاند من دلائل التهنيم وقالت له : وأنا أحب أيضا أن أكللك بملء الحرية فإن المسألة خاصة ببنتي .

- تكلمي يا سيدتي وثقي أنني لا أظلمك بحكم .

- إذن فأعلم أنني لا أعرف والد بيانكا .

- إني أشفق عليك يا سيدتي إذ كيف يمكن عدم معرفة ذلك الرجل الذي أحببت والذي ثلثت صورته في ضميرك وتسلطت عليك بشكل مولود تحبته إلى حد العبادة ؟ فإذا كان ذلك فأنت شديدة الهم دون شك . وقد ذكرتني حكايتك بحكاية امرأة قالت لي في بدء الحكاية ما تقولين ، وذلك حين لقيتها منذ عامين في ضواحي تريفيز بقرية تدعى فيا أطن تريفيرا قرب مغاور بيانكا .

فوقفت أمباريا وجعلت تنظر إلى رولاند نظرات تنوهج ! فقال رولاند : وحكاية هذه المرأة يا سيدتي أنها ضلت الطريق حتى انتهت إلى مغاور بيانكا فلقيتها هناك وأمنتها من خوفها وأقنا نتحدث . وكانت جميلة مثلك وهي مثلك أيضا تحب الأمور الغريبة فحككت لي حكايتها .

- ما هي حكايتها ؟

- هي أن هذه المرأة كانت مسافرة إلى روما من عهد طويل فأحاط بها فريق من اللصوص وجأؤا بها إلى مكان مقفر خفيف يدعى المغارة السوداء ...

فاحمر وجه أمباريا ثم اصفر ، وكان رولاند يراقبها فحضر في حديثه فقال : وقد خطر لهذه المرأة الغريبة الأطوار أن تسترئ بأحد هؤلاء اللصوص فاختارت من بينهم واحدا ... فصاحت أمباريا صيحة دهش تظاهر رولاند أنه لم يسمعها ،



وتابع يقول :

وقد أراد الله يا سيدتي أن يُنعم على هذه المرأة بمولود من ذلك اللص وهي عاقرة لم تلد على طول صحبتها الأمراء والنبلاء فولدت بنتاً .

فوقفت أمباريا عند ذلك وقالت له : كفى ، كفى ! فبان اجتماعك بهذه المرأة في المغارة السوداء لم يكن إلا من مخترعاتك وأنت لا تريد إلا أن تعينني بهذه الحكاية ...  
- أغنيك أنت يا سيدتي ؟

- نعم أنا ، ولكنني لا أعلم كيف اتصلت بك هذه الحكاية ولا أعلم غرضك من قصصها عليّ !

قال : إنك مخطئة يا سيدتي ، فإذا كانت هذه الحكاية قد اتفقت لك ألا يمكن أن تتفق لسواك ؟ فهزت أمباريا رأسها وقالت : إنك حاولت أن تعرف والد بيانكا فعرفته الآن وعرفت أنه من اللصوص ، ولكنني لم أعرف اسم هذا اللص ولا حاولت مرة أن أعرفه ولو لقيته لما ذكرت ، فأنت ترى الآن أنني لم أكن كاذبة حين قلت لك بأنني لا أعرف والد بيانكا .

- إذن لنضع الأمل بالاعتماد على والد بيانكا في سبيل إنقاذها من يهو ...

فظهرت عند ذلك علامة اليأس على وجه الهطية وقالت : يهو ؟ ومن الذي كلمك عن يهو ؟ ومن أنبأك أنه هو ذلك الرجل الذي أخافه ؟

- أنت يا سيدتي ! نعم إنك لم تذكر اسم يهو ولعلك

قلتي لي منذ حين إن هذا الوحش بل هذا الأفعى الذي تقبّلت معه إنما هو الكردينال فقلت أنك تريد به كردينال فينيسيا وهو يهو ... ألهمني خطي ...

- كلا إنك غير خطي ، ولكنني بشت أخافك الآن !

- ولماذا تخافيني ؟ لأنني أعرض عليك مساعدتك في إنقاذ بنتك ؟ إذا كان ذلك يا سيدتي فلم يبق عليّ إلا أن أنصرف .

- كلا ، كلا ، بل ابق ، وإذا رأيت ما يخامرني من الرعب فلا تتم له . وبعد ، فإني لا أبالي بما قد يصيبني من الكوارث بشرط أن تأمن بنقي الأخطار ! نعم يا سيدتي ، إن الذي أخافه هو الكردينال يهو أسقف فينيسيا ، فإنه هو الذي رأى بيانكا ، وهو الذي هام بها وجعل يتردد كل ليلة حول القصر ، وهو الذي عقدت معه ذلك الوفاق الذي أشرت إليه !

فأيقن رولاند أن هذه الهطية قد باثت طوع بده فقال لها : ما هذا الوفاق الذي تذكرينه ؟ أذكري يا سيدتي أنك قد جريت شوطاً بعيداً في القول بحيث لم تعود في قسادة على كتمان ما بقي من تلك الحقيقة الهائلة ، فأحذري أن تكتسبها فاني قد أعرفها وقد تندمين لكتمانها .

- إني سأمتثل لك . ولكن من أنت وماذا تريد ؟ إني لا أعلم ... ولكن الذي أعلمه أنك مزود بمعلومات عجيبة .

- إذن تكلمي فاني مصغٍ إليك !

قالت : إني كنت أحب رجلاً في سنة ١٥٠٩ وهو الرجل الوحيد الذي أحببته . وحين أسأل نفسي إلى الآن أشعر بأنني لا

أزال أحبه ! على أنني أحبه وأكرهه في حين واحد ، وذلك أنني عرضت نفسي عليه فاحتقرني وصدّني لأنه كان يجب فتاة عاملتي لأجلها بهذا الاحتقار .

— ماذا كان يدعى هذا الرجل ؟

— رولاند كانديانو !

— والفتاة التي يحبها ؟

— ليونور دندولو !

فغرس رولاند أطاقره في باطن كفه حتى كاد يدميه ثم قال : أتسي حديثك ! قالت : وقد عوّلت على الانتقام منه ، وكان لي عشيق يدعى دافيليا فرآني هذا الرجل خلسة وأنا مع رولاند ، فلما انصرف رولاند قتلته ذلك العشيق . وفيما أنا واقفة أنظر لهذا القتل وقد تمكّنت مني الرعب رأيت رجلاً قد دنا مني وكان قد رأى كل ما حدث ... وكان هذا الرجل بعبو ... فأخذ بيدي وسار في إلى غرفة أخرى فلقيت فيها ألتياربي الذي كان في ذلك العهد من أعضاء مجلس العشرة وهو اليوم قائد الجيش العام .

ووقفت عن الكلام منبهة وهي تعجب في نفسها كيف أنها تبوح بمثل هذه الأسرار الهائلة لرجل تكاد لا تعرفه ... ولكنها كانت تنظر إليه نظرات فتضطرب وتشمرب بنفوذ نظراته إلى قلبها وتحس بقوة عظيمة خفية تدفعها إلى الكلام ولذلك لم تجد بداً من العودة إلى الحديث فقالت :

— إن ألتياربي وبعبو أجلساني بينما فبدأ بعبو الحديث

فقال : إنك يا سيدتي قد قتلت أحد أعضاء مجلس العشرة ، فسوف يشنقونك ويقطعون هذا الرأس الجليل .

فارتعت عند ذلك واقتكرت بابتي بيانكا التي أربها بعيدة عني في إحدى القرى فسال العرق البارد من جبينتي حين تمّثل لي قطع رأسي وجزعت جزعاً شديداً من الموت فقال لي بعبو :

— على أنه يوجد طريقة واحدة لإنقاذك .

فبرقت عشتاي بيارق من الفرح وقلت : ما هي ؟ قال : هي أنت تنهي سؤالي يقتل دافيليا ، وإذا اقتضى الأمر إلى إثبات التهمة بالشهادة وكلنا شاهدين على صدق ما نقولن . قلت : من هذا الذي أتهم ؟ قال : رولاند كانديانو ! قلت : معاذ الله أن أفعل ! — إذن أنت تزوجين المشنقة ورولاند يتزوج ليونور !

فشعرت لهذا القول أن الرعب قد زال من قلبي وحلّ محله الحقد فليستني عقارب الغيرة حين تصوّرت أن ليونور ستكون سعيدة بقربه فصحت به قائلة : إني أرضى !

فأملى عليّ عند ذلك ألتياربي الوشاية فكتبتها وأخفها بعبو فألقاها في صندوق الوشايات ... وهو أمر هائل أليس كذلك ؟ فقال رولاند : نعم إنه أمر هائل ! أما أنت فقد دفعتك الغيرة إلى ارتكاب هذه الجناية . وأما بعبو فما الذي دفعه إلى ذلك ؟

— لا أعلم ، فربما كان حاسداً لروولاند !

— وألتياربي ؟

— إنه كان يحب ليونور !

- وماذا صنعوا بـرولاند ؟

- ألقوه في الآبار ؟

- وهو لا يزال فيها دون شك ؟

- كلا ، فقد مات !

- كيف عرفت خبر موته ؟

- إنه حاول الفرار مع سجين آخر فألقيا بنفسيهما إلى التربة وغرقا فيها . وكان الموت خيراً له مما كان يقاسيه من العذاب .

- ذلك لا ريب فيه . ولكن كيف استطعت أن تعيشي في خلال إقامة هذا المتكرد في سجنه الرهيب !

- لقد تعذبت أكثر مما تعذب . فإني كنت تارة أحاول أن أخبر القضاة بالحقيقة ولكنني كنت أخاف الجلاء ، وتارة كان يخطر لي أن أحاول إنقاذه ولكنني أجده ذلك عالياً ، فكنت ألقى عذاباً لم يلق مثله الشهداء ولا سجيناً في أيالي الشتاء فإني كنت أحسب عصف الرياح فيها أنين رولاند في سجنه . ولكنه مات لحسن الحظ !

- نعم لحسن خطه ، وبعد ذلك ؟

- أنت تعلم الآن أنني مقيدة بهذه الجريمة مع الكردينال يسمو ، وأنه منذ ستة أعوام يأمرني فاطم ، وفي كل مرة أحاول الإفلات من قيده بنذرني بقول الحقيقة فأخاف الموت ولذلك بت أخاف الآن أن يأتيني ليلة فيقول لي : اختاري بين أن تمتعيني ببنتك أو أمتع بمنك سيف الجلاء !

- وعند ذلك جعلت تشقق بالبكاء ببنا كان رولاند مطرقاً

برأس يحدث نفسه فيقول : لقد عرفت السبب الذي دفع أمباريا وعبو وألتيارى إلى الكيد في . أما دندولو وفوسكاري فهذا آسأت إليها ؟ صبراً ، فستنجلي الحقيقة !

ثم التفت إلى أمباريا وقال لها : لا تبكي ولا تجهزي فسننقذ ببتك . قالت : لا شك أنك ملك أتييتني بالصفح عن جريمتي .

- إني لم أقل لك غير أنني سأنقذ ببتك .

- وأنا واثقة بك كل الثقة .

- وعند ذلك نهض رولاند يحاول الانصراف فركمت أمباريا وقبّلت يده فجذب رولاند يده من يدها وأسرع بالخروج من ذلك القصر تاركاً أمباريا عرضة لهياج شديد كاد يقتلها .

## حب أبوي

\*

عندما خرج رولاند وبلغ الشاطئ نظرت إلى ما حواله فرأى رجلاً عتيباً وراء شجرة قد ذهب إليه وقال له :

- أهذا أنت يا سكالارينو ؟

قال : نعم يا سيدي وإني واقف في موقف المراقبة . وقد كان خلّج ملابس الخدم وأبسن ملابس نجسار فينيسيا فقال له

رولاند : وأين رفاقنا !

— لقد جاء أكثرهم وهم ينتظرون أوامرك .

— إذن فاصبر إلى أن يتكامل عددهم هناك فأخبرني .

ثم فلك رباط قارب ونزل إليه فقال له سكالا برينو : هل يجب أن أصحبك يا مولاي ؟ قال : إذا أحببت أن تتزوه فتعال . فوثب سكالا برينو إلى القارب واستلم الجذافين فقال : إلى أين يأمر الرئيس أن يسير ؟

— إلى « ليدو » في عرض البحر حيث نأمن الرقباء .

وعند ذلك جلس في القارب واسترسل إلى التفكير ، وكان السكون سائداً في فينيسيا لا يخلقه غير صوت الجذاف فلما وصل القارب إلى ميناء ليدو أشار رولاند إلى سكالا برينو أن ينقطع عن التجديف ثم قال له فجأة : لقد قلت لي إنك لم تعد ترى تلك المرأة ...

فذهل سكالا برينو وقال : أية امرأة تعني يا مولاي ؟

— تلك المرأة التي حدثتني بما اتفق لك معها في مغاور بيافا حين فضلتك على ساندريجو .

— كلا ، فإنني لم أرها بعد ذلك العهد !

— أقعنت في وجه تلك الفتاة التي رأيتها في قصر أمباريا ؟

— نعم ، وهي لا تزال بمثابة في ذهني .

— أتعرف اسمها ؟

— كلا !

— إذن فاعلم أنها تدعى بيانكا .

— سأحفظ هذا الاسم ولا أنساه .

— وإنك تكون مصيباً بحفظه كما أنت مصيب بطبع رسماً على صفحات ذهنك .

— دون شك ما زال قد صدر إلي أمرك بذلك .

— إنني لم أصدر إليك أمراً بهذا الشأن فهو خاص بك .

فنظر سكالا برينو نظرة الاندهال دون أن يحسر على سؤاله ، فقال له رولاند : لقد فاتني أن أخبرك أن هذه الفتاة أمّا تدعى أمباريا .

— تلك المحطية ؟

— نعم تلك المحطية التي أغرتك مرة على القبض عليّ في تلك الليلة التي كانت بدء شقائي . ولكن لندع هذا الآن فقد قلت لك إن لبيانكا أمّا وهي أمباريا ، فهل تعرف ماذا يدعى أبوها ؟

— كلا يا حضرة الرئيس .

— إذن فاعلم أن والد بيانكا يدعى سكالا برينو !

فارتضى سكالا برينو ارتعاشاً عنيفاً حتى أوشك الجذاف أن يسقط من يده فقال له رولاند : ما هذا الاضطراب وماذا أصابك ؟ فقال : أسألك المعذرة يا مولاي فقد أسأت فهم ما قلت لي ، أليس كذلك ؟ قال : كلا يا سكالا برينو فارت بيانكا بنتك .

— أمّا في بنت ؟

— نعم وهي من أمباريا !

— رباء ! ماذا أصنع ؟ أهذه الفتاة التي يأخذ جمالها



بمجامع القلوب ..

— إنها بتلك .

— أتكون هذه الملاك ابنتي ؟ أسألك المعبودة يا مولاي فإن

ذلك فوق مقدري .

ثم وضع رأسه بين يديه وجعلت الدموع تذرف من عينيه فأخذ رولاند المجداف ودفع القارب الى الشاطئ . وهناك وثب سكالابرينو عنه الى البر . وهرب في ذلك الليل الساكن لحاجته إلى الاختلاء بمن يصاب بحزن عظيم أو يسرور كبير ، فكان رولاند يشيعه بالنظر . وهو يقول : إلك أيها الرجل الحنون وتاجر الليل بأفراح قلبك فإن سرور ساعة أنساك عذاب أعوام .

وعند ذلك سار وهو مطرق الرأس حتى انتهى الى قصر عظيم فوقف تحت نوافذه المظلة ثم نظر الى تلك النوافذ وأن أنين الموجه ! فإن هذا القصر كان قصر ألتباري . وكان ينظر إلى تلك النوافذ وعيناه تتقدان ، وبعد أن وقف هتية طاف حول القصر ثم مشى ببطء الى الرصيف فجلس في موضع يشرف على القصر وجعل يحدث نفسه فيقول :

رى ماذا أتيت أعمل هنا ؟ في هذا القصر ينسام من أبغضه أكثر مما أحب من أحبها . وفي هذا القصر تنام من أحبها أكثر مما أبغض من أبغضه ! هناك ألتباري وهناك ليونور ! هناك اجتمع لدي الحب والكراهة واليأس والرجاء ! إنني أنظر الى هذه النوافذ كي أمتع الطرف في المكان الذي تبئت فيه ليونور ثم أنزل الى أعماق نفسي فلا أجد فيها غير الحقد الدفين .

— وعند ذلك أطرق هتية ثم غادر مكانه وسار مسرعاً الى الشاطئ . ففك قيود قاربه وسار به الى الرصيف آخر قرب سراي الدوج ، وهناك نزل إلى البر وجعل يسير بين الأشجار وهو مطرق الرأس ثبور في صدره البراكين ويتمثل خطيئته ليونور تجالس ألتباري وتنادمه وتناغيه فيطير فؤاده شعاعاً ويسير مسرعاً كأنه يريد الفرار من هذه الذكرى .

وفيما هو على ذلك سمع صوت اثنين يتحدثان فوقف منصتاً إذ تبين وخيل له أنه عرف صاحبي الصوتين . ولكن الصوت كان يصل إليه بما يشبه الجنس فلم يفهم الحديث ، ولذلك تقدم مستتراً بالأشجار الى حيث كان الرجلان فوجدتهما جالسين على حجر قرب جسر التتهدات وعرف أنها فوسكاري وبينو .

فاختبأ وراء شجرة وأصغى الى الحديث . فسمع فوسكاري يقول : لماذا لم تنفذ فيه العقاب الذي أنفذناه بأبيه ؟ بل لماذا لم تأمر الجلاذ بقتله يومئذ ؟ إننا أخطأنا يا بعبو خطأ لا يغتفر ! فعمل رولاند أنها يتحدثان عنه . فوضع يده على قبضة خنجره وهم أن يقتض عليها فيقتلها شر قتل ، ولكنه ارتد لفوره وقال في نفسه : كلا ، فإن هذا القتل سهل وهو دون ما يستحقان إذ يموتان في الحال .

أما بعبو فإنه أجاب فوسكاري قائلاً : لا فائدة من القلق يا سيدي فإن رولاند كانديانو قد مات . فحذق فوسكاري في بعبو وقال :

— ولكنهم لم يجدوا الجثة ، فإني أظنلت قم القردة وصيرت

خمس عشرة يوماً فلم يجدوا الجثة ، فإذا كان قد مات غريقاً فأين ذهبت جثته ؟ قال الكردينال بعبو : إنك تعلم أن تيار الترعة يقذف الجثث إلى ميناء ليدو وهناك تدفنها الأسماك في بطونها . قاطمئ ، فإن الأموات لا يخرجون من القبور .

فهو فوسكارى رأسه وقال : ثق يا بعبو أن رجلاً مثله لا يموت غرقاً . وقد زرت السجن الذي كان فيه ورأيت ذلك المنفذ الذي فتحته قرأتيت عملاً هائلاً لا يقدم عليه الرجال العاديون ، وكذلك قرأته فإنه أعجب من عمله . كلا إنه لم يموت ، فإن لديه كثيراً من الأعمال بعد حررته تعيقه عن الموت .

قال الكردينال بعبو : لا أفهم يا مولاي ما تقول . فقبض فوسكارى على يد بعبو وقال : بل إنك فهمت كما فهمت أنا ، والويل لك وني !

ثم أراد أن يغير مجرى الحديث فقال : ما جرى للشاعر صديق جان مديس الذي عذمت على إحضاره ؟  
- إنه يدعى بيار آرثيان وقد حضر وأدهش سكان المدينة بجرائه وبذخه .

- لقد سمعت شيئاً من ذلك . أتحبب أنه يقضي مهمتنا لدى جان مديس بما تقتضيه من الدقة والذكاء ؟

- إنه مشهور بذكائه ، وأما إخلاصه فإننا نستطيع شراءه بالثمن ، وإننا نبلغ منه بالمال ما نشاء .

- إذن التي به في أقرب وقت .

وعند ذلك افترقا فدخل فوسكارى إلى قصره وسار بعبو

على شاطئ الترعة فتبعه رولاند . وقد سمع كل الحديث دون أن يكون له قصد معين ، فإن المشروعات كانت تردح في رأسه ازدهام الغيوم المتأبدة في سماء مطيرة .

أما بعبو فإنه لم يذهب إلى منزله بالرغم عن دنو ساعة الفجر بل ظل يسير وهو يقف من حين إلى حين وينتقم بأقوال لا تصل إلى جميع رولاند حتى رقف أخيراً أمام قصر أمباريا . فلم رولاند أن هذا الوحش جاء ليقف تحت نوافذ بيانكا كما وقف هو تحت نوافذ ليونور ومشى إليه فلم يسمع بعبو صوت خطواته إلا حين اقترب منه فاستأز ودنا من الجدار كي يفسح له مجالاً للمرور .

غير أن رولاند وقف وقال بلهجة الماضي المتكلم : أرى أنني لست العاشق الوحيد الذي يأتي ليتند تحت نوافذ هذه الحسناء . ثم التفت إلى بعبو وقال : أملك يا سيدي من عشاق أمباريا ما وإذا كان ذلك فكيف اتفق وجودك هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ لقد كنت أحسب أن الشعراء مثل رئيسي أو الثمانيين مثلي يقفون في هذا الموقف الخيالي ويناجون القمر بغرامهم .

فقال بعبو في نفسه : إنه مكرتر الشاعر آرثيان ، ثم قال له : مرة بطريقك يا سيدي . فأجابته رولاند قائلاً : كيف أنهب من هنا وإنما أتيت لأفكر في هذا السكون قصيدة نمتقتها في وصف بيانكا الفاتنة .

فاصغر وجه الكردينال بعبو حين سمع اسم بيانكا ودنا من

رولاند وهو يحاول أن يقبض على يده ، قد قبع رولاند بمنف وقال له بصوت الناقم : إحذر أن تلمسني .

فترجع يميمو منذعراً وهو يقول في نفسه : رباه ! ما هذا الصوت ؟

أما رولاند فإنه ضبط نفسه في الحال وقال له : ماذا تبغي من الإساءة إلى شاعر فقير مثلي ؟ قال : إنك لفظت اسماً ...

— نعم وهو اسم بيانكا .

— ولكن كيف اتفق أنك تتكلم عنها من غير كلفة ؟

— وأنت ، كيف اتفق أنك تسألني بمثل هذه القحة ؟

— أتعرف أيها الرجل من أنا ؟

— نعم أعرفك حق العرفان فإنك الكوردينال يميمو أسقف

فيبيسيا . والذي أراه أنه خير لك أن تحادثني فقد أقول لك أقوالاً تفيدك .

— في أي شأن ؟

— بشأن بيانكا . أليس هذا الشأن الذي همم له أكثر من

كل الشؤون ؟

فوضع يميمو يده على قبضة خنجره ونظر إلى رولاند نظرة الذئب يتحفظ للانقضاض على الفريسة ، فقال له رولاند : لا تجهد نفسك في ارتكاب جريمة قتل لا تفيدك ، وفوق ذلك فإنني لا أدعك تقتلني دون دفاع بل إنني قد أخضعتك قبل أن يصل خنجرك إلى صدري .

— أنك مجنون دون شك ، فإنك تكلم كوردينال فيبيسيا

وأسقطها كما تكلم حثالة من حثالي الميناء .

— إنسك تبائع يا حضرة الكوردينال بالتفاخر والمباهاة ،

ولكن ليس هذا المواد . فدعني أنتم فكري فأقول لك : كفاك

قتلاً لا يفيدك . وقد هبطت منزلتك في نفسي حين رأيتك تضع

يدك على خنجرك إذ لا أعلم كيف يحظر لك في الحال قتل رجل

مثلي . ثم إنني أرى على نور القمر وجهك الدمع فأتبين منه أنك

تكرهني كرهًا هائلاً في حين أنني لم أسيء إليك أقول إساءة .

— إذن ماذا تريد مني فسلني أسمعك منذ حين وأحسب أنني

أسمع مجنوناً .

— لا تكذب أيها الكوردينال ، فإنك تعلم أن الكذب محرمة

الكنيسة . ولو كنت تعتقد حقيقة أنني من الجانسين لتركنتني

وانصرفت ، ولكنك لبنت وأنت تدوب شوقاً إلى سؤالي .

— نعم ، أيها الشيطان الرجيم ، فلا أعلم من أعطاك سلطان

القراءة في النفوس ولكنك تقرأ في نفسي كما يقرأ الناس في كتاب

مفتوح .

— وأي عجب في ذلك إذا كانت عينك تفرجان عن دخال

قلبك ؟ ولكن مسا لنا ولهذا المباحث العقيمة ، فسلني بحرية

وجلاء وقل ما الذي تريد أن تعرفه .

فاضطرب يميمو من الغيظ والحقد وقرر في باله قتل هذا الرجل

قراراً لا يُنقض . ولم يجم عليه في تلك الساعة لسببين ، الأول

أنه لم يكن وثاقاً من مقدرته عليه ، والثاني أنه أراد أن يعلم

نيات هذا الرجل ولماذا اقتفى أثره وتعرض له ، فملك نفسه

جهد ما يستطيع . وقال له : إني أريد أن أعرف قبل كل شيء .  
من أنت ، فإنك تدعي أنك شاعر وأنت سكرتير آريتان .  
وقم إني رأيته عنده ولكنني واثق بأنك تتستر بهذا المنصب ،  
فأنت غير ما تدعيه وأنا أريد أن أعرف من أنت .

أجاب رولاند : لقد دعوتني منذ هنية شيطاناً ، فافترض  
أني شيطان !  
- شيطان ؟

- ولماذا لا أكونه ؟ إنك بصفتك كروبنالاً وأسفلاً ، يجب  
أن تعتقد بوجود الشياطين ، ولكنك قد تكون غطئاً .  
فتنظر ببؤس إلى ما حواله نظرة رعب وعلج .

ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى أن ذلك العصر كان عصر  
خرافات ، وأن الأوهام كانت تسلط على أعظم الرجال ذكاءً  
ولا سيما الأمراء ورجال الدين ، فإنهم كانوا أكثر تعلقاً من العامة  
بالخرافات وسكابات الجن والآبسة . ولذلك دعر ببؤس دعرأ لا  
يرصف وتراجع إلى الوراء وهو يقول :

- إذا كنت من رسل جهنم فإني آمرك بالله أنت تعترف لي  
بذلك .

فابتسم رولاند ابتسام الاحتقار وعلم أن ببؤس أضعف مما كان  
يتوهم فيه فقال له : إذا كنت تخاف من الشياطين فافترض أنني  
من اللاتكة . وفوق ذلك فإني أدع لك الخيار بين أن تحسبني  
ملاكاً أو شيطاناً أو إنساناً ، على أن كل ذلك لا فائدة فيه  
فلنتحدث في المهم .

- حسناً ، فقل لي كيف عرفت ما عرفته عني ؟  
- ذلك بسيط سهل ، وهو أنني قفوت أنك فعلت ما أريد  
أن أعلمه منك .

- ولماذا حدثتني عن بيانكا وعمما افنكرته بشأنها فإن  
ذلك سر من أسرارني لم يقف عليه أحد ؟

- لقد وصلنا الآن إلى المسألة الحقيقية ، فإنك تعتقد يا  
حضرة الكروبنال أن غرامك ببيانكا سر من أسرارك فكان  
مثلك بذلك مثل سائر العشاق الذين يتوهمون أن سر غرامهم  
لا يعلمه غير النجوم التي يرقبونها ، وهو يادر في عيونهم وفي كل ما  
يقولون ويقولون فلا يخفى على الذين يحشوا في الغرام ، وإني  
أعرف فتي مثلك كان يرود حول منزل من يجب وكانت مثلك  
يستعمل إلى نجواه فلا يفتنه إلى من يراقبه في حبه ولكن المنكود  
لم يكن سعيداً في حبه .

- ماذا حدث له ؟

- إنه قتل لتكده طالعه . وأما أنت فإنك موافق في  
غرامك فإن الذي يقفوك أنك لا تريد قتلك ولو أراد لفعل من  
زمان ولكنه يريد أن يساعدك . فالفرق بعيد كما ترى بينك وبين  
ذلك المنكود .

- أنت تريد مساعدتي ؟ ولماذا ؟

- وأية فائدة لك من معرفة حقيقة أفكاري ؟ ألا يمكن أن  
يكون لي صالح بأن أرى ابنة أمباريا خليلتك ؟

فارتعش ببؤس مروراً وقال في نفسه : إذا كان هذا الرجل



يريد الانتقام من أمباريا فقد اتضح الأمر وذلك معقول ، فقد يكون اتفق له مع أمباريا ما دعاه إلى الانتقام منها . ثم التفت إلى رولاند وقال : لننظر الآن كيف تستطيع مساعدتي ، وما تسألني مقابل هذه المساعدة .

— سأجيبك عن المسألتين ، ولكنني أخصر فأجيبك عن المسألة الثانية : إنني لا أريد منك شيئا .

— ذلك كثير .

— إطمئن ، فقد أكون نلت جزائي من موضع آخر .

ولنبهت الآن في طريقة مساعدتك .

— إنني مصغر إليك .

— إذن فاعلم أنني أستطيع اختطاف بيانكا وتسليمها إليك .

فكاد الكردينال يطير سرورا وقد تمثل له في تلك اللحظة

أنه قد ضم تلك الفتاة إلى صدره وسار بها وهي تحقق حقوق

أجنحة الطائر دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها ، فقال

رولاند : ما بالك لا تعجب ؟ ألم يعجبك هذا الاقتراح ؟ قال :

بل إنني أمتحك كل ما تطلبه إذا فعلت ذلك .

— ألم أقل لك إنني كوفنت من موضع آخر ؟ قل ، أترضى

بهذا المشروع ؟

— نعم !

— إذن تعال في الساعة التاسعة من مساء غدا إلى نفس هذا

الموقف الذي أنت فيه الآن أمام قصر أمباريا .

— وإذا رأيته ؟

— لا بأس من ذلك فإني أؤثر أن يروك كي أفتح بعض رجائي . وعلى ذلك فلن بيانكا تكون لك في الساعة الحادية عشرة .

— كيف تصنع ؟

— ذلك منوط في ، فاعرص على أن تكون غدا في الموعد

الذي عينته لك .

— ولكن ما الذي يضمن أنك لا تنصب لي شركا ؟

— أية فائدة لي من نصب الشرك ؟ فإني لو كنت أريد

قتلك لقتلتك منذ ساعة فقد تيسر لي مائة مرة أن أهاجمك على

غرة .

— ذلك أكيد .

— إذن ستعصر في الموعد المعين .

— أحضر .

وعند ذلك افترق الاثنان فسار عيو مسرعا ووقف رولاند

يشيعه بالنظر وقد تيسر الحقد في عينيه حتى إذا توارى عن

أنظاره سار إلى جهة الميناء إلى أن وصل إلى منزل عليه ظواهر

الفقر ، ففرع إليه ففتح له رجل وكان هذا الرجل سكالا برينو .

وكانت علائم الهم والكآبة بادية على وجه سكالا برينو فتندسحين

رأى رولاند وقال له : أسالك العفو أيها الرئيس ، فقد تركتك

دون استئذان لأنني كنت شبه المجانين لهذا الثبا الذي أخبرني

به فولدت في نفسي أفكارا كثيرة . ولكن كل ذلك قد انتهى

الآن . فأجابه رولاند برفق وحنان :

- قل يا سكالابرينو ما هذه الأفكار ولا تكتم عني أمراً  
فإن ذلك يزعجني من عناء محادثة جرت لي منذ قليل .

فهم سكالابرينو رأسه وعاد إلى التندب دون أن يجيب فقال  
له رولاند : أملكك ثور أن تكتم عني أفراسك وأسرانك ؟  
- كلا ، كلا يا مولاي ، ولكن هذا الحاطر الذي خطر لي  
علت أنه حلم باطل لا يمكن تحقيقه .

- ماذا حدث ؟ أجمعت أنك أخذت بيانكا وخرجت بها  
من فيليبيا فابتعدت بها عن تلك الوحوش الضارية التي تروء  
حول منزلها كي تشب براثنها فيها ؟ أم حدثت أنك تريد إبعادها  
عن تلك الأم الفاسدة التي قد يفتني بها الضعف والخوف أو  
الطمع إلى بيع ابنتها ببيع السلع ؟ قل ، أليس هذا الذي خطر  
لك ؟

فضم سكالابرينو يديه الكبيرتين وأشار برأسه إشارة  
إيجاب . فقال رولاند : وقد حدث أيضاً أنك ابتعدت ببيانكا  
وجعلت تعاملها بحنو ورفق إلى أن أحببتك وقالت إنك كرم  
الأخلاق رقيق القلب فساداً لم تكن أبي ؟ فضممتها إلى صدرك  
وقلت لها ودموع الدرح تنهل من عينيك : نعم إني أبوك الحقيقي  
وإنك ابنتي العزيزة !

- هذا أكيد يا مولاي ، فقد خطرت لي هذه الأفكار .

- ثم قلت في نفسك إن ذلك مستحيل ، وإن تلك الحظية  
تراقب بنتها أشد المراقبة ، وإنك تفتني عليك أن تعيش بعيداً  
عنها .

- اليست هي الحقيقة أيا الرئيس ؟

- كلا ، فإننا سنختطف بيانكا في الساعة الحادية عشرة من  
مساء غد .

فوثب سكالابرينو من موضعه وقال : مولاي ، إنك عمل  
عظيم ! فقال رولاند : لقد حملنا أعظم منه يا سكالابرينو فثقت  
بأننا سنختطف بنت غداً .

- إنك تفتح لي أبواب السماء يا مولاي !

- بل جاء رفاقنا كلهم إلى فيليبيا ؟

- لقد جاء معظمهم ومن تأخر منهم يحضر غداً دون شك .

- إذن ! إنشغل معهم على الاجتماع عند قصر أمباريا ، وفي  
الساعة العاشرة أذهب إليهم فألقي عليهم التعليمات اللازمة .

أأكون أنا معهم يا مولاي ؟

- كلا !

- كيف ذلك ؟ ألا أحضر اختطاف بنتي فأحلبها ؟

- كلا ، بل يجب أن تنتظر في قارب سريع إلى أن آتي بها

إليك فتسير بها إلى السفينة التي تنتظرها في الميناء . وعندما تصل  
بها إلى ظهر السفينة دعها هناك وتعال إلي ، وأنت تثق بي كما  
أظن فتعلم أنني ساع إلى سعادة بنتك .

- إني أثق بك يا مولاي كما يثق المؤمنون بالله .

أما بيو فإنه ذهب إلى منزله القريب من سانت مارك وكانت  
الساعة قد اقتربت من الرابعة بعد انقضاء الليل وانبتق الفجر ،  
فتفتح نافذة غرفته وجعل يسير ذهاباً وإياباً في تلك الغرفة .

وكانت بيانكا تعتقد أنه لم يرها غير مرة أو مرتين ، ولكن الحقيقة أنه رأها منذ جاءت بها أمها إلى فيليسيا وبدأ غرامه بها منذ ذلك اليوم .

ولقد يعجب القراء كيف تسري عاطفة الحب إلى قلب مثل هذا الوحش الضاري ، ولكن بهو قد ترك رسائل تثبت هذا الحب ، فإنه لم يحب أحد ولم يحب أحداً قبل أن يعرف بيانكا فعرف عند ذلك جور الحب وسلطان الغرام . وقد كان يحسب في البدء أن الظفر بها سهل ميسور ، وأنه سينالها من أمباريا بأجنس الأمان . ولكن ما لقيه من مقاومة أمباريا العتيقة آثار هياجه . ثم قال في نفسه إنه يجسر به الرجوع عن حب هذه الفتاة . ولكنه لم يكذب بماهد نفسه على سلوكها حتى باتت تتمثل له في كل غيل وشعر أن هذا الغرام سيورده موارد الحنف إذا لم يخرج منه ظافراً غافماً .

وقد عرف في هذا الحب جميع أنواع الشقاء ، من الأرق إلى اليأس إلى اليكساء . فلما لقيه رولاند في تلك الليلة تحت نوافذ بيانكا كان قد أتى يضع خطة جريئة يرجو أن يظفر بهـ تنفيذها ببيانكا وهي خطة تشبه الخطة التي اقترحها عليه رولاند غير أنها كانت لا تزال مبهمة في أفكاره حتى جلاها رولاند .

وقد أخذ يسير في غرفته وهو لا يفكر إلا بذلك الرجل وبأقواله التي كانت لا تزال ترن في أذنه فجعل يقول : لا بد لي من قتل هذا الرجل فإنه واقف دون شك على أعالي وعارف

بنيتاني . فمن هو هذا الرجل ومن أين أتى وماذا يريد ولماذا ينبغي أن يلتقي بيانكا ؟ نعم يجب أن أعرف غايته من ذلك . إن هذا الرجل لا يزال في مستقبل الشباب ، ألا يمكن أن يكون عاشقاً مثلي ؟

نعم إن الغرام قد يكون دفعه إلى ذلك ... ولكن ترى من يجب ؟ ألمثل يجب بيانكا وأنها صديقه فحاول أن ينتقم منها ! كلا ، إن ذلك غير معقول . وكيف يستلم من يجبها إلى مزاحمة فيها ؟ أم لعله يحب أمباريا ! إن ذلك بعيد أيضاً فإن أمباريا من المحظيات وقد رأيت في وجه هذا الرجل وقبيلت من لهجت أنه لا يتداني إلى صفار الأمور فلا شك أنه يضمر وراء هذه الظواهر أموراً خفية . وما هذا الذي يضمره ؟ ثم إنه عرف غرامي ببيانكا وأدرك مقاصدي ، فهو إذن يراقبني ويتم في منذ عهد بعيد فما هو قصده يا ترى ؟

إني قتلت كثيراً من الناس ، فإن من يسير في طريق السلطة والأفرة ويكون له مظالمعني فلا بد له أن يكون غانكاً ظالماً منزهاً عن تلك العاطفة التي يدعونها الرحمة . ومن اجتمعت لديه هذه الصفات كان قوياً . إذن أنا من الأقوياء ما زلت قد انزعجت من قلبي كل عدالة ورقق وإشفاق !

نعم ، ولكن من يفكك بالناس هذا الفتك يجب عليه أن يسحقهم سحقاً ، فبل أبقيت سهواً على عدو يحاول الآن ... وعند ذلك ضم يديه إلى صدره ووقف هنيئاً يتأمل ثم عاد إلى مناجاة نفسه فقال : نعم ، لا بد لي من قتل هذا الرجل !

فلأستخذه في البيت ثم أقتله . والآن فلأبحث عن وسيلة ، فإنه في هذه الليلة سيلبني بياضكا فيجب أن أمتن منه أعظم امتنان ، ولكي أظهر له امتناني أدعوه إلى العشاء عندي ، وهو سيحضر دون شك . ولكن أترام يقبل أن يأكل من طعامي ؟ نعم ، إنه يقبل بشرط أن أحمله على الثقة بي وذلك سهل علي ، ومق رضى أن يأكل من طعامي قضي الأمر ووفيته حق من الجليل . وقد ظهرت عليه عند ذلك علائم الرضى لوثوقه من أنه سيقتله بالسلم وأنه سينال بياضكا . فجعل يفكر بترتيب حياته السعيدة القادمة إلى أن نادى رئيس قصره فقال له : أريد أن تحضن مكاناً أنيقاً في القصر لإقامة امرأة فيه بضعة أيام ، وبعد ذلك تبعث لي عن منزل موافق يكون معتزلاً تسهل مراقبته فتقيم فيه .

قال رئيس القصر : سأفعل يا مولاي . ثم انصرف . وبعد ذلك بساعة لبس الكردينال بعبو ملابس النهار ، أي ملابس الأسقية ، وذهب إلى آرنتان الشاعر فوجده جالساً يكتب . فأحسن الشاعر استقباله وقال له : أترى كيف أبكر إلى العمل بكور الطيور ؟ قال : ماذا تصنع ؟

— إني أنظم قصة للملك فرنسا .

— كم ترجو أن تنال منه ؟

— ألف ريال على الأقل لأنني توعدته مائة ، فضحك بعبو

وقال : بماذا أنذرلك الملك ؟

— بطبع القصة التي أنظمتها له .

— ما هي هذه القصة ؟

— إنها قصة صحيحة إذ لا يوجد من ينقضها . وهي أن أم

الملك أحبت في شبها رجلاً يستحق الحب ...

— أظن أن الملك يخاف من طبع هذه القصة ؟ وأية ملكة

من أسرته لم تتشق ؟

— هو ذلك . ولكن هذا الرجل الذي أحبته كان من خدام

الإسطنبول ، فيكون جلالة الملك ابن سانس ...

— إذا كان ذلك فهو يخاف دون شك . ولكن ما الذي

يدعوك إلى ولوج مثل هذه الأبواب ؟ أملكك في حاجة شديدة

إلى المال ؟

— وأية حاجة إني ليس لي حتى ثمن الخمر .

— مسكين !

— ولا يد لي في هذا العام أن أكسب اثني عشر ألف ريال ،

فقد وضعت الضرائب وفرضت على الإمبراطور شارل ثلاثة

آلاف ريال ، وعلى الملك فرنسوا ألف ريال ، وعلى الدوق دي

قرارا خمسمائة ...

— وأنا كم ينالني من هذه الضرائب ؟

— أنت ؟

— نعم أنا ، أو الذين أستطيع أن أدعهم يتحملون ضرائبك .

فدنا الشاعر من بعبو وقال ؟ هل تستطيع أنت أن تغدني

شيئاً ؟

— إني أستطيع أن أعطيك أربعة آلاف ريال .



- متى ؟

- إني أعطيك نصفها اليوم إذا شئت .

- إذا كنت أريد ؟ قسماً يثغر مرعربنا ...

- إذن تعالَ معي .

- إلى أين ؟

- تعالَ فسوف ترى . وأسرع بلبس ملابيك فتسير معي

في مركبتني .

فأسرع الشاعر إلى لبس ملابسه وبعد هنية عباد إلى بعبو

فقال له : هلمَ بنا . قال : إلى أين تذهب بي ؟ قال بعبو :

إلى الدوج .

- الدوج ؟

- نعم ، فهل تريدك مقابلته ؟

- كلا ، فإن أمثالنا لا يخافون أحداً .

\*

وبعد هنية كان الكردينال يجتاز قاعة في سراي الدوج غصت بالقواد والأسياذ ، فإن فوسكاري كان قد جعل بلاطه شبه بلاط الملوك . وقد فعل ذلك تبعاً بحيث لم ينتبه له مجلس العشرة إلا بعد أن فات أوان الاعتراض وياقت السلطة المطلقة بيده . فإنه قد استأثر بقوة الكنيسة والجيش ، فكان يستولي بقوة الكنيسة على عقول الأحداث والنساء ، ويستولي على الرجال بالنساء والأحداث ، بحيث لم يبقَ رئيس عائلة لم يفته أمره

بالخضوع لأمرائه وبقيته . وكان بقوة الجيش يستولي على الشائرين ومن يحنج إلى الثورة .

وكان رئيس الجيش ألتباري ورئيس الكنيسة بعبو . فكان الأول سائداً على الضباط والجنود والثاني على الكهنة بحيث كان فوسكاري يقيم الثورات ويخمد العصيان يجند ألتباري ويضغط على الأفكار ويستولي على القلوب بقوة بعبو .

هذه كانت خطة فوسكاري . وقد لبث يعمل ستة أعوام حتى تمكن من الاستيلاء على هاتين السلطتين بحيث بات قادراً الآن على استخدامهما في سبيل نفسه .

## الدوج

\*

مرَّ الكردينال والشاعر بقاعة كان الناس فيها عصابات يتحدثون وكلهم ينتظرون أن يجي دورهم في مقابلة الدوج . فلما مرَّ بهم الكردينال جعل الجميع يحمونه بعلاء الاحترام فشعر آريتان بنفوذ صديقه وقال في نفسه :

يا ليتني انتظمت في سلك الكهنة وأرحمت نفسي من عناء البحث عن المال ، فهذا الكردينال يقبل الناس بيده ويعطونه ما

يحتاج إليه صاعرين . وأخلق بمن خلق كسولا مثلي أن يلبس  
لباس الكهنة ويتمن هذه المهنة فقد أتت وظائف الكهنوت في  
هذه الأيام مهنة من المهن الرائجة . . .

وقد قطع الكردينال عليه حديث نفسه ودعاه إلى الجاوس  
يجانبه على كرسي . ثم أشار إشارة إلى أحد الحجاب وعاد إلى  
عادته آريتان فقال له بصوت منخفض: إن الدوج سيسبقنا في  
الحال لأنه ينتظرننا في خلال ذلك نستطيع أن نتحدث .

— بماذا ؟ ما الذي سنقوله ؟

— إنني أريد أن أسألك عن رجل تعرفه .

— من هو ؟

— إنه رجل صادق بعيد نظم الشعر وقد عيّنته في المنصب

الذي أراده ، فهل يهتمك أمره ؟

— كثير آ .

— إذا كان ذلك فإني سأرفقه .

— من هو هذا الرجل ؟

— كنت أتوقع أن يخبرني شيئا عنه ما زلت تريد خبره .

أما أنا فإني لم أعرفه إلا برسالة جاني بها من الشيطان الأكبر .

— الشيطان الأكبر ؟

— نعم ، أي من جان دي مديس .

١ - كان جان دي مديس يلقب جنوده بالشيطان لشدة دعائه في  
الحرب .

— إذن لا تعرفه ؟

— كلا .

— ولكن يجب أن تعرف من هو ومن أين أتى وماذا يريد .

— ذلك سهل معرفته فإنه شاعر وقد أتى من فلورنسا وهو

يريد الثروة .

— كل ذلك ظواهر يضع ورماها دون شك مقاصد خفية

أريد أن أعرفها .

— حسنا ، فأسأله عن كل ما قريب معرفته .

وعند ذلك جاء الحاسب وأخبر الكردينال والشاعر أن

الدوج ينتظرهما فدخلا إليه .

\*

لما مثل آريتان بحضرة فوسكاري نظر إليه الدوج نظرة

الفاحص ثم قال له فجأة : إنك صديقي جان دي مديس ؟ قال :

نعم يا سيدي الدوج ، فإنه شرفني بصدافته منذ عهد بعيد ولم

يربط فراقي إلا مكروها .

— إذن لماذا قارفته ، فإن رضى مثله خير من رضى الملوك أ

— هو ذاك يا سيدي ما خلا رضاك .

— ولكنني لست من الملوك !

— لقد سمعت أهل فينيسيا يتكلمون عن فوسكاري باحترام

كان له علي تأثير أعظم . ورأيت قصرك الفخم يحيط به الحراس

فشبهته بقصر اللوفر الملكي الذي رأيت في باريس وبقصر سانت

أتج في روما . ودخلت إلى قصرك فما شئت بلاك إلا ببلاط  
مدريد ، ثم رأيتك ورأيت قصرك . ورأيت شعبك فعلت أنهم  
خير أبطال يقيمون في أمتع حصن ويخضعون لأعظم أمباطور .  
فاهتز قوسكاري لهذا الشئ ولا سيما لكلمة أمباطور فقال في  
نفسه :

— لا شك أن هذا الشاعر غير أهله كما يتوهم بعبه ، فإنه عرف  
عني لأول وهلة ما لا يعرفه هو طيلة حياته ، بل ما لا يعرفه  
سواي . ثم قال للشاعر :

— لا يوجد ملك في فينيسيا ولن يوجد فيها ملوك . ولكن  
لنعد إلى جان دي .مدسيس الشهير فإنني أظن أنك غارقته لسبب  
آخر غير السبب الذي ذكرته .

— إن السبب شخصي محض يا سيدي ، فإن جان دي .مدسيس  
التبيل لا يعيش إلا في ساحات المارك ولا يتشوق المرء من سوله  
غير رائحة البارود ولا يسمع غير دوي الطلقات بحيث يكون  
معرضاً في عشرته لأشد الأخطار في كل يوم .

— تريد أن تقول إنك لا تحب الحروب ؟

— ليس هذا الذي أعنيه يا سيدي ، فإنني لست من الحبشاة ،  
ولكن الحروب لا تروق لي .

— وعلى ذلك فلو طلبت إليك أن تعود إلى جان دي .مدسيس  
ألا تكون راضياً ؟

— دون شك يا مولاي ، ومن يزوق له أن يبرز مدينة الماء  
الساحرة إلى معامم القتال ، إلا إذا أراد مولاي أن يبعثني

بهمة فإنني أعدد نفسي عند ذلك سعيداً بأن أكون سفير الدوج  
قوسكاري إلى جان دي .مدسيس .

فنظر الدوج إلى بيو نظرة خفية أجابه عليها بيو بهز رأسه ،  
فأطرق الدوج هنيهة مفكراً ثم التفت إلى آريتان وقال له :

— ماذا أتيت تعمل في فينيسيا ؟

— أتيت لأتولى بعشرة قومها وأمتع بظرفهم وأديهم .

— أهذا كل قصدك ؟

— كلا ، بل أتيت أيضاً لالتباس الثروة .

— إنني أستطيع أن أعينك على قصدك .

— ياله من عمل صالح !

وعند ذلك تدخل بيو فقال مخاطباً الدوج : إسمع لي يا  
مولاي أن أقول لك إن صديقي بيار آريتان لا يقدر أن يقول  
عن نفسه ما أقوله عنه ، فهو لم يقتصر على أنه الشاعر المجيد التابع  
في كل مطلب بل هو الفيلسوف المفكر والذكي الحاذق والمجرب  
الخبير ، وهو يفهم بالإشارة وينقل الأفكار دون أن يضطر  
صاحبها إلى تدوينها بالأوراق . وقد امتاز ببلاسة التعبير وبقوة  
الإقناع وبخاطبة الناس على قدر عقولهم .

قال قوسكاري : إنني أعلم ما تقول ودليل ذلك أنني سأعبد  
إليه بهمة خطيرة . ومثل هذه المهمة ما كنت أعدد بها إلى سواك  
لولا أن أعمالك تقضي ببغائك في فينيسيا . وكفى بذلك دليلاً  
على مبلغ ثقتي به .

فأجابه آريتان قائلاً : لك يا سيد أن تعتبرني رسالة غتومة

لا يستطيع فضها غير صاحبها ، فإن مسا تقوله لي ينقش على صفحات قلبي ويصل إلى المرسل اليه . فأبستم الدوج وقال : إذن لم يبق إلا أن تعرف تكاليف شحن الرسالة . فأجابته الكردينال قائلا : لقد شغل الشعر صديقي عن الاهتمام بهذه الدنيا ، فهو يعلم أن ما سيناله من المجد يقضاه هذه المهمة لا يقابل معه جزاء ولا يذكر في جانبها مال . فلهج قلب الشاعر من الحزن وقال : ولكن إسمح لي يا سيدي ...

فقاطعه الكردينال قائلًا : نعم ، إن صديقي لا يبحث إلا عن المجد وخلود الذكر . فأجابته الشاعر قائلا وهو يبتسم : هو ذاك ، ولكني قبل أن أخلد أريد أن أعيش ! فقال الكردينال مخاطبًا الدوج : ولكن إذا كان شاعرنا الشير لا يحتفل بالمال وبضرويات الحياة المادية فإن الصداقة تقضي عليّ بأن أتولى عنه هذا الشأن ، ولذلك رأيت أن يعطى ألفي ريال قبل سفره ومثلهما عند عودته .

فوافق الدوج على ذلك وكتب حوالة بالثمن وخمسمائة ريال دفعها إلى الشاعر وقال له : سيكون لك مثلهما عند الرجوع . فأخذها الشاعر وقبض أبرقت عيناه بأشعة الفرح وقال : إني لا أستطيع مكافأتك على ثقتك بي .

— إنك ستذهب إلى جان دي مديس . وأمرع في سيرك ما أمكنت السرعة .

— سأسير الليل والنهار .

— كم تبلغ قوات الشيطان الأكبر ؟

— خمسة عشر ألفاً من حملة البنادق وأربعمائة ألف فارس وعشرة مدافع .

فابتسم فوسكاراي وقال : إذن قل له من قبل فوسكاراي ، دوج فينيسيا ، إنه يستخدم جيش وقواه الجريسة في أمور هي دون استحقاقه بمرحل . وإني أقترح عليه أن يكون بيننا محالفة ، فأقدم له عشرين ألف جندي بحيث يصبح عدد جنده مضاعفاً وإننا نستطيع بثل هذه القوة العظيمة أن ...

وهنا تردّد وتوقف عن إتمام جملة فأقبحا آريتان عنه وقال : إنك تشبه يا سيدي بهذه القوة سيد إيطاليا يجعلتها ، أليس هذا الذي تعنيه ؟ ثم أقول له إن الحروب ناشبة بين الولايات الإيطالية وإنما لا تستطيع مقاومة جيشك إذا اتفقا ...

— إنك لا محالة شديد الذكاء .. نعم قل له هذا القول وأضف إلى ذلك أني أنا فوسكاراي دوج فينيسيا أشجّل من أن أرى الولايات الإيطالية يمزق بعضها بعضاً ، وأن وادي بو الخصيب معرض للنهب في كل يوم ، وأن الأنهار الإيطالية تصنع مياهها يدماء الرجال ، وأن قد خطر لي خاطر عظيم أحب أن أطلعك عليه ...

— إنك ستكون يا سيدي في مأمن عليه .

— إن هذا الخطر العظيم جدّير بقائد عظيم مثل القائد مديس وجدير بأن أسهر عليه الليل والنهار ، فإني أريد توحيد البلاد الإيطالية .

— أتجعل يا سيدي البلاد الإيطالية مملكة واحدة ؟ الله



ما أشرف هذا الرأي وما أعظمه ، فإنه إذا تحقق اضطرب له العالم .

- إن فينيسيا سيدة إيطاليا لا يمكن توحيد البلاد إلا بها . وقد كفنا خدمة لأغراض الغير . وإرسال أساطيلنا لمساعدة الملوك ! إنه يجب بعد الآن أن نحارب بهذه الأساطيل في سبيل نهضتنا ، فإن فينيسيا سيدة البحار ولا بد لها أن تغدو سيدة إيطاليا وتنتزع من روما تلك السلطة . وما هي روما ؟ إنها ليست عظيمة إلا بإباضها ، فهي تشبه ذلك الشفق الذي يظهر قبل ظهور الشمس . وما هي فينيسيا ؟ إنها المستقبل ، نور الشمس الذي يتلو ذلك الشفق ! إنها هي التي تستطيع أن توقف ربح الحروب فتستولي على إيطاليا العليا ثم على إيطاليا بأكملها ثم تقف في وجه أوروبا فتقول :

- لقد كان في من قبل الشعر وسائر الفنون ! وأما الآن فلي القوة أيضا . فلتنبئ فرنسا وألمانيا عن قريبة في غير بلادنا .

أما إيطاليا فإنها تستطيع الدفاع عن نفسها .

هذا هو الخطر الذي خطر لي فما تقول فيه ؟

- أقول إنه أشرف خاطر وأعظم فكر سبقه إيطاليا ويقعدها .

- هو ذلك . غير أن الأمراء سيكونون من أخصامنا ، ولذلك يجب أن يدير هذا المشروع رجل مثلي وأن يتولى تنفيذه رجل حربي مثل مدميس .

- بماذا يجب أن أعده ؟

- بالقسم بعد الفوز : فهو يكون سيد روما وأنا أكون سيد فينيسيا فيكون له الجنوب وفي الشمال ويكون البابا بيننا . هذا هو مجمل خطتي . وأما تفصيلها فسنبحث فيه فيما بعد . إنما يجب أن أعلم قبل كل شيء إذا كانت الشيطان الأكبر يوافق على هذه المحاورة التي أقترحتها عليه . وهنا دقة مهمة ، إذ يجب أن تدبر غروره في البدء ونخبره عن هذه الحطة بطريقة الألغاز بحيث لا تكون قد كشفت له كل الحقيقة إذا لم تجد منه رغبة في قبول المشروع .

- إنني أخمن لك يا سيدي فوز المشروع ، فقد عرفت جان مدميس حق العرفان فتمت وإياه في خيمة واحدة وأكلت وإياه على مائدة واحدة وكان يكاشفني بكل ما يحول بأفكاره ، وفوق ذلك فإن هذا الرجل سليم التبع بسيط القلب ليس له غير لذة واحدة وهي لذة الحروب . وما زلت سائرا إليه ب مشروع حربي كبير فهو يقبله دون شك .

- إذن سافر بأقرب حين واعلم أن سعادة إيطاليا قصد أصبحت بين يديك . فقال آريست : بل في يدي ويدك . ثم انحنى وخرج مع ميو !

فما برح القصر قال له ميو : ماذا تقول في هذه الحادثة ؟ قال : أقول إن السر يساوي أكثر من خمسة آلاف ريال .

- صبراً أيها الصديق ، فإنك لا تزال في البدء .

- ليكون ما تريد فإنني معتمد عليك .

أمباريا ولكنه وجد أن الوقت المعلن لم يأت بعد فركب قارباً وأمر النوتي قائلاً : سرّ بي إلى حيث تريد وعند بي إلى هنا في الساعة التاسعة تماماً . قال النوتي : حسناً يا سيدي .

فارتطم بعمر لصوت ذلك البحار وجعل يتمعن فرآه يحذف دون اكتراث فاطمأن دون شك إذ جعل ينظر إلى المياه وإنما ينظر في الحقيقة إلى بيانكا بعين الخيال .

وفي الساعة التاسعة عاد به النوتي فصعد بمبو من القارب وذهب فوقف تحت نوافذ أمباريا وهو يقول في نفسه : ترى لماذا أراد هذا الرجل أن أكون هنا في الساعة التاسعة ؟

\*

في الساعة التاسعة والنصف كان سكوتير الشاعر آرثان ، أي رولاند ، يتحدث مع أمباريا . وقد سار بها إلى النافذة المشرقة على المكان الذي كان الكردينال واقفاً فيه فدلّها على بمبو وهو يسير ذهباً وإياباً على الرصيف . فارتعشت أمباريا وقالت : أهذا هو ؟ قال : نعم فهو يروى في كل ليلة تحت نوافذ بيتك ويتربص الفرصة المناسبة . قالت : أواه ، إنك وعدتني أن تنقذ ابنتي منه .

— سأنقذها إذا لم يكن قد فات الأوان .

فجمد الدم في عروق المحطية وقالت : ماذا تعني بذلك ؟ قال : أتحسين أنه يروى حول المنزل ليناجي بقرانه النجوم ... كلا ، بل إنه بعد غطة أخافت أن يتمكن من إنقاذها بعد يومين

## المغارة السوداء

\*

عندما عاد بمبو إلى قصره لم يتبقه لرجلين كانا قد تبعاه إلى سراي الدوج ثم اقتفيا أثره إلى باب منزله . وهناك لقيها رجل كان لا يلبس ملابس البحارة فاستوقفها وسأل أحدهما قائلاً : ماذا حدث ؟ قال : إنه ذهب إلى قصر الدوج !

— وحده ؟

— كلا ، بل كان يصحبه الشاعر ولكنه حين عاد عاد وحده . — يجب أن تبالغا في مراقبته ولا تنسها الساعة الحادية عشرة والعلامة المتفق عليها . والآن أين السفينة ؟ — إنها راسية أمام قصر أمباريا .

فأظهر البحار إشارة رضى وانصرف عنها .

وقد مرّ ذلك النهار على بمبو دون حادث ، ولكن ساعاته لديه كانت تشبه الأيام بطولها ، إذ لم يكن يحول في خاطره غير فكر واحد وهو بيانكا .

وفي الساعة الثامنة من المساء لبس بمبو ملابسه وتسلح بالسلاح ثم اتشح بوشاح وخرج من القصر فسار توجاً إلى قصر

أو ثلاثة أيام . ولكن سأبدأ منذ الغد . فضمت يديها وقالت له  
بلهجة التوسل : أنقذ ابنتي .

قال : لقد قلت لك يا سيدي إن ابنتك ستنجو غداً فوجئتني  
أن لا يكون قد فات الأوان ، فإن مثل الكردينال قد يأتي يا  
لا يكون في الحسبان .

وعند ذلك دقت الساعة العاشرة فاستأذن رولاند من أمباريا  
وذهب إلى القارب فارتدى ثوب النوبي الذي كان يلبسه حين  
سار بالكردينال منذ ساعة . وعند ذلك طاف حولي القصر  
فوجد أن جميع نوافذه مغلقة ورأى بيو واقفاً تحت إحدىها وهو  
جماد جمود الأصنام .

أما أمباريا فإنها بعد أن ذهب رولاند عادت إلى تلك  
النافذة ورأت بيو لا يزال مترصباً في مكانه وقد وقف وقفة  
الوحش الضاري يتربص الفريسة ، فملع قلبها من الخوف وقالت  
في نفسها : لمن عساني أشكو ؟ ألفوسكارى وأليباري وقد طالما  
أخافاني كما أخافني هذا الكردينال ؟ وعند ذلك أخذت مصباحاً  
وذهبت إلى حيث تقف بنتها .

ولم تكن بيانكا ثابتة بعيداً فلما رأت أمها داخله أسرع  
إليها فعاتبتها أمها وهي تقول لها : ألا تخافين يا ابنتي أن يتملك  
السر ؟ قالت : إني كنت أنتظر أن تأتي إلي كما كنت تأتيين في  
كل مساء .

— إذن أنت غير حافدة علي ؟

— كيف أحقد عليك يا أماء ؟ ولكنك لو أصغيت إلي  
لسافرتي في الحال .

فقطبت أمباريا حاجبها ثم قالت : نعم يا ابنتي سنسافر في  
أقرب حين .

وعند ذلك كسر زجاج النافذة فجاء ودخل منها رجلان  
فوثبا إلى الغرفة ثم وثب إليهما إثنان آخران فصاحت أمباريا  
صيحة رعب وهزولت إلى الباب لمناذاة الخدم ولكن الباب كان  
مقفلاً من الخارج . فهمت أن تصيح ولكن قبل أن يخرج الكلام  
من فمها انقض عليها رجلان فوضعا كمامة في فمها وأحكما وثاقها .  
أما بيانكا فإنها صاحت صيحة رعب هائلة ، ولما رأت ما  
حل بأمها جعلت تصيح مستغيثة فدخلها الرجال الأربعة  
وخرجوا بها من النافذة فأثنت أمباريا أنين المروع إذ لم تكن  
تستطيع أن تستغيث وأغمي عليها . ولما عادت إلى رشدها بعد  
هنية رأت خادمات بنتها قد فككن قيودها ، لم تجد بنتها ،  
فتنادت نداء يفتت الأكباد وأسهرت إلى تلك النافذة قرأت سلفاً  
معلماً وهو السلم الذي علقه أولئك الذين اختطفوا ابنتها فصاحت  
صيحة منكرة خرج بها اسم بيو وحده من فمها .

\*

كان رولاند عند أسفل ذلك السلم حاملاً بيانكا وهي تكاد  
تجنّ من رعبها وهو يقول لها :  
— لا تخشي يا ابنتي فقد وعدتك أن أنقذك وقد أنقذتك .

فعرفت بيانكا صوت ذلك الرجل الخنوث واطمأنت إليه وقالت : وأمي ؟ فارتعش رولاند وقال لها : ثق يا ابنتي فلا خوف عليك ولا على أمك .

وعند ذلك سار بها إلى قارب فوضعا تحت خيمة وقال لها : سأعود إليك قريباً فلا تجزعي . فقضت يديها وقالت له : أواه ! لا تفركني . قال : ذلك لا بد منه يا ابنتي ، وسنجتمع قريباً . أما الآن فإني أعهد بك إلى هذا الرجل الذي تريد فتقي به كما تثقين بابيك . قالت : بآي ؟ ثم نظرت إلى ذلك الرجل فوجدت رجلاً هائل الخلق كان ينظر إليها نظرات مأوفا الخنوث .

وعند ذلك سار القارب مسرعاً وكان رولاند قد وثب إلى قارب مجاور وأمر النوتيّة أن يقفوا به إلى قارب بيانكا فسار به ذلك القارب ، ولما مر بقصر أمباريا سمع في ذلك الليل الساكن صوت أمباريا تقول بلهجة الأس « ببوه قابنتم ابتسامه هائلة ونظر إلى قعر السفينة فقال لرجل كان مقيداً فيها :

— أسمعتم يا ببوه ؟ إن هذا صوت أمباريا تلمنك وتنتقم عليك . إنه صوت أم تتعت عن بلتها التي اختطفتها ، والويل لك إذا اجتمعت بك بعد الآن .

وكان هذا الرجل اللقيد الكردينال ببوه نفسه ، فأجابه بصوت لم يعلم إذا كان أتيئاً أو إنذاراً ، فان الكسامة كانت في فيه ، ولكن رولاند لم يحبه . واستمر القارب مسرعاً في مسره إلى أن وصل إلى ميناء ليند والتصق بسفينة كبرى كانت تلتظر فيها .

وبعد هنيهة كان رولاند والكردينال وبيانكا وسكالا يرينو على ظهر تلك السفينة . فقال رولاند لسكالا يرينو : يجب الآن أن نعود إلى فيليسيا فنذهب إلى بيار آرستان ونقول له إنه يجب أن يتنظر في مها حدث . فتنظر سكالا يرينو نظرة وداع إلى بيانكا وعاد إلى القارب .

أما ببوه فإنهم ألقوه وهو مقيد في عنبر السفينة فأطبق عيبيه ولم يعد يتحرك حتى خيل للناظر إليه أنه مغمي عليه . ولكن الحقيقة أنه كان يفكر بمصره .

وأما رولاند فإنه أدخل بيانكا إلى غرفة الزبان وأخذ يدها بين يديه وقال لها بلهجة الأب الخنوث : لقد اضطرت يا ابنتي إلى استعمال هذه الوسيلة العتيقة لإنقاذك من الخطر الذي كان يتهددك أما الآن فقد زال الخطر بإذن الله . قالت : وهذا الرجل الذي لقيته ؟ قال : اطمئني فقد نجوت منه . فإن هذا الرجل ذو سلطة عظيمة فلم أجد بداً من إخراجك من فيليسيا لحمايتك منه دون أن يعلم أحد ما جرى لك .

— حتى أمي ؟

— حتى أمك !

فسالت الدموع من عيني الفتاة لأنها لم تكن تفهم شيئاً عما كان يقال لها ولكنها كانت واثقة بأن أمها لا تستطيع إنقاذها من الخطر الذي كان يتهددها كما أنقذها هذا الرجل الذي كانت كل كلمة منه تؤيدها به وثوقاً .

أما رولاند فإنه خرج من عندها إلى ظهر السفينة التي كانت



قد خرجت من الميناء وسارت إلى جهة الشمال فجعل يسير ذهاباً وإياباً وعلائم الاضطراب بادية عليه فيقول : إذن ، هذه الفتاة بل هذه الملك تحب أمها حباً عظيماً ، فهل يحق لي أن أفلق راحتها للانتقام من أمها ؟ وهل يحق لي أن أفترق بين الأم وبناتها لأن الأم أئيمة ؟ وهل يحق لي أن أبكي البنت لأني أريد أن تبكي الأم ؟

ثم جعل ينظر إلى أمواج الأديرياتك التي كانت تتكسر على السفينة وهي تشق عياب البحر فقال : ولكن ألعلمهم أشقوا عليّ عندما افتزعوني لبسة خطيئة من نعيمي والقوني في سجن تفضله جهنم . وعندما أرادت أمباريا أن تبكي ، ألعلمها أشققت وخطر لها أنه يوجد أيضاً من يبكي لبكائي ؟ وهل خطر هؤلاء حين انتقموا مني أنهم ينتقمون أيضاً من أبي وأمي ؟ وهنا أن اثنين الموجه وقال : ولا أقول شيئاً عن تلك ..

فإنها تعزت بالسوان وبزواجها سواي ... وقد تنهد عند ذلك تنهداً عميقاً له صدره والتفت إلى جهة فينيسيا فرأى أنها قد توارت عن الأنظار فعاد إلى السير فوق ظهر تلك السفينة وقد حقق قلبه فوق خفوقها واضطرب عقله أكثر من اضطراب الأمواج المزبدة حولها .

ومما زال على ذلك حتى انبثق الفجر فجاء ريان السفينة وقال له : أيجب أن تظهر تلك العلامة أمها الرئيس ؟ قال : نعم . فأمرع الريان فوضع نوراً في أعلى الصاري ثم أطلق من بندقيته ثلاث طلقات في الهواء فلم تكن غير لحظة حتى أجيب

بنلها من البر فقال : إذن تستطيع أن تنزل إلى البر .

وعند ذلك أمر بإلقاء المراسي وحل القلوع وعاد إلى رولاند فقال له : أيجب أن أنتظر هنا يا سيدي الرئيس ؟ قال : كلا ، بل تعود إلى فينيسيا .

وبعد هنية أنزلوا قارباً إلى البر فأولوا إليه ببو وهو مكوم القم مكتوف اليدين والرجلين وذهبوا به إلى البر . وكان هناك مركبة يهودين تنتظر فحملوه إلى المركبة وانطلقت به تسابق الرياح .

وعند ذلك عاد القارب إلى السفينة فأولوا بياثكا ونزل رولاند فجلس بجانبها فسار بها إلى البر ، وهناك كانت مركبة أيضاً تنتظر فسارت المركبة بها وعند الساعة التاسعة من الصباح دخلت بهسا إلى مدينة صغيرة ووقفت بأمر رولاند عند باب منزل صغير .

وكان هذا المنزل نفس المنزل الذي وضع فيه رولاند جوانا وأباه ، فأقام فيه ساعتين وغادره تاركاً فيه بياثكا وجوانا وأباه . وقد امتلأ جواداً وسار في طريق تريفيز ثم في طريق تريفيزا حتى وصل إلى مغاور بياثا .

وكان يمر خلال مديرة ثارة براع يرعى خرافه وقارة بفلاح يظهر أنه يعالج زرع قيشير لمن يراه منها إشارة فيقف لها مسرعاً فيظهر أنه مدجج بالسلاح .

وما زال على ذلك إلى أن ترجل عن جواده عند باب المغارة السوداء ودخل إليها فوجد فلاحاً مسلحاً يحرس بابها فقال له :

هل جاؤوا بالرجل؟ قال: نعم أيها الرئيس!

— أوّضوه في القاعة التي أرشدتهم إليها؟

— نعم!

— ألم يحدث شيء جديد في الضواحي؟

— كلا، سوى أن ساندريجو عاد إلى الظهور فيها وقد أفلت

أيضاً هذه المرة.

فتركه رولاند ودخل إلى المغارة فسار فيها بضع خطوات

ثم نزل في سلم إلى باطن الأرض وهناك أسرع حارس إلى إثارة

مصباح فقال له رولاند: هل أتى الزعماء؟ قال: نعم أيها

الرئيس! قال: حسناً، فقل لهم أن يعصروا.

فامتثل الحارس وأخذ رولاند المصباح بيده وتفقّد في اليد

الأخرى خنجره ثم فتح باباً ودخل منه إلى قاعة مظلمة تشبه

السجون فمحصها وهو يتنصّر وقال: لقد أتقنت صنع هذا السجن

حتى بات يشبه سجني القديم أتم الشبه، وهذا بابُه فقد صفحته

بالحديد كما كان ذلك الباب الذي طالما آدميت يدي في محاولة

فتحه. وهذا الخبز الأسود.. وهذا يريق الماء.. وهذا السرير

الحجري الذي كنت أنام عليه.. وهذه الجدران المظلمة الرهيبة..

إن كل ذلك يشبه السجن الذي كنت فيه!

وعند ذلك دخل ستة رجال إلى السجن فعلق رولاند

المصباح في جداره وقال: هاؤا الأسير!

وبعد هنيهة أقبل اثنتان يحملان ذلك الأسير وألقياه فوق

السرير الحجري وهو ينظر إلى ما حواليه نظرات ذعر لا توصف

وقد كاد يحنّ من الرعب. ولكنه ما لبث أن استأنس بالظلام

فقال لأولئك المحيطين به: ماذا تريدون مني؟ فأجابه رولاند

قائلاً: سوف تعلم يا بيبو!

قتلتم لسان بيبو من الخوف وقال: سكربتير آريتان...

أراه! لقد حدثني قلبي بأن هذا الرجل شؤم عليّ.

وقد رفع عينيه إلى السماء كأنه يلتصق بعون الله ثم نظر إلى

سكربتير آريتان وهو واقف قرب المصباح فلم يكدر براه هذه

المرّة حتى وقف شعر رأسه وجد الدم في عروقه وصاح صبيحة

تثل بها الرعب فقال: وبلاء إنه هو!

فقال رولاند لرفاقه: فكوا الآن قبوره.

فامتثلوا، وتراجع بيبو إلى زاوية السجن كأنه يريد الفرار

من نظرات رولاند، ولكن رولاند سار إليه وقال بلهجة كثيفة:

— أتمرقي يا بيبو؟

فأجابه بصوت أجش:

— رولاند كانديانو!

وعند ذلك سقط جاثياً على ركبتيه وبسط يديه أمامه

وهو يقول: رحماك أعف عني! قال رولاند: أرى أنك عرفتني

الآن؟

— رحماك.. رحماك.. نعم نعم لقد ارتكبت جناية عظيمة

ولكنك كنت تحبني وكنت مثال المروءة فاعف عني!

قال رولاند: سوف نرى. ثم التفت إلى الزعماء وقال لهم:

— أيها الرفاق، إني دعوتكم لتكونوا قضاة هذا الرجل

ولتكفروا شهوداً على ما سأصنعه به .

إنكم أيها الرفاق تمشون غير متيقنين بشريعة ، وهذا الرجل يثلمها ، وإنكم تقاتلون الأغنياء دون أن تكونوا حاقدين عليهم لأنكم تحبون استقلالكم فوق ما تحبون حياتكم .

على أن هذا الرجل قد سارب في معترك الحياة يدفعه قلب مأوؤ الحقد ، وإنما بسطت هذه المقدمة لتعلموا أنكم أضرف قلوباً وأظهر نفوساً من هذا الغني وأمثاله .

وعند ذلك أخذ رولاند يحدثهم بسلطان ، فكان الجميع يصفون إليه أتم الإصفاء ويمجدون لأقواله التي لم يسمعوها مثلاً قبل الآن ورواحون إليها كل الإرتياح ، ولا سيما حين يذكر لهم كلفة الاستقلال فإنهم كانوا يتكبرون بها وهم كانوا زعماء عصايات اللصوص الذين ألقوا الرعب في القلوب وتحدث بنوادهم الركباني .

إن هذه العصايات كانت سائدة في الجبال والسهول يسلبون وينهبون ويهيمون غير هيأين ويجهلون كل ما يوجد في المدن من الدين والشرائع والنظام والبوليس والضرائب . ولكنهم كانوا عادلين بالطبع طيبين بالقطرة لا ينهبون مال الغني إلا لحاجتهم إلى ذلك المال ، ولا يسبون إليه بغير ماله إلا لأحاجة لهم بغير هذا المال ، ولا يهقدون على الجثث فإذا قاتلوهم فإنهم يقاتلونهم مدافعين وإذا تمكنوا منهم لا يتكلمون بهم بل يطلقون سراحيهم مكثفين بما أدر كوه من الفوز .

ولذلك فهموا لأول وهلة كل ما كان يقول لهم رولاند ورافقوا

عليه بل الرضى لأنه كان يخاطبهم على قدر عقولهم ويحدثهم بما يوافق أهواء نفوسهم .

حتى إذا آنس منهم ذلك الرضى سكنت قلوبهم ثم استأنف الحديث فقال :

— إن رجلاً منكم طاهر القلب شجاع النفس شديد الرضاة على أعدائكم كثير الرقى بالفقر عظيم الجور على الظالم جاء يوماً إلى فينيسيا ووقف بكلام هذا الأمير الواقف بينكم فكان جزاء هذه الثقة أنه عذبته ستة أعوام عذاب الشهداء !

أما هذا الرجل فهو سكالاً برينو !  
وكنيت في ذلك العهد أعرف بيو ، وكنيت غنياً قادراً ، فكنت أرى بيو فقيراً معدماً لا نصير له فأشفقت عليه وجعلته في عداد أصدقائي وأحببت الرجاء في قلبه بعد اليأس فكانت مميري في مجالسي وشريكي في أفراحي ، وإنما اختارته دون سواه لتغلبني جميع الناس عنه وتغورهم منه ، فمأش يفضلي أفضل عيش وصار له بين الناس مقام . أتعملون كيف كافاني هذا الرجل عن إحساني إليه ؟

إنه فقا عيتني أبي وشيئره عجنونا وقتل أمي ياماً وحسبني ستة أعوام في قبر ، وأبعدني عن خطيبي وحملها على هجراني بحيث أصبحت أشقى عباد الله بعد أن كنت أسعدهم .

فلما أتيح لي الخروج من سجنني قبضت على هذا الرجل وهو يتأهب لجرمة جديدة أشد قسوة من جرائم السابقة ، فهاذا يجب أن أعاقبه ؟

فصاح يعبو قائلاً : العفو العفو !

وقال أحد الزعماء : ليمت ! فواقفه آخرون .

فقال رولاند : ليمت كما تقولون ، ولكن يجب أن يلقى من العذاب مسا لقيته بسببه ، وأن يموت قانطاً في شبه ذلك السجن الذي أزلني إليه ، وأنت يموت وهو يعلم أن تلك الفتاة الطاهرة النقية التي تجاسر على أن يحبها لن تكون له أبداً .

ثم مشى إلى يعبو وقال له : يعبو ، إني أعفو عن قتلك كما عفوت عن قتلي من قبل ... يعبو ، إني حكمت عليك أن تعيش في هذا السجن كما حكمت عليّ أن أعيش في تلك الآبار .

فقال يعبو : ولكنك تظنني ، فإني لم أرتكب الجريمة وحدي . فاصف وجه رولاند من الغضب وقال : صبراً يا يعبو ، فإن شركاءك فوسكارى وألتباري ودندولو سيجيء دورهم !

قال : رحماك دعني ، أرجوك !

فأشار رولاند إلى الزعماء فخرجوا ، ثم نظر النظرة الأخيرة إلى يعبو وخرج في أثرهم ثم أقفل ذلك الباب الضخم المصنح بالحديد ، فلبث يعبو وحده في ذلك السجن الرهيب المظلم وذكر لغوره ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى سجن رولاند متنكرأ بزي كاهن وما شعر به من الفرح حين علم عذابه ، فتنهد تنهداً خرج من صدره كالزئير ووثب إلى الباب يحتمسه بأظفاره ثم انقلب على نقاه مغنياً عليه .

ساندريجو

\*

بعد أن أقفل رولاند ذلك الباب سار مسرعاً إلى غرفة مقابلة لباب السجن ، وهي غرفة صغيرة كان قد دخل إليها الزعماء الستة ، وقد فُتح في أحد جدرانها خرق شبه خزانة وضع فيه عدة صناديق . فقال لهم رولاند : يجب أن أعود مسرعاً إلى فيليسيا فتوافقوني إليها فتحدث هناك . والآت أخبروني كم غشنا من الحملة الأخيرة ؟

قال أحد الزعماء : ثلاثة آلاف ريال . وقال آخر : عشرة . وقال سواه : سبعة . وقد حسبوا كل ما غنموه فبلغ أربعين ألف ريال . قال : حسناً أحضروا لي عشرين ألف ريال ويكفي أن تضعوها في سفينتنا الكبرى .

وقد خلاهم ربح ساعة كانوا يعجبون في خلالها برئيسهم الأكبر أعظم إعجاب . وبعد ذلك امتطى جواده وسار في طريق ميستر فوصل إليها عند هبوط الظلام .

وكان رجل يتبعه على قيد مني خطوة دون أن يراه رولاند ، فلما تربعل رولاند عن جواده تربعل الرجل أيضاً فربط جواده



إلى شجرة وتبع رولاند حتى رآه قد دخل إلى منزل فلبث كل تلك الليلة يراقب ذلك المنزل .

وعند الفجر رأى رولاند قد خرج من المنزل تصعبه امرأة كان يكفلها بصوت متخفص ثم اعتلى جواده وسار في طريق البحيرات . وكان هذا الرجل ساندريجو ، فقال في نفسه : إن هذه جوانا ، فماذا تصنع هنا ؟

وعند ذلك أسرع إلى جواده وسار في أثر رولاند ، ولكنه لم يستطع إدراكه هذه المرة . فرجع عنه وهو يقول في نفسه : إنه ذاهب إلى فينسيا دون شك ، فلأعقب الآن إلى جوانا كي أعلم ماذا تصنع في ميسر وفي هذا المكان المعتزل ؟ وقد أقام كل ذلك اليوم يرود حول المنزل دون أن يراه أحد وفي المساء سار هو أيضاً في طريق فينسيا .

\*

نلتقل الآن بأذهان القراء إلى قصر دندولو ، رئيس مجلس التفتيش ، وذلك في الساعة العاشرة من المساء . حينئذ كان دندولو يحاول أن ينام في تلك الساعة دخل إليه خادم غرغه وقال له : إن على الباب يا سيدي رجلاً يريد أن يكلمك في شأن خطير . فأمر دندولو بإدخاله وبإدراجه بؤاله : من أنت ؟ فانتزع الرجل خنجره وغدّارته فالتفهما على مقعد وقال : إني يا مولاي أدعى ساندريجو ، وأنا اللص الشهير الذي كنت رفيق سكالابرينو . وقد أتيت أسلم نفسي إليك ، ولكن لي بعض شروط أقترحها .

فتظرو دندولو إليه نظرة المتذلل وقال : أتكون هذه منزلتك وتحبيني بشرط ؟

— وما بدعوك إلى العجب يا مولاي ؟ فإني لست أسيراً بل أنا أسير ببعض إرادتي . أنت لا تقبض علي إلا إذا كنت أريد ، فإذا كنت أتيت وسلمت نفسي فما ذلك إلا لأنني أردت أن أعزل الجبال وأعيش عيش أشرف الناس .

فقال دندولو في نفسه : إني أعجب كيف يستطيع اللصوص أن يكونوا من الأشراف .

وأتم ساندريجو حديثه فقال : وقوق ذلك ، فإنك إن قبضت علي لا تعلم شيئاً مما أتيت لأقوله لك .

فتأق دندولو إلى معرفة ما يريد أن يخبره به فقال له : حسن ، فإني أوافقك على الخابرة ما زلت رغبت عن سيرتك السابقة ، فقل إذن ما تريد قوله وأوجز في القول . قال : أول ما أسأله ضمانة حياتي وحررتي يمين قسمها لي . قال : أقسم لك بأن أبقي على حريتك وحياتك ، وبعد ذلك ؟

قال ساندريجو : إنك يا سيدي رئيس ديوان التفتيش في فينسيا ، أي أنك أعظم عظيم فيها ، فإنك بكلمة تخرج من فمك ترسل أشد الناس نفوذاً إلى آبار السجون . أما أنا يا سيدي فلست من العظام القادرين وما أنا غير لص بل إن رجالي قد ثاروا علي فأصبحت ضعيفاً في الجبال كما أفي ضعيف هنا .

— إذن لقد اتضح سرّ قوتك .

— إني غير تادم يا سيدي فلا يندم غير الجبناء ، ولكني أنا

ساندريجو الزعيم دون عصابة والملك دون جيش أستطيع أن  
أخدم الجمهورية خدمة جليلة لا يستطيع أن يخدمها بها سواي .  
وأنا أطلب مكافأة عن هذه الخدمة .

— قل ماذا تريد ... تريد مالا ؟

فهرز ساندريجو رأسه وقال : سأقول لك يا سيدي ما أريده .  
أما الآن فيجب أن تعرف مقدار هذه الخدمة الجليلة التي سأؤديها  
لجمهورية ذلك وللدوج نلس ...

وهنا توقف هذا اللص متنبها كأنه خشي مقبلة خيافته . ولكن  
ذلك لم يطل فعاد إلى حديثه فقال : لقد قلت لك يا مولاي إن  
رجائي ثاروا علي واختاروا زعيما غري . ولكن هذا الزعيم  
يخضع لرجل يخضع له جميع الزعماء إذ هو الرئيس الأكبر لمصابات  
الجبال والسهول . وقد امتدت سلطة هذا الرئيس في زمن وجيز  
من جبال الألب إلى أديج ومن تريستا إلى أوفيجر ، أي أنه يحيط  
بفينيسيا بشكل نصف دائرة متسعة . ولكن هذه الدائرة أخذت  
بالضيق كل يوم .

فذهل دندولو وقال : كيف عرفت ذلك ؟

— عرفت لحقدي على رفاقي القدماء ، فما زلت أترقب وأسأل  
وأتحسس حتى وقتت على الحقيقة . فإن المصابات الخاضعة الآن  
لهذا الرجل يبلغ عدده رجالها ثلاثة آلاف .

— إنها بمثابة جيش !

— لقد أصبحت يا سيدي بهذا التشبيه ، فإن هذا الرجل الذي  
يلقبونه بالرئيس الأعظم يشبه أيضاً قائد الجيوش ، فإنه قد درب

رجال عصاباته كما يدربون الجنود بحيث لم يعد واحد منهم يأتي  
بأمر من تلقاء نفسه . وقد تمكن من تدريبهم وتنظيم أمورهم في  
مدة ثلاثة أشهر فقط .

— ثلاثة أشهر فقط ؟ إذن إنه رجل شديد وله جيش هائل !  
ولكن بآية قوة نال هذه الزعامة الكبرى ؟

— بقوة الكلام يا سيدي . فإنه يلقي عليهم الخطاب الرجز  
با ينطبق على أهواء نفوسهم فيشير كوامن أسقادم على الحكومة  
ويجمع كلمتهم على طاعته لا سيما حين يكلمهم عن الاستقلال  
والحرية والفتوحات .

— ماذا يُدعى هذا الرجل يا ساندريجو ؟ قل اسمه إذا أردت  
أن تستحق المكافأة .

— سأذكرك لك يا مولاي بعد أن أبيت لك مشروع هذا  
الرجل ، فإن عصاباته لا تشبه الآن عصابات اللصوص الماضية ولا  
تقطع الطرق على الناس بل إن زعيمها يفرض الضرائب على من  
يختارهم من الأمراء والدوقات ويرسل شرائم رجاله يقبضون  
هذه الضرائب . ولهم الآن خزينة خاصة لم أكتشف مكانها  
لنكد الطالع . ولهم الآن عدة سفن كبرى تشبه بمجموعها  
الأسطول . أتعمل ماذا يريد أن يصنع بهذا المال وهذا الجيش  
وهذا الأسطول ؟

فارتعش دندولو وقال : ماذا يريد أن يصنع ؟

— إنه يريد أن يستولي على فينيسيا يا مولاي . فاحذر لنفك  
وقد أتيت أنا اللص لأخبرك أن الجمهورية في أشد خطر من هذا

الرجل ، فإذا لم تقبض عليه قبض عليها .

— قل ما اسمه ... اسمه ؟

— صبراً يا مولاي ، فإني غيرك في البدء باسم الرجل الذي  
سلبتي زعامة عصائتي .

— من هو ؟

— إنه يدعى سكالا برينو يا مولاي .

فاصبر وجه دندولو ولم يعد يسأله عن اسم الزعيم الأكبر إذ  
كان يرن في أذنيه . ولكن ساندريجو لم يدعه يسأله فقال له :  
وأما الزعيم الأكبر يا مولاي فهو رولاند كغنديانو .

فقال دندولو في نفسه : يا للهول ! فقد كنت أحب أن  
رولاند قد رح فليسيا إلى الأبد يوم قتلت ذلك الجاسوس الذي  
كان يعرف مكانه . إذن لقد ذهب هذا القتل سدى ! فقد جاء  
رجل آخر يشي به ويرشد إلى مكانه .

وعند ذلك التفت إلى ساندريجو وقال له : إنك خدمت  
الجمهورية . وخدمتني خدمة جليلة وقد بقي عليك أن تعين  
المكافأة التي تريد ، فإنك لا تريد مالاً كما تقول !

— إنفسك يا سيدي سترسل دون شك بضع فرق تقبض على  
رولاند وسكالا برينو .

— ذلك لا ريب فيه !

— إذن فاعلم أنه لا حاجة إلى إرسال من يتعقب رولاند في  
الجبال !

— لماذا ؟

— لأنه في فيليسيا ، فما عليك إلا أن تقبض عليه !

فقال له دندولو بلهجة القناطين : أين هو ؟

— لا أعلم ، ولكنني أعرف رجالاً لو علموا أنه هنا لما كانت  
قضي ثلاثة أيام حتى يقبضوا عليه .

فتنفس دندولو الصعداء إذ بات يستطيع الآن أن يتمتع بضع  
ساعات قبل أن يعزم على أمر جازم فقال : ولكنك لم تذكر  
مكافأتك بعد ؟ قال : إن مكافأتي لا تتحملون بها خسارة  
كبيرة . وكل ما أسأله هو أن تأذنوا لي ، حين تعرفون موضع  
رولاند ، أن أتولى قيادة الذين يقبضون عليه .

— أهذا كل ما تطلب ؟

— نعم يا سيدي هذا كل ما أطلبه عن رولاند ، ولكن بقي  
سكالا برينو ...

— ماذا تطلب عن هذا الرجل .

— أطلب أن أقف مع الجلاء وأعينه على إعدامه يوم تحكون  
عليه بالإعدام فإني أحب أن أقول له كلمة لا قيمة لها إلا في ذلك  
الموقف .

— سنمنحك كل ما طلبت ، والآن قل لي أين أجدهك حين  
أحتاج إليك .

— إنك حين تحتاج إلي يا سيدي تقف في نافذة غرفتك  
المطلّة على القرعة فتجد نوتياً جالساً في قارب تحتها وهو لا  
يفارق هذا المكان ، فتدعوه وتذكر له اسمي فلا يمضي ربع  
ساعة حتى أكون ماثلاً لديك .

— حسناً فاذهب الآن في شأنك وخذ غداً رثك وخنجرك .  
فتقلت اللص خنجره وغدا رثه وانصرف دون أن يلتفت إلى  
ورائه . أما دندولو فقد بقي وحده .

## إمرأتان

\*

لقد كان ساندريجو صادقاً في ما رواه فإن رولاند عساده إلى  
قيليسيا حيث كان سكالا برينو ينتظره يخرج لا يوصف .  
وقد كان يحترمه احتراماً عظيماً حتى أنه حين لقيه لم يحسّر  
على سؤاله فأصدر إليه رولاند بعض أوامر كي يبلّثها إلى رجال  
العصابات المقيمين في فيليسيا ثم وقف أمام المرأة فقهر شكله إذ  
بات من البارعين بالتشكر حتى أنه حين يتنكر لا يعرفه من  
خلصائه أحد .

فلما تم تنكره نظر إلى سكالا برينو وقال له : ما بالك لم  
تسألني عن نتائج رحلتي ؟ فارتطمس سكالا برينو وقال : ماذا تعني  
بذلك يا مولاي ؟

قال : إني هنا منذ ساعة وأنت تكاد تذب شوقاً إلى معرفة  
أنباء بيانكا .

— هذا أكيد يا مولاي .

— ألحظ إذن ببتك مع أنك لم تكن تراها ؟ ولكن جالها  
بدهش العقول بحيث أن من ينظر إليها نظرة واحدة لا يبرح  
خيالها ذهنه .

— أواه يا مولاي ! إني أؤثر أن تكون قبضة الوجه فابت  
جالها برعبي وأخاف أن يكون شوقاً عليها . أما إذا كانت غير  
حسنة فإنها تكون يجمعتها لي . وما قولك في أني أحبها ؟ فإني لا  
أعلم حق العلم ما أشعر به ، فإن قلبي لم يلجئ مثل هذه العاطفة في  
حياتي ، وإني أشعر بأنه يحقق هذا الحق لأول مرة ، بل أشعر  
أنني لم أعد وحدي في هذا الوجود وأنني أصبحت معلقة بهذه  
الفتاة التي هي بضعة من دمي .

وسكت هنيهة ثم قال :

— أألمتها الآن في مأمن يا مولاي ؟

فتنظر رولاند إليه محققاً دون أن يجيبه على سؤاله وسأله  
قائلاً :

— وإذا قلت لك إنه لا يجب أن تراها بعد الآن ، وإته يجب  
علينا أن نهرج هذه الأوطان ، بل إذا قلت لك يا سكالا برينو  
إن حياتي باتت شقية في قيليسيا وإنه لا بد لي من الذهاب إلى  
أقصى بلاد المعمور ، وإني في حاجة إلى صديق وفي خلص مثلك  
بمعني وقاؤه عن أن ألهن الإنسانية إلى أن تنقضي أجزائي بانهضاء  
حياتي . نعم إذا قلت لك إنه يوجد سفينة تنتظرنا هذه الليلة  
للسفر فماذا تقول ؟ أجب يا سكالا برينو بما يوحيه إليك قلبك



فقد تركت لك مطلق الخبر ١

فاصر وجهه سكالاً يرينو ولكنه أجابه لفوره قائلاً :  
مولاي إنك أنشأتني وجعلتني رجلاً فوهبتك نفسي والمرء لا  
يب ما يملكه مرتين . فمر يا مولاي أمثل .

وكان الجهد الذي بذله كي ينتج عن البكاء ظاهراً للعيات  
فأخذ رولاند بيده وقال له بلهجة حنو : إنك صديق مخلص  
ورقيق أمين لا تخدع ولا تخون . أعجب ابتك وهي ستعجبك  
أيضاً ، فقد خبرت أخلاقها ورأيت من جمال نفسها ما يزيد على  
جمال وجهها . ولقد ينذر أن تجمع امرأة بين هذين الجمالين .  
ومثل هذه المرأة تكون أعظم من كوز الأرض . أما أنا فلم  
أدخل أبواب هذا النعم وهبات أن يظفر الرجال بمثل هذه  
الأمنية فما ابتك إلا من شواة النساء .

ثم هز رأسه كأنه يحاول نفي تلك الأفكار المحزنة التي  
تسلطت عليه ، وتابع يقول :

- إن ابتك الآن مقبلة مع أبي وجوانا ، فكل منا خطر  
لك أن تراها تذهب إليها إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي ينتهي فيه  
علمنا من فينيسيا فلا نفوذ نفارق عنها .

فصاح سكالاً يرينو صيحة قرح وتركه رولاند يبكي لمروره  
وانصرف . وبعد نصف ساعة بلغ جزيرة أوليفو وسار إلى منزل  
دندولو فكانت المرة الأولى التي رأى فيها هذا المنزل في النهار  
بعد خروجه من السجن .

فلما دخل إليه تمالك نفسه بحيث لم يظهر عليه شيء من علائم

الاضطراب . وهناك استقبله شيخ يدعى فيليب وهو خادم قديم  
وكان رولاند يعرفه حق المعرفة ولكنه تجاهل معرفته وقال له :  
هل أنت صاحب هذا المنزل ؟ قال : كلا يا سيدي ، فما أنا إلا  
حارسه . ولكن إذا أحببت أن تستريح فيه فافعل فإن سيدي  
دندولو يحب ضيافة الغرباء .

فدخل رولاند إلى المنزل وجلس على مقعد فقال : إن المنزل  
جميل تتحدق به حديقة غناء ينذر وجود مثلها في فينيسيا . قال :  
هو ذاك يا سيدي ، إذ لا يوجد في هذا البلد غير حدائق قليلة ،  
وهذه الحديقة أجملها دون شك .

- ولكنكم لا تعتنون بها العناية الكافية كما يظهر .

- ذلك بأمر سيدي بل بأمر السنيورا ألتباري .

- ولكنه أمر غريب ، فإن للنساء شغفاً خاصاً بالأزهار .

- إن الآنسة ليونور ، عفواً يا سيدي بل السنيورا ألتباري  
أرادت أن يبقى كل شيء في هذا المنزل على مثل ما تركته يوم  
خروجها منه للإقامة في منزل زوجها ألتباري .

فنهض رولاند وفتح نافذة تشرف على الحديقة وأخذ يشمعن  
فيها فقال فيليب : إن إهمال هذه الحديقة الفجاء خسارة كبرى ،  
ولكن هي التي تريد أن تبقى على ما هي عليه ، حتى أنها تأتي  
أحياناً إلى هنا لتعلم إذا كنت قد غيرت شيئاً في المنزل أو في  
الحديقة .

فقال له رولاند وقد أخفى اضطرابه : عجباً كيف تأتي  
هذه السيدة أن ترتب المنزل ؟

- نعم يا سيدي ، فإنها تريد أن يبقى كل شيء في هذا المنزل كما كان من قبل حين كانت سعيدة فيه .

- ماذا تقول ؟

- لا شيء ، لا شيء ... فإنها أمور عائلية قديمة لا دخل لي بها .

- ألم تقل إن سيدتك تأتي أحيانا إلى هنا ؟

- نعم يا سيدي إنها تأتي في الليل فتجلس هناك تحت هذه الأرزة الكبرى إلى أن ينتصف الليل فتذهب ... ولكن كل ذلك لا يفيدك دون شك .

فلم يحبه رولاند ولكنه أدار وجهه إلى جهة أخرى من الحديقة كي لا يظهر اضطرابه ثم ملسك نفسه والتفت إلى الشيخ فقال : لقد سامني ما سمعته منك ، فقد كان في نيتي أن أستأجر هذا المنزل .

- ولكن ذلك لا ينعمك يا سيدي عن استئجاره ، بل إنك تستطيع أن تشقوه .

- لا أدري كيف ينطبق قولك هذا على الأوامر التي تلقيتها .

- إن المنزل يا سيدي لصاحبه دندولو وأنا مضطر إلى تنفيذ أوامره ، فإنه يرغب في التخلص من هذا المنزل يقدر ما ترغب ابنته في استبقائه ، وقد أصدر إلي أمره بأن أبحث عن مشغل للبيت فقال لي آخر مرة لفتته فيها إلي إذا لم أجسد من يشتريه أضطر إلى نقضه وتخريب حدائقه .

- إذن لقد حدثت جريعة في هذا المنزل ؟

- كلا يا سيدي ، ولكن حدث بين الأب وبنته في هذا المنزل ما دعاهما إلى الاختلاف بشأنه .

- ماذا حدث ؟

فأطرق الخادم ولسان حاله يقول : إنه لا يستطيع الإباحة بهذه الأسرار العائلية . فقال له رولاند : لقد كنت في البدء أنظر إلى هذا المنزل بتغير أكثرات ، أما الآن وقد سمعت منك هذه الأقوال فقد بدت مهتما كل الاهتمام وأصبحت بالرغم مني من حزب السيدة ... ما تدعى ؟

- ليونور ألتباري .

- نعم ، ولقد يسوفني أن ينهدم هذا البيت دون رضاها ، فقل إذن لسيدك إنك وجدت من يشتري البيت والحديقة كما هما أي مع الأثاث ، وقل للسيدة إن كل ما في المنزل يبقى على حاله . ثم قل لها إنني سأقيم في فينيسيا خمسة عشر يوما ثم أذهب وربما لا أعود بحيث أنها تستطيع أن تقرر هذا المنزل كلما خطر لها زيارته فتجده على حاله .

وأما أنت فإذا أحببت أن تبقى في المنزل فلك أن تبقى فيه بنفس شروطك القديمة مع سيدك ما خلا أنني أضاعف راتبك مهما كان قبل يوافقك ذلك ؟

- أواه يا سيدي ، إنني لو قضيت علي أن أبرح هذا المنزل لمت أسفا .

- إذن أنت راض بما اقترحت عليك ؟

- أقبل به بقل الرضى . وأما الراتب فإن راتبي القديم كان

يكفيني .

— أنت رجل كريم القلب ، والآن أصغر إليّ فاني أشتري عليك شرطاً واحداً .

— ما هو ؟

— هو أن يتم هذا البيع في أقرب حين .

— إنه يتم منذ اليوم إذا أردت فأملك الفاتح في هذا المساء .

— إذن سأحضر هذه الليلة بالنقود ، فكيف يبلغ الثمن ؟

— لقد أمرني سيدي بدفع أن أطلب عشرة آلاف ريال

ولكن ...

فقاطعه رولاند قائلاً : سأحضر هذه الليلة بعشرة آلاف ريال

قاعدة العقد .

— إنه معدّ لا ينقصه غير أن تذكر فيه اسمك .

— نعم ، لقد فاتني أن أذكر لك اسمي .

ثم كتب له اسماً على ورقة وأعطاه إيّاها فلما ذهب رولاند

قرأ فيليب اسم المشتري فإذا هو : جان دي لورنزو من مانتو .

وأما رولاند فإنه ذهب توتاً إلى قصر أمباريا ودخل إليه وقال

لأحد خدمه : قل لسيديك إن رجلاً غريباً يلتمس مقابلتها .

فأجابها الخادم قائلاً : إن سيدي مريضة لا تستطيع أن تقابل

أحد . قال : إنذهب إليها وقل لها إنني قادم إليها بأنباء خطيرة

من شخص تحبه .

فامتثل الخادم وعاد بعد هنيهة فقال : إن سيدي مستعدة

لاستقبالك فتفضل واتبعني .

وقد استقبلته أمباريا وقالت له بعد أن نظرت إليه نظرة

الفاحص : تفضل يا سيدي بالجلوس ، فقد قيل لي إنك قادم إليّ

بأخبار من شخص أحبه ولا أحب في هذا الوجود غير شخص

واحد . قال : إنك تعنين ابنتك ، أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي ، فإذا كنت تعرف شيئاً عنها فأمرع

بأخباري .

وهنا لا بد لنا أن نقول إن رولاند كان قد تنكّر فلم تعرف

أمباريا وجهه ثم إنه غير هجته أيضاً فإن اللغة الإيطالية كثيرة

اللهجات ولكل بلد لهجة خاصة بحيث لم تشبه بصوته أيضاً

لشدة تباين لهجته هذه عن لهجته التي تعرفها ، فأجابها على

سؤالها قائلاً :

— إن ما أعرفه يا سيدي يكفي لتلطيف أحزانك فإني

أطمئنك قبل كل شيء أن ابنتك سليمة نقيّة .

فأقربت أمباريا إليه وأخذت بيده وقالت : أحسن الله

إليك كما أحسنت إليّ فإنك قد رددت إليّ زوجي بهذا النيا .

ولكن كيف عرفته ومن أنبأك به ومن أنت فإني لم أرك في

فينيسيا قبل الآن ورجائي أن تعذرني على هذه الأسئلة .

— إن عذرك واضح يا سيدي ، وأنا أجيبك على أسئلتك

فأقول إنني أدعى جان دي لورنزو من مانتو وقد سافرت أخيراً

إلى ألمانيا وعدت بطريق تريفيز فلقيت أمس في طريقه أحد

أصدقائي . أما سمعت يا سيدي باسم أويثان الشاعر ؟

— نعم ، وقد عرفته .

- ولهذا الشاعر سكرتير غريب الأطوار يُدعى ياولو -

- ياولو ؟

- نعم ، وهذا هو الصديق الذي لقيته . فإن هذا الرجل يستطيع أن يعيش بلاء الرفاه والسكينة ولكنه عاهد نفسه على أن يقوم بمهمة صعبة وذلك لشدة ذكاء فؤاده على غرابة أطواره . - لقد عرفت هذا الرجل أيضاً فما هي المهمة التي عاهد نفسه عليها ؟

- هي أن يبحث عن التماس فيجعل على إزالة شغائهم ! - إنها مهمة سامية فقد لقيت ياولو كما قلت لك ونخادته فعلت أنه من بلاء الأخلاق . - ولكن أخلاقه غريبة نادرة .

- ماذا تعني بذلك يا سيدي ؟ فإن لي بهذا الرجل ثقة لا حد لها . أأعطني غطلة بهذه الثقة ؟

- كلا يا سيدي . فإن صديقي ياولو جدير بكل ثقة غير أنه ينظر إلى الأمور بغير ما ننظر إليها نحن ، وعلى الجملة فإني رأيته أمس في مركبته فأشار إلى صبية كانت معه لم أسجد أبجل منها . - بيانكا ؟

- نعم ، إن الصبية تدعى بهذا الاسم فاجمعي يا سيدي ما حدثني عنها فقد قال إنها كانت تقم في فينيسيا مع أمها . - معي أنا فانا أمها ...

- إلي أعيد يا سيدي قوله بنصه : قال إن الأم قد أدخلتها عواطف الأمومة عن أن ترى ما يحدث بينتها من الخطر بالإقامة

معه ، أقهرت يا سيدي ؟

- نعم وأأسف !

قال : وما قاله لي إن هذا الخطر المحدق ببيانكا قد تحقق ، فإن رجلاً بل وحشاً ضارباً رأى هذه الفتاة الطاهرة فأحبها وهو لا يقف في جرائمه عند حد .

- ييو ... إنه ييو الهائل !

- هذا هو الاسم الذي ذكره لي صديقي ياولو ، ويظهر أن هذا الرجل كردينال وأسقف فيلبيسيا .

- نعم .

- وقد عزم ييو أن يختطف بيانكا وعزم صديقي على إنقاذها ، ولكنك لتكدر الطالع عزم هذا العزم بعد فوات الأوان أي بعد أن اختطفها ييو .

- ولكن صديقك أنقذها أليس كذلك ؟

- هذا الذي قلته في البدء يا سيدي وهو ما أردده الآن فلم يبقَ خطر على بيانكا فإن ياولو اقتفى أثر ييو حين اختطفها فأنقذها منه وقتله .

فارتعشت أمباريا سروراً وقالت : أمات ييو ؟

- نعم فقد نجوت ونجت بنتك منه إلى الأبد .

فقال له بصوت يضطرب : إذا كان صديقك أنقذ بنتي كما تقول فلماذا لم يردّها إليّ وماذا ينتظر ؟

فأطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال لها بصوت اضطرب له أعضاؤها: إن صديقي أرتأى أن ينقذ بنتك منك بعد أن أنقذها



يجب معاقبة الأم .

- يعاقبني أنا ؟

- نعم ، إذ يظهر أنك ارتكبت من قبل جريمة اعترفت  
له بها .

فوقفت أمباريا وقالت : بأي حق يريد أن يقف هذا الرجل  
موقف القضاة ؟ بأي حق يختلس سرّي ثم يعاقبني به ؟

فوقف رولاند أيضاً وقد اشتقدت عيناه ببارق خفيف وقال :  
أأنت تتكلمين بالحقوق ؟ إذن لنسبح فيها ما زلت تعرفينها ،

فاسمعي : إنه حين يخطفون رجلاً من عالم الأحياء ويسجنونه ستة  
أعوام في سجن لا فرق بينه وبين القبر ، وحين يحرق هذا الرجل

بأساً ويموت كل يوم مراراً من البرد والبأس والجوع ، وحين يعلم  
أن عالم الأحياء قد تخلّشوا عنه وألقوه في ظلمة الأبد... فحق عاد

هذا الرجل إلى عالم الأحياء الذي خرج منه ورأى أنه قد فقد  
الأب والأم والحبيبة والثروة والقام ، ألا يحق له أن يلقي أعداءه

الذين تكلموا به هذا التكميل ويقول لهم بعد أن ظفر بهم : لقد  
جاء دوركم الآن وعين بعين ومن بسن ؟ فذوقوا كما عرستم

وتعذبوا كما تعذبتم واشتقوا كما شقيت ، وما زلت لم يشفق أحد  
منكم عليّ أيجب أن تلتمسوا مني الرحمة والإشفاق ؟

كانت أمباريا تسمع كلامه وهي ترتعش لنبرات صوته ولا تشاهد  
عليه حتى إذا أتم حديثه قالت له بلسان يتلثم : من أنت ...

قل من أنت ؟ فضبط رولاند نفسه وعاد إلى سكينة وقال :  
- إن الأمر غير خاص في يا صديقي بل بصديقي بوللو وأنا

من يميرو .

- مني ... أنا ؟ أنا أمباريا .

- لقد أخبرتك بغرابة أطوار صديقي ، فقد أكد لي أنه إذ  
انزعج بجانكا ...

- أينزعج ابنتي مني ... أريد أن يحتفظ بها ؟

- نعم يا صديقي .

- ولا أراها إلى الأبد ؟

- ربما !

فضحكت أمباريا ضحكة هائلة وقالت :

- إن صديقك مجنون وأنت مجنون أيضاً ما زلت جئت تخبر  
أماً بأنها لن ترضى ابنتها... ومن أنباك يا صديقي أن ابنتي تكون

في خطر عندي كما كانت قبل أنت تنجو من الخطر الأخير وهو  
خطر تعرّض له كل فتاة... ويح لأولئك الأشرقياء إنهم يريدون

إنقاذ البنت وقتل الأم... ومن يعلم فقد يقتلها الفراق.. ولكنك  
لا تعلم ماذا أمستطيع أن أفعل ، فإني أطوف الأرض حتى أظفر

ببائولو والويل له حين ألقاه .

ثم جعلت عند ذلك تشفق بالبكاء فكان رولاند ينظر إليها  
نظرات تشفق عن السويداء إلى أن نظرت إليه وقالت : أسألك

المعذرة يا صديقي فقد اتهمتكم أيضاً. ولكن ما فعلوه هائل عظيم  
لا يحمله عقل بشر . قال : دعيني يا صديقي أتم حديثي .

فخامر أمباريا شيء من الرجاء وقالت : تكلم . قال : إن  
صديقي يرتقي أنه لا يجب أن يقتصر فقط على إنقاذ البنت بل

شبه صدى أردد أقواله التي رواها لي ، فهل أنت من أولئك الأعداء الذين عذّبوه ؟ ذلك ما أجهله ! وهل هو وحده الشهيد الذي تعذب ؟ ذلك ما أجهله أيضاً ، ولكنني سمعتك تذكرين كلمة الحقوق فأجبتك عنها بما سمعته منه وربما اتصل به أنك ارتكبت جريمة من قبل وأنت تعلمين أن الجريمة لا يد أن يعاقب مرتكبها ولو بعد حين .

قالت : نعم فإن عين الله ساهرة لا تنام ولكن كل ذلك يقضاه الله . قال : ليس ذلك يا صديقي ، فإن لصديقي مبدأ خاصاً غريباً في بابه ولكنه قد يكون صحيحاً ، فإنه يعتقد أن كرم الأخلاق والمروءة ونقاء القلب وما ينتج عنها من الأعمال الطيبة إنما تكون خير دليل على الذكاء الإنساني ، أي كلما اشتد ذكاء المرء زادت حسناته . ولا ينكر أن بعض أهل الشر قد يكونون من أهل الذكاء ، ولكن يكون لهم في عقولهم زوايا مظلمة تدفعهم إلى الشر . يريد بذلك أن يقول إن الجرم لا يكون له خالص الذكاء ، فهو خلص ذكائه لما ارتكب الجريمة . ومن هنا تأتي الذنوب ويدفع الشر وتوالى السيئات ، أي من النقص في الذكاء والاضطراب في الأفكار لا من الأنداد .

كان رولاند يلقي هذه القاعدة الفلسفية على أمباريا وهو يتكلم بملء السكينة خلافاً لأمباريا ، فقد كانت تضطرب اضطراباً عظيماً حتى إذا أتم كلامه قالت له :

— وإذا اعترفت بحيرتي وسألت العفو ألا يرحم قلب أم والله ؟ وبعد ، فإنهم يريدون معاقبتي للذنوب ارتكبت فيرتكبون

مثل ذنبي بالتفريق بيني وبين بنتي ، فكيف يكون صاحبك من أهل الذكاء ، وبأني مثل هذا الشر ؟ وكيف يضع القواعد الفلسفية ولا يعمل بها ؟ لا ! قل له إن خير الحساتن الصبح عن الزلاّت . فتمتم رولاند في نفسه قائلاً : الصبح لقد خطر لي أن أعفو.. ولكن عذابي كان شديداً ولا أزال أتعذب ! ثم قال لأمباريا بصوت مرتفع :

— اعتبر الآن يا صديقي أن مهمتي قد تفتت ، وخلاصة ما استنتجته من كلام صديقي أنه يجب نفسه بإتقاد بيانكا من بمبو ، ولكنه يرى أنه لا يجب أن يردّها إليك . — إنها مسألة لا تحتمل . وما أنت إلا من الساقطين ما زلت قد رضيت قبول هذه المهمة .

فوقف رولاند عند ذلك وانحنى أمامها وقال :

— هذا كل ما عهد إليّ أن أقوله يا صديقي ، وأظن أن من واجبات صديقي أن ينيشك بأخبار بنتك من حين إلى حين ، ولكنني لا إخاله يفعل .

— ألا أرى ابنتي ولا أسمع أخبارها ؟ لتلعنك السماء وتلعن صديقك وتلعن رولاند كاندريانو فإنكما لا تعملان إلا للانتقام له ، فهو الذي أرسلكما وهو الذي اختطف بنتي وهو الذي انتزع قلبي .

فاضطرب رولاند ودنا من أمباريا وقبض على يدها وقال لها بصوت يتهدج من الغضب : أتلعنين رولاند كاندريانو قبل أن تذكرني ما فعلته وفعله شركاؤك بهذا الرجل ؟ ! إنني إذن

واقطني فإنك لن تري ابتك إلى الأبد .

فسقط أمباريا جانية على ركبتيها وجعلت تنظر إلى رولاند نظرات ملؤها الرعب وتحاول أن تلتصق وتوسل فلا يخرج الكلام من فمها .

أما رولاند فإنه بعد أن قال لها هذا القول وقف ينظر إليها نظرات المنتقم الجبار وهي قد تمكن منها الرعب فباتت من نظراته كالجمامة أدر كها الصيد ثم ابتدعنها .

وعند ذلك حلت عقدة لسانها وزال رعبها فوقت واندفعت في أثره وهي تقول : إقبضوا على هذا الرجال فإنه رولاند كاندبانو .

أما رولاند فقد كان بلغ عند ذلك إلى آخر درجات السلم فسار سيرا بطيئا إلى القارب فنزل إليه ولم تكن غير هنية حتى توارى به عن الأنظار . فمادت أمباريا إلى غرفتها واليأس ملء قلبها فأقامت نحو ساعة تناجي نفسها ثم لبست ثيابها وسارت إلى قصر دندولو رئيس مجلس التنقيش ، وهناك اجتمعت به فنزعت برقعها وقالت له :

— لا أعلم يا سيدي إذا كنت تعرفني ، فقد اجتمعنا مرة واحدة منذ سبعة أعوام في حادثة ... قال : نعم هي حادثة لا يمكن نسيانها وقد عرفتك يا سيدي .

وقد جعل يتبعن بها وهي ساكنة مضطربة مرتعدة ثم قال لها : إن أول مرة رأيتك فيها كانت في قصرك وقد سارني التياراتي إليك ، وكان عندك أيضاً فوسكاري ، وهو اليوم دوج

فيثيسيا ، وحبو وهو اليوم كريدنال . وكان ذلك عند انقضاء الليل أي بعد أن يقبض على رولاند ، فاجتمعنا للتداول فيما نفعله برولاند وأمه وأبيه ، أليس كذلك يا سيدي ؟ وقد عقدنا اتفاقاً عليه جميعاً . وما زلت قد أتيت فلا بد أنك آتية لخابرتي بشأن هذا العقد .

— نعم يا سيدي قاصم ما جئت أقوله لك ، فإن أحد الذين حضروا اجتماعنا بات مقتولا .

فلم يظهر على دندولو شيء من علائم العجب فإنه كان يتوقع كل أمر بعد ما عرفه من ساندريجو ولكنه سألها بصوت أجش قائلاً :

— من هو هذا الذي بدأ رولاند بالانتقام منه ؟

فارتعشت أمباريا إذ علمت أن دندولو عالم بوجود رولاند في فيثيسيا وأنه لم يقبض بعد على هذا العدو الهائل الذي أقسم على أن ينتقم من الجميع ، فاجابته قائلة : إن القتل الأول كان الكريدنال ببو .

— كيف عرفت ذلك ؟

— من رولاند كاندبانو .

فاضفر وجهه دندولو بالرغم من توقعه مثل هذه الحوادث لا سيما حين قالت له أمباريا إن رولاند كاندبانو قد خرج من عندي الآن .

وقد أخبرته عند ذلك بما كان من غرام ببو وأنت سكوتير آرستان وجان دي لورن وولاند كاندبانو هم واحد .

وهذا الذي بدأ به رولاند ، فإنه قتل ببؤ وأبعد عني بنتي  
إلى الأبد وأعدت لي الحنجر ، فيا ويح هذا الشقي لماذا لم يقتلني ؟  
- تشجعي يا سيدتي .  
- كيف تقول لي تشجعي يا سيدتي . ألا تعلم حنو الأمهات ؟  
لقد عشت من أجل ابنتي بالرجاء . أما وقد اختطفوها مني  
وقضوا عليّ بأن لا أراها إلى الأبد فما بقي عليّ إلا أن أحبس  
نفسي في زاوية وأعيش قانطة من الحياة إلى أن يتقضي الموت .  
ولا شك يا سيدتي أن هذا الرجل قوي قادر ، فإنه عرف كيف  
يلتقم مني وضربني في قلبي ، فما أحل الموت الآن بعد فراق  
بنتي وهي عندي أعز من الروح .

فاضطرب دتدولو لحزنها وقال : وأنا يا سيدتي لي بنت .  
- نعم يا سيدتي . ولأجل ذلك أثبت إليك لأخبرك بأن  
رولاند كانديانو لم يت كما كنا نظن وأنه يسعى للإنتقام منا .  
- إني عارف بذلك .

كيف تكون عارفا بوجود رولاند في فينيسيا ولا تنذرني ؟  
- إني ما عرفت به إلا القليلة فقد أخبرني أحدهم بوجوده .  
- وأنا أثبت إليك هذا الخبر ، فقد دعا نفسه في البدء بأولو  
وهو الآن يدعى جان دي لورتزو فاحذر لنفسك يا سيدتي واعلم  
يقيناً أنك إذا لم تقبض على هذا الرجل أثرت عليك أهل فينيسيا  
يحملتهم . فإني أريد ابنتي ، أسمعيت ؟ وإذا كان قد اتبذ بها  
مكائناً قصياً لم أستطع إدراكها فيه فإني أريد أن أنتقم وأريد  
أن تقبضوا على رولاند وأن أحضر محاكمته وأن يعدّوه إلى أن

يعترف أين توجد ابنتي ... نعم إني أريد ذلك وإذا لم تفعل  
فاحذر لنفسك !

قال : لا شك أن الحزن قد أضلّ رشك فمن أنياك أني لا  
أريد القبض على رولاند كانديانو ؟

- نعم ... نعم . قاصصع عني فإني لا أعلم ما أقول وقد  
خيل لي أنك مفردة فما قرأت في عينيك العزبة بل قرأت  
الرب ... ولكنني غطّنة دون شك ، أليس كذلك ؟

- كوني مطمئنة يا سيدتي فإن جميع بوليس فينيسيا يبحث  
الآن عن رولاند ولا بدّ أن تقبض عليه قبل ثلاثة أيام .

- ثلاثة أيام ؟ إنه أمد طويل !

- إذن صفي لي تذكره ما زلت قد رأيت ، فقد قلت إنه  
يدعى جان دي لورتزو ، أليس كذلك ؟

- نعم ، وهذا وصف تذكره فاسمع .

وهنا وصفت ملايبه وجميع صفات تذكره بالتدقيق ثم  
ودعته وانصرفت . فلما خرجت لقيت عند الباب رجلاً كهلاً  
يقول لأحد الخدم بلهجة سرور : أبلغ سيدنا أنني وجدت مشرباً  
لنزله وأنه لا بدّ من مقابلة الآن .

ركبت أمباريا قاربها وأمرت النوتي أن يسير بها إلى منزلها  
حتى إذا ابتعدت قليلاً نظرت إلى منزل دتدولو الذي فارقتها ،  
فخامر قلبها الشك وقالت للنوتي : لا تذهب بي إلى منزلي بل  
إلى منزل ألتباري .

والآن قبل أن تنقب أمباريا إلى حيث ذهبت نعوذ إلى



دندولو قائمه بعد أرت ذهبت أمباريا جالس على كرسية ووضع رأسه بين يديه وجعل يناجي نفسه فيقول : إذن لم يبقَ بدٌّ من القبض على رولاند بعد بضع ساعات ... وهذه المرأة التي أتت تقول لي إنها تحب بنتها قسا أقول أنا إذا وقفت أمامي ليونور وناقشتني الحساب عن ذنوبي إليها ؟ رياء ، إن ذلك هائل غريب وما توقعت أن يبلغ إلى هذا الحد فقد قضى عليّ القضاء المبرم ! ترى ألا يحذر في الانتحار ؟

وعند ذلك دخل إليه خادم غرفته وأخبره بقدوم خادمه فيليب حارس منزله في جزيرة أوليفو فأوغز إليه بإشارة أرت يدعه ينتظر وعاد إلى مناجاة نفسه فقال : إن رولاند يستحيل أن يدع الجنود يأخذونه على غرة ... وأنا الذي يتولى أمر القبض عليه ، فلماذا لا أضلل الجنود وأرسلهم إلى غير المكان الذي يكون فيه بحيث أدع له سبيلا للفرار ؟ بل لماذا لا أنذره بالمخطر المحقق بسببه فيكتفي بقتل بيبو وباختطاف بنت أمباريا ويهجر فينسيها ما زلنا فيها ؟ فإذا تم ذلك وسافر رولاند لبثت ليونور جاهلة كل ما مضى وانتهى الأمر معها بالسوان.

وقد ممكن اضطرابه لهذا الحاطر فأمر بادخال الخادم الشيخ إليه وقال له : هل وجدت من يشتري المنزل كما قيل لي ؟  
- نعم يا مولاي !

- إذن يجب بيعه في الحال ، فمن هو المشتري ؟

- إنه رجل غريب وقد طلب إليّ أن أبقى في هذا المنزل كما كنت فيه إذا كنت تأذن لي بذلك .

- لا فرق عندي بشرط أن تكون راضيا .

- إن أعظم سعادة عندي أن أبقى في هذا المنزل القديم .

- حسنا فأبقِ فيه ، فهل انتفتحا على الثمن ؟

- لقد رضي بالثمن الذي عيّنته دون مساومة .

- إذن لم يبقَ غير عقد البيع .

- وهو يريد عقده اليوم فإنه سيحضر هذه الليلة بالنقد .

- إذن أبقى لنفسك منها مائتي ريال .

- أشكرك يا مولاي لكرمك . وهذا هو العقد فلم يبقَ إلا

أن توقع عليه . فأخذ دندولو العقد من يد خادمه وقرأ فقال :

ولكني لا أجد اسم المشتري .

- هذا هو يا سيدي فأنسه كتب اسمه على ورقة وأعطاني

إياها .

فأخذ دندولو الورقة ولم يكدر يقرأ فيها اسم جان دي لورنزو

حتى اصفر وجهه وتقم قائل : هو ... أوام من الأقدار . ثم التفت

إلى خادمه وقال له : في أية ساعة يحضر ؟

- بين الساعة السابعة والثامنة من المساء .

- حسنا ، أبقى هذا العقد عندي وعد إليّ بعد ساعتين .

فالتفت الشيخ وانصرف .

والآن فلنعد إلى أمباريا فإنها ذهبت توار إلى قصر ألتاري

واجتمعت به فدهش القائد لقدمها وقال لها : إنك لم تأتي إليّ

في رابعة النهار إلا لحدوث حادث خطير دون شك . ألا تخافين

الأقاويل يا سيدتي بعد هذه الزيارة ؟ ألم تتفق بعد تلك الليلة

على أن لا نجتمع أبداً في مكان ؟ قالت : إنك تعني بها تلك الليلة  
التي ارتكبنا فيها الجريمة ووشينا الوشاة الكاذبة أليس كذلك ؟  
فتنظر ألتباري إلى ما حواله نظرة الخائف وقال : اسكتي  
فقد نسمعونا .

— من الذي يسمعنا ؟ أمم الجنود ؟

— كلا ، بل امرأة !

— من هي ؟ ليونور ؟

فظهرت على وجهه علائم الجزع وفصال : برلك يا سيدتي  
أسرعني بأخباري عن السبب الذي أتيت من أجله . فنظرت إليه  
عذقة وقالت له ببطء : إن رولاند كانديانو في فينيسيا .  
فسمع عند ذلك من وراء الباب صوت يشبه الأنين غير أن  
أمباريا لم تسمع هذا الصوت لاشتغالها وألتباري لم يسمعه أيضاً  
لأضطرابه فقد اصفر وجهه وظهر عليه الرعب ، فإنه كان يعتقد  
اعتقاداً راسخاً أن رولاند مات غرقاً في الترع ، ورأت أمباريا  
ما كان من اضطرابه فقالت له : كيف رأيت يا سيدي ؟ أعتقد  
بعد الآن أنني غططة بقدومي إليك ؟ قال : يجب الإسراع إلى  
رئيس ديوان التفتيش وإخباره بالأمر .

— لقد أخبرت به .

— إذن فجميع البوليس يبحثون عنه .

— هو ذاك .

— يجب إخبار الدوج .

— ذلك من شأنك .

— والكردنال بيو ؟

— إنه مات .

— مات ؟ بيو مات ؟

— إنه مات قتلاً بيد رولاند .

فوقف ألتباري وأخذ غدارتين من الجدار فوضعهما أمامه  
على المائدة ثم تفقدت الدرع التي يلبسها وفتح الباب فافتقد الجنود  
الذين يحرسونه . وعند ذلك اطمأن وعاد إلى مجلسه فقال  
لأمباريا : أخبريني بكل ما تعلمين ولا تكلمي عني حرفاً أو  
يقضى عليّ القضاء اليوم فإني أعرف رولاند حق العرفان ، فإذا  
لم تقتله انتقم منا أقطع انتقام .

— نعم إن انتقامه فطليح مائل وقد انتقم من بيو ومتي .

— أنت ؟ وكيف انتقم منك ؟

— لقد اغتطف ابنتي ، أي أنه ضربني الضربة القاضية .

— يجب أن أقف على كل ما حدث فأخبريني بكل ما تعلمينه  
بالتدقيق .

فأخبرته عند ذلك تفصيلاً بجميع ما عرفه القراء من أمر  
رولاند حتى إذا أتت حديثها أطرق ألتباري هنيئاً مفكراً ثم  
قال : لماذا أقيمت لإخباري بعد أن أخبرت رئيس ديوان  
التفتيش ؟

— ذلك لأني غير واثقة من دندولو فإنه رجل ضعيف كثير

التردد ، وقد أكون غططة في حكمي عليه . أما أنت فلا شك  
عندي بصدق عزيمتك .

فذكر ألتباري ما لاحظته من دندولو يوم أخيره بفرار رولاند من سجنه فقال في نفسه : لم يبق لدي شك بإحجام دندولو ، ولكنني سأكرهه على الإقدام . ثم أجاب أمباريا قائلاً : لقد أصبت ، فإني صادق المزيمة لا أتردد في أمري قاطعتي ، فسان واحداً منا يجب أن يموت وهو الذي سيموت دون شك . قالت : هو ذاك . ولكن قبل أن يموت رولاند كانديانو أحب أن أعلم أين ذهب بابتي فاعلم أنه إذا لم ترد أبتني إلي ألقيت التبعة عليك وعلى دندولو وعلى فوسكاري .

وقد قالت هذا القول بلهجة تبين فيها الوعيد وذعر لها ألتباري فطمأنها وأوصلها إلى باب خفي ففتحه وقال لها : اخرجي من هذا الباب كي لا يراك أحد واعتمدي علي في إنقاذ بلتك .

فأجابته بلهجة وعيد قائلة : حسناً ، فإني معتمدة عليك . ثم انصرفت فأقفل ألتباري الباب ثم وضع يده على قبضة خنجره وهو يقول : سأقتله في البدء ثم أقتله بعده . وعند ذلك خرج من منزله وسار مسرعاً إلى دندولو يخفوه ثمانية من أبسل قواده .

أما دندولو فإنه ، بعد خروج فليب من عنده ، وضع عقد البيع أمامه وجعل يتمعن فيه وهو في الحقيقة يناجي نفسه بما كان يشغله في تلك الساعة من الخوف المصدق برولاند ، إلى أن أخذ القلم فجاءه وكتب اسم جان لورنزو فيه ، أي اسم رولاند كانديانو .

وعند ذلك دخل إليه ألتباري فأقفل الباب بعد دخوله ودأبته وقال : لقد أتيت لأخبرك أن رولاند كانديانو في فيليسيا وأنه مشكور فيها باسم جان لورنزو ، فإذا عزم أن تفعل هذه المرة ؟

فأضطرب دندولو وحاول إخفاء العقد الذي كان أمامه ، ولكن ألتباري رأى ما كان من اضطرابه ومعاولته إخفاء هذا العقد فأيقن أنه يتضمن أموراً خفية ولا بد له من الإطّلاع عليها ، فأسرع ووضع يده عليه قبل أن يتمكن دندولو من إخفائه ونظر إليه نظرة ملؤها الإنذار وقال :

- إنك تحاول إخفاء هذه الورقة .

فعمجب دندولو لجرائته وقال له : ألا يحق لي إخفاؤها ؟

- إني أريد الإطّلاع عليها .

- ما هذا التهج الذي تنهجه ؟ فهو غير معقول .

- ولكنني سأقرأها ؟

ثم انتزع الورقة من يد والد امرأته وابتمد وجعل يقرأها حتى إذا قرأ اسم جان دي لورنزو صاح صيحة منكرة . فارتعد دندولو لهذه الجراءة التنادرة وأراد إنقاذ نفسه فقال : إنك انتزعت مني بالعنف سرّاً من أسرار الحكومة فإني تمكنت من أن أنصب فخاً لرولاند فوقع فيه ، وسيحضر هذه الليلة إلى منزلي في جزيرة أوليفو فأقبض عليه دون شك لأنني أمرت أن يطوق المنزل بالجنود . فاعلم الآن أنت كلمة تخرج من فمك أو إشارة تبدو منك تغسد علي هذا الأمر الذي طالما أجهدت نفسي

حق توصلت إليه وتكون التبعة في ذلك عليك .

فأطرق ألتباري مفكراً ثم قال : أسألك العفو عما بدا مني من الحدة ، فقد كان اضطرابي شديداً لهذا النبا حتى لم أعلم ما أفعل ، فمددوا إليه يسده وهو يقول : إجلس لتحدث . فامتثل ألتباري ونظر إليه دندولو نظرة حقد خفية ثم قال له : كيف عرفت ذلك ؟ قال : إن أمباريا حذررتي ! فقال دندولو : نعم : فأنها جاءت إليّ أيضاً منذ ساعة وهي تعتقد أنها تحمل إليّ خيراً جديداً مع أبي أتعقب رولاند منذ خمسة أشهر ، وأنا الذي حملته على العودة إلى فينيسيا وأنا الذي دفعته تباعاً إلى هذا المنزل لتذكاراته السابقة فيه . ولكنك عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . فان رولاند يقود الآن جيشاً كبيراً من اللصوص يبلغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف ، وله سفن ومدافع ، وربما خطر له أن يهاجم فينيسيا بهذا الجيش ، فهل عرفت الآن أنك اطلعت على سرّ عظيم من أسرار الحكومة ؟

— نعم ، وإن النوح قد علم بذلك دون شك .

فارتعش دندولو وقال : كلا ، فاني لم أخبره بعد وقد أرجأت ذلك إلى أن يتيسر لي القبض على رولاند .

— حسناً تفعل ، والأآن فهل أعددت المعدات لهذه الليلة ؟

— دون شك !

— إذن أأذن لي أن أساعدك في القبض عليه ؟

— إنك ستكون لنا خير معين .

— في أي ساعة يكون في المنزل ؟

— في الساعة التاسعة .

فودع ألتباري عند ذلك عته وخرج وهو يقول في نفسه : لا شك أبي أتيت قبل قوات الأوان .

\*

بينما كانت هذه الحادثة تجري في قصر دندولو كانت حادثة أخرى تجري في قصر ألتباري وذلك أنه حين أخرج أمباريا من ذلك الباب السري كي لا يراها أحد ، مشى في رواق مظلم انتهت منه إلى سلم قليل الدرجات يؤدي إلى باب صغير يخرجون منه إلى الشاطئ .

فلما نزلت الدرجة الأولى شعرت أن بدأ قسداً وضعت على كتفها فالتفتت قرأت امرأة مقلعة الوجه ... أما هذه المرأة فقد قالت لها بصوت خافت : تعالي ! اقترددت أمباريا هنيهة ونظرت إلى ما حولها نظرة ريب ، ولكن تلك المرأة كانت قد قبضت على ذراعها وسارت بها إلى غرفة معتزلة .

وهناك أراححت البرقع عن وجهها قدهشت أمباريا وصاحت قائلة :

— ليوفور ؟

نعم إنها كانت ليوفور . وتفصيل أمرها أنها نهضت في صباح ذلك اليوم مبكرة وانصرفت إلى أشغال المنزل الداخلية حسب عادتها في كل يوم . وإنما كانت تعمل هذه الأعمال على كثرة الخدم في قصرها كي تشغل أفكارها وتتنعزى بالعمل عما هي فيه ، فإن



المعمل أعظم دواء للأحزان . وكذلك كانت تعالج نفسها به من حب رولاند حتى إذا استفحل داؤها وعجز هذا الدواء عن تسكين جاشها ذهبت إلى منزل أبيها في جزيرة أوليفو وجلس تحت تلك الأرزة التي تعاهدت عندها مع رولاند على الحب مدى الحياة بتلك القبة الأولى عند انقضاء الليل ، أي في ساعة الفراق .

ففي صباح ذلك اليوم بينما كانت تشغل حسب عادتها شعوت بضيق عظيم في صدرها فذهبت إلى نافذة تشرف على الطريق وفتحتها ووقفت فيها تمن الطرف بتناظر البحيرات وتوَج أشعة الشمس الذهبية عليها . وفيها هي على ذلك رأَتْ قارباً وقفت عند باب القصر ورأت امرأة صعدت منه فعرفت أنها أمباريا علة نكبتها وسبب حزنها الدائم فوضعت يدها على قلبها لاضطرابه كأنها خشيت أن يشب من صدرها واصفر وجهها حتى باثت كالأموات .

ولكنها تقلبت على نفسها وأسرعت إلى غرفة ملاصقة لغرفة أشغال ألتيارى فدخلت إليها وهي لم تدخل إليها من قبل ، فسمعت صوت امرأة تقول إن رولاند في فينيسيا .

فصاحت صيحة تشبه الأنين وانقلبت لفورها مقبلاً عليها . فلما عادت إلى رشدها كان الحديث قد انتهى بين أمباريا وألتيارى ولكنها سمعت صوت فتح الباب فأيقنت أن أمباريا تحاول الانصراف وأسرعت وهي شبه المجانين فوضعت يدها كشيئاً على وجهها وأدركت المظلية .

والآن فإن المراتين جالستان وجهاً لوجه وهما لم تلتقيا منذ تلك الليلة الهائلة ، ليلة قبضوا على رولاند منذ سبعة أعوام .

وكانت كل منهما تنظر إلى الأخرى نظرات هائلة كأنها كانت تنمى تلك النظرات التي تبادلتها أمام قضاة رولاند في مجلس العشرة . وقد لزمنا الصمت إلى أن فتحت أمباريا الحديث فقالت : ماذا تريد مني يا سيدي ؟ قالت : أريد أن أقف منك على الحقيقة بجمليتها .

- أية حقيقة تعنين ؟

- كل ما تعرفينه عن رولاند . قالوا لي إن الحكومة عفت عنه ليهرب من فينيسيا ثم مات ، ولكن كل ذلك كان كذباً وبهتاناً ، أريد الحقيقة فتكلمي .

- وإذا لم أتكلم ؟

- تموتين .

فصحكت أمباريا ضحك المنهك . أما ليونور فأنها استلقت مدية وقالت لها : أقسم بحبي أنك إذا لم تقولي الحقيقة بجمليتها أعمدت هذه المدية في صدرك .

فنظرت أمباريا إلى ما حوالها فرأت أن العرفة لا توافد فيها . وكانت أمباريا قوية كبيرة الجسم مثينة الأعضاء ، أما ليونور فقد كانت نحيفة الجسم مشوقة القائمة عضوية المزاج فكانت الأولى تمثل الجمال الروماني والثانية الجمال الفينيسي .

فلما جمعت أمباريا هذا الوعيد ألقت وشاحها عن كتفها

وأُسِرعت إلى قـلـك أزرار ثوبها فأخرجت خنجرأ من صدرها  
وقالت :

— لا أعلم كيف خطر لك أن من كانت مثلي تأتي إلى منزل  
التياري دون سلاح . فالبشي في مكانك أو أعتلك دون إشفاق .  
فكان جواب ليونور على إنذارها أنها ذهبت إلى الباب فأحككت  
إقفاله وعادت إليها قوقفت أمامها وجعلت كل منها تنظر إلى  
الأخرى نظرة البارز إلى خصمه قبل القتال ، وكل منها موقنة  
أنها لا تخرج من هذه الغرفة إلا قاتلة أو مقتولة .

وعند ذلك هزت أمباريا الخنجر بيدها وهجعت على ليونور  
ولكنها قبل أن تبلغ إليها بخنجرها صاحت صيحة ألم فسان  
ليونور قبضت على يدها بعنف عظيم حتى كادت تسحقها . وسقط  
الخنجر من يدها فتراجعت منزعرة وليونور قابضة على يدها  
مشيرة بخنجرها عليها حتى التصقت بالجدار وسقطت جاثية على  
ركبتيه . وعند ذلك وضعت ليونور بخنجرها على عنق أمباريا  
ورخزتها به فسالت نقطة دم فوق ذلك اللق الأبيض تشبه  
ياقوتة على مرآة . وقد هاج غضب ليونور وزادها الحقد قوة على  
قوة فألقت أمباريا على الأرض وقد وهت قواها من الرعب  
وركعت فوق صدرها وهي قابضة على عنقها بأحدى يديها  
وخنجرها باليد الأخرى .

فصاحت الحظية تلتبس العفو ، وقد تشتل لها الموت في  
نظرات ليونور . فأجابتها ليونور قائلة : أتقولين الحقيقة ،  
قالت : نعم .

فرجعت ليونور بالخنجر عن عنقها ولكنها لبشت راحة على  
صدرها وقالت لها : إذن قولي .

— ماذا تريد أن تعرفي ؟

— أين رولاند ؟

— في فينيسيا ... وهو مشكور باسم ... جان دي لورتزو .

— منذ متى ؟

— منذ قراره دون شك .

— من أين هرب ؟

— من أبار فينيسيا .

— أكان سجيناً في تلك الآبار ؟

— نعم !

— منذ متى ؟

— منذ قبضوا عليه ليلة خطبته .

— ومتى هرب ؟

— منذ ستة أشهر .

— وأنت ، ماذا أتيت لتعلمين هنا ؟

— لأخبر ألتيارى !

— ومن أخبرت أيضاً ؟

— دندولو !

— أيي ؟ حسناً ، فعل ما عزما ؟

— على أن يقبضاً عليه .

— متى ؟

- في أقرب حين .

- أهذا كل ما تعلمينه ؟

- نعم هذا كل شيء .

فقدت ليونور يدها إلى ستارة فانتزعتها من الجدار وقطعتها  
بجنونها وهي لا تزال راكمة فوق صدر المعطية التي كادت تحترق  
من رعبها ثم ربطت يديها ورجليها ووضعت كلمة في فمها وأقفلت  
باب الغرفة عليها ثم أخذت مفتاحها وانضرفت إلى الغرفة التي  
يضعون فيها المشروبات الروحية فأخذت زجاجة فيها أقوى  
المشروبات وجرعت منها جرعة كبرى فعماد الاحمرار إلى خديها  
وسكن اضطرابها .

وعند ذلك لبست ملابسها وخرجت من القصر .

## نصف الليل

\*

فلندع الآن ليونور ماثرة لتنفيذ قصدها السري ولنعود إلى  
غرفة دندولو فإن رئيس ديوان التفتيش بعد أن خرج التشاري  
من عنده مرت به ساعة هائلة تراحت فيها الأفكار في خياله  
فخطر له أن يقتل ، وخطر له أيضاً أن يقتل ابنته التي يعبدها .

ولكنه طرد هذا الفكر من خياله وعادوه ففكر الانتحار . ثم  
خطر له خاطر آخر اطمأن له وأعاد إليه سكينة .

ذلك أنه قال : لست أنا وليست ابنتي من يجب أن يموت ،  
بل رولاند . ويجب أن يكون هذا الموت سريعاً فليان ذلك خير  
من القبض عليه .

وعند ذلك خطر له اسم ساندريجو فنهض إلى النافذة المشرفة  
على الشاطئ . ونظر منها قرأى بحساراً جالساً إلى القارب وهو  
ينظر إلى القصر . فأشار إشارة فأمرع البحار بالتموض ودنا من  
النافذة . فاطل دندولو منها وذكر اسم ساندريجو . فأشار البحار  
إشارة تدل على أنه فهم . وابتعد مسرعاً وبعد نصف ساعة كان  
ساندريجو ماثلاً بحضرة دندولو فقال له دندولو : أرايت كيف  
أني وفيت بوعدي ؟ فارتعش اللص وقال له : هل وقفت على أفر  
رولاند ؟

قال : نعم .

فبرقت عينها اللص وقال : متى تريد القبض عليه ؟

- هذه الليلة ، فأحضر إلى جزيرة أوليفو في الساعة العاشرة .

- في أية جهة ؟

- قرب الكنيسة .

- حسناً ، فانتظر هناك في الساعة العاشرة .

- وأنا أمر بك في تلك الساعة فذهب معي .

- لا تنس يا سيدي ما وعدتني به .

- أي وعد ؟

- أن أتولى أنا إدارة القبض عليه .

- سافى بوعدى .

- إذن لقد بقي علينا سكالاً برينو وسنظر في أمره . والآن

إلى اللغاء يا سيدى في الساعة العاشرة .

ثم تركه وانصرف فأوصله دندولو إلى باب الغرفة وهناك وضع يده على كتفه وقال له : أرجو أن لا تتجاوز الحد . قال : ماذا تعنى بذلك ؟ قال : أعني أننا نحتاج إلى القبض على رولاند وهو في قيد الحياة وأخاف أن يدفع بك الحقد إلى قتله .

فظهرت علامات التردد على ساندريجو ولم يجب فقال له دندولو : أسمع ما قلت لك ؟ فأقسم أنك لا تتجاوز حدود حقدك .

فارتعش ساندريجو لهذا الطلب الغريب ووقف الاثنان وكل منهما ينظر إلى الآخر دون أن يتكلم إلى أن أدار اللص وجهه وقال : حسناً ، ف سأفعل . ثم هروا مسرعاً . فعاد دندولو إلى غرفته وهو يقول : إن رولاند سيموت الليلة لا محالة .

\*

أما رولاند فإنه حين خرج من عند أمباريا ذهب أولاً إلى الشاعر آرثان فاستقبله الشاعر باحتفاء وقال له : إني كنت أنتظر لك وقد نفذ منى الصبر . قال : لقد كنت في سراي الدوج أليس كذلك ؟

- نعم ، فقد ذهبت إليه مع بيو ، وعجيب كيف أني لم أراه بعد ذلك ؟

- إذن أخبرني بما فعلت هناك .

فأطرق الشاعر مفكراً وجعل يوازن بين ما يرجوه من الدوج وبين ما يتوقعه من رولاند فقال : لم أفعل شيئاً يذكر . فقال رولاند : ولكني كنت أعتقد أنه حدث بينكما أمور خطيرة ، فما هذا الخطأ الذي صدر مني ؟

- أعطت أني قابلت الدوج ؟

- ألم أقل لك ؟

- أنت تعلم كل شيء . فما أنت إلا من السحرة !

- كلا ، ولكنك ستعرف كيف عرفت ذلك ، فقد سألتني منذ هنية ماذا حدث لصديقك العزيز بيو ؟

- نعم ، وقد ذكرت الآن أنك تريد أن تتناول الطعام مع عندي .

- لم يبق حاجة إلى ذلك فقد دعوت بيو إلى أن يقيم عندي بضمة أيام في قصر جميل في ضواحي فينيسيا ، فهو الآن عندي وهو الذي أخبرني أنك قد قابلت الدوج .

فذهل الشاعر وقال : أهو بيو الذي أخبرك بهذا ؟

فابتسم رولاند وأوماً برأسه إيماء إيجاب . فقال آرثان : إذن لا بد أن يكون قد أخبرك بكل ما حدث فلماذا تسألني ؟ فانتقطع رولاند عن الالتسام ومشى إلى آرثان فوضع يده على كتفه وقال له : يظهر يا مسيو آرثان أنك نسيت ما اتفقنا عليه ؟

فنظر آرثان إلى رولاند وقد راعته نظراته دون شك إذ



قال له : إني مستعد لإخبارك بكل ما تريد أن تعلمه .  
فعاد رولاند إلى مجلسه وقال : لنبدأ حديثنا من أوله ، فقد  
قلت لي إن جيو سار يك إلى الدوج فأحسن استقبالك ؟  
— هو ذلك ، وقد شرفني بثقتي وأطلعني على أفكاره وعيئني  
مفيراً .

— أهنتك بهذه السفارة . فإلى من يريد إرسالك ؟

— إلى جان مدسيس .

— الشيطان الأكبر ؟

— هو بعينه ، وقد عهد إلي أن أقترح عليه اقتراحات  
أقسمت على المبالغة بكمثالها .

— إنك تستطيع كتمانها عن جميع الناس دوني .

فأصفر وجه آريتان وقال : سلمي يا سيدي كل ما تريده ما  
عدا الإباحة بهذا السر .

— أسألك كل ما أريد ؟

— نعم ، ما خلا هذا السر فإني لا أستطيع خيانتك .

— إذن أسألك حياتك ؟

فارتجف آريتان وقال : حياتي ؟

— نعم حياتك ! — إني أنقذتك من اللصوص وحرمتهم من  
ثروة طائلة وقد ندمت أشد الندم لإسأقي لأولئك النساء ، فما  
بقي علي إلا أن أقيد يديك وأضع الكمامة في فمك وأذهب بك  
إلى المكان الذي أنقذتك منه فأردك إلى أولئك اللصوص الذين  
سرقوك منهم .

— سرقتي منهم ؟

فوقفت رولاند وقال : نعم ، ألا تَعْلَمُ ذلك سرقة ؟ إلى اللقاء  
يا ميسيو آريتان ، فتجك والتمس معونة الدوج عند الاقتضاء لأني  
سأخطفك قبل المساء وغداً أردك إلى اللصوص في مناور بيافا .  
وقد مشى رولاند ثلاث خطوات فהלح قلب آريتان وقال له :  
قف أيتها الرئيس .

— لماذا ؟ أعزمت على الإباحة ؟

— إني أبوح لك بكل شيء .

— إذن قل لي كم ترجو أن تقبض من الدوج .

— خمسة آلاف ريال ، قبضت نصفها .

— حسناً ففي هذا المساء أرسل إليك خمسة آلاف ريال فوق

ما تقبضه من الدوج .

فتعلم لسان آريتان ولم يدرك كيف يشكره . فقال رولاند :  
والآن تكلم واحذر أن تفعل مرة أخرى ما فعلته هذه المرة  
فإني لا أستطيع الصبر عليك كما صبرت اليوم وقد عقدنا اتفاقاً  
فوفيت بعهدي ووجب عليك أن تفني بعهدي . واعلم أن حياتك  
منذ خمس دقائق كانت معلقة بخيط أوهى من خيط العنكبوت .  
قال : إني سأشربك بكل شيء .

— قل ، فإني مصغ إيلك .

فروى له آريتان عند ذلك جميع ما دار بينه وبين الدوج  
حتى إذا أتم حديثه قال في نفسه : إني أخبرت هذا الرجل وأنا  
لا أعرفه بسر عظيم لا أدري ما تكون فائدته منه ، ولكنه

أنتقد حياتي ، وهو الآن يهني خسة آلاف ريال وقد رأيت في جميع أعماله وأفكاره أشرف من الدوج ، وقد رصيت به صديقا... أنا الذي أهز بقلمي عروش الملوك . ثم قال له بصوت مرتفع : ماذا تأمر يا سيدي ؟ أيجب أن أقضي مهمة الدوج ؟ فابتسم رولاند وقال : لقد أخطأ فوسكاري ، فإني فينيسيا يجب أن تبقى فينيسيا وهي مدينة الماء ومجدها من الماء فيجب أن تلتفت إلى جهة البحر لا إلى البر ! ثم أطرق هنيئة وقال : إن هذه المهمة التي عهد إليك الدوج قضاءها سأؤتياها عنك وأذهب أنا إلى جان مدسيس ، وفي خلال ذلك تختبئ في منزلك إلى أن أعود فأخبرك بحروب الشيطان الأكبر إلى فوسكاري . فقال آريتان : سيكون لك ما تريد . فأنصرف رولاند عند ذلك وهو واثق من أمانة آريتان . وذهب إلى ذلك المنزل الحصري الذي كانت تسكنه جوانا وماتت أمه فيه ، وكان جائعا فأكل قطعة من الخبز الذي كانت تأكله أمه ، وشرب من قدح الماء الذي كانت تشرب فيه أمه . ثم افترق بقرب موعد ذهابه إلى جزيرة أوليفو فوضع عشرة آلاف ريال ثمن البيت في كيس وأقام ينتظر حلول الموعد وهو يتناهي نفسه فيقول : لقد عاقبت ببؤس وانتقم من أمباريا وسيعلم فوسكاري وألتاري ودنودولو أية صاعقة سوف تنقض عليهم !! ولكن هي ... أراه يا ليونور ! إن أشد ما ألقاه من العذاب هو منك فإنك أشد أولئك الأعداء إبادة إليّ لأنني أتمنتك على قلبي وعلى حياتي .

وعند ذلك حاول أن يبعدهما عن فكره ، فإنه كان كلما افترقا بها يتولاه ضعف شديد ، ولكنه لم يستطع . وشعر أن حبها لا يزال مكينا في قلبه وأن الخيانة لم تؤثر على ذلك الحب لا سيما حين كان يفكر أنه ذاهب إلى منزلها القديم الذي تلقى فيه آيات حبها فإن قلبه كان يخفق خفق أجنحة الطائر . وما زال على ذلك إلى أن هجم الليل فالتفت بردائه وحمل كيس النقود وسار إلى جزيرة أوليفو فمشى تواقا إلى البيت فلقني فيه الخادم الشيخ ينتظره في قاعة الطعام . فأعطاه الخادم العقد وسلمه المفاتيح وقبض الثمن وعرض عليه أن يطوف معه الغرف . فقال له رولاند : لا حاجة إلى ذلك فأنتفذه وحدي . وإني أحب هذه الليلة أن أبقى وحدي في المنزل فانهب إلى حيث شئت وعد إليّ في الغد . قال : أشكرك يا سيدي وسأقضي هذه الليلة في قصر دنودولو . ثم انحنى أمامه بمسلة الاحترام وأنصرف . فذهب رولاند في آخره إلى باب الحديقة وأقفله وعاد ببطء إلى المنزل فأطفأ أنواره وجعل ينتقل فيه من غرفة إلى غرفة حتى انتهى إلى غرفة ليونور فوقف عند بابها وقفة الحاشع ثم وضع المفتاح في قفلها ، ولكنه ما لبث أن أخرجه وهو يرتعد فإنه لم يكن دخل مرة إلى غرفة الفتاة حين كان خطيبها . وقد رأى أنه لا يحسر أن يرى ذلك الأثاث الذي كانت تراه ليونور ولا أن يرى تلك الأمتعة التي كانت تسمها فاضطرب اضطرابا عظيما وعاد إلى الحديقة فسار دون قصد إلى تلك

الأرزة الكبرى فقال : هنا كنت سعيداً .

والغريب أنه نسي في ذلك الموقف جميع ما مر به من أيام السجن والشقاء كأنها لم تكن ، وخيّل له أنه كان تحت تلك الأرزة بالأمس مع ليونور ، وأنه جاء اليوم حسب عادته لزيارة خطيبته .

ولكنه ما لبث أن ذكر الحقيقة فلم يطق احتمال تلك الذكرى وهرب وهو يشق بالبكاء .

وعلى ذلك فإن هذا البيت الذي اشتراه لتفديد مقاصد حقه وانتقامه لم يجد فيه غير الحب الذي يقتل مثل هذه المقاصد ، فجعل يهرب من شجرة إلى شجرة في تلك الحديقة كما يهرب الطير من سهام الصياد حتى انتهى إلى آخر الحديقة على رجاء أن يتسلق سورها ويعود من حيث أتى .

وقد تسلق السور وبلغ إلى أعلى الجدار وهم أن يشب من قوته ... غير أنه توقف فجأة إذ رأى رجالاً غنابطين تحفيهم ظلمات الليل عن العيون .

وقد أيقن أنهم جنود كامنوت هناك للقبض على رجل فمن عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وحاول عدة أولئك الجنود فرأى أنهم كثيرون وأنهم يتدنون إلى آخر الحديقة كأنهم يطوقون سورها . ففز عن السور وذهب إلى جهة ثانية من الحديقة وتسلق جدارها فرأى هناك كثيراً من الجنود أيضاً ، فأيقن أن الحديقة مطوقة وعلم عند ذلك أن الذي يريدون القبض عليه إنما هو رولاند !

قعدت إليه سكينته ولم يفكر إلا بطريقة تمكنه من الفرار . وعند ذلك مشى ببطء إلى الأرزة الكبرى دون قصد ، ولكن الحب الذي كان متغلباً عليه في تلك الساعة دفعه إلى تلك الأرزة كأنما خطر له أن يموت تحت تلك الشجرة التي عندها نعيم الحياة . وربما خطر له أيضاً أنه إذا هوجم في ذلك المنزل فخير له أن يكون في حديقة لاتساع المجال .

بينما كان رولاند يسير إلى الأرزة سمع وقع خطوات من ورائه فالتفت فرأى رجلاً قد سقط من فوق الجدار وتقدم في الحديقة ، ثم رأى غيره فعل فعله ، ثم رأى ثالثاً ثم رأى كثيرين غيره قد هبطوا من فوق الجدار واتسوا في تلك الحديقة كما تسلس الأفاعي وتواروا فيها . فقال في نفسه : ترى ، من الذي وشى بي وأرشدني إلي ؟

وعند ذلك ابتسم وخطرت له أمباريا .

وكان قد بلغ الأرزة ورأى أولئك الجنود الذين كانوا قد تواروا عن أنظاره قد عادوا إلى الظهور وجعلوا يبحثون في تلك الحديقة كما تبحث الكلاب عن الطريدة ، فأيقن أنهم سيصلون إليه قريباً وجرد خنجره عازماً على أن يموت تحت تلك الأرزة . وقد انقبضت نفسه لاجزعاً من الموت بل لأنه سمع قبل أن يدرك مرأه من الانتقام .

وفي تلك الساعة الرهيبة التي كان يودع فيها الحياة طهر الحب في قلبه بأشد مظاهره فتمثلت له ليونور وذكر اسمها كأنه يكلتها !

وعند ذلك دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل حتى إذا  
دقت آخر دقاتها قال بصوت المختصر :

— ليونور ... ليونور !

فأجابته صوت خافت حنون قائلا :

— رولاند هو ذا أنا !

فلبت رولاند في موقفه وقد جعظت عيناه وجد الدم في  
عروقه وجعل العرق ينصب من جبينه وهو يرتجف فخيّل له أنه  
يحمل ونسي كل ماضيه بل نسي تلك الآبار التي أقام فيها ستة  
أعوام ونسي أعداءه وانتقامه فلم يذكر غير تلك الحبيبة ولم  
يسمع غير قولها الذي قالته له بالأمس وهو : « لقد انتصف الليل  
أيها الحبيب فلنفترق ! » وأنها ستأخذ بيده وتشيّعه إلى باب  
الحديقة ...

وقد ارتعد وشعر كأنما صوابه قد ضلّ ، فإتته رأى ليونور  
لبسة نفس الملابس التي كانت تلبسها حين كانت خطيبته وعلى  
كتفها إشارة من الحرير الأبيض كان قد أهداها إليها ، وهي  
جميلة كما كان يهبها ... غير أنها لم تكن تلبس ذلك الانقسام  
الذي كان يسهره .

نعم إته رأى ليونور كما رأها أمس وأخذ بيدها بل أخذت  
بيده وسارت به لأنه أصبح من غير قوى .

ولم يكن يرى إلى أين تسير به إذ لم يكن يرى سواها ولا  
يفتكر إلا بها ولا يشعر إلا بينها تتصل بيده فتمتد بالحياة .

وبعد هنيهة وجد نفسه في ذلك المنزل عند باب تلك الغرفة

التي لم يجسر على أن يفتحها ، أي غرفة خطيبته .

كان الظلام حالكا ، غير أنه كان يراها كما يراها في زاوية  
النهار وقد رأها فتحت ذلك الباب وأشارت إليه بالدخول  
فدخل وأقفل الباب ... واختفت ليونور !

— وعند ذلك سقط على ركبتيه وبسط ذراعيه وجعل يشق  
بالبكاء .

وفي ذلك الوقت علت الأصوات في الحديقة وأضاءت ليونور  
مصباحا ومشت به إلى تلك الأصوات وهي آمنة مطمئنة !

هي وهو

\*

بعد أن قيّدت ليونور أمباريا وسجنتهما في الغرفة كما تقدم  
خرجت من قصر ألتاري وهي لا تعلم غير ما علمته من المظنية  
وهو أن رولاند في فيلنسيا وأنه متسكر باسم جان دي لورلزو  
وأن أباه وزوجها عارقان بذلك .

وقد سارت تورا إلى قصر أبيها ولكنها حين وصلت إلى الباب  
وقفت مضطربة كأنها أنفت أن تلتقي برئيس مجلس التفتيش



أي أبيها الذي كان منهيماً دون شك في تلك الساعة بالقبض على رولاند.

وكانت مبرقة ببرقع كثيف كي لا يعرفها من رآها. فجلست على مقعد هناك معدة لجلوس من ينتظرون صدور الإذن لهم بمقابلة الرئيس.

ولم تكن ليونور قد وضعت خطة ظاهرة، فارتأف أفكارها كانت مضطربة بالفرح والرعب. أما الفرع فلأنها وثقت الآن أن رولاند لم يجرها وأن الأعوام الطويلة التي أبعد عنها فيها كان يقيم في خلالها سجيناً في الآبار، وأنه أخيراً لم يمت بل هو في قيد الحياة. وأما رعبها فلأنها كانت غالة بأنهم سيقبضون عليه.

وقد مثل لها في تلك الساعة ما كان يعانیه خطيبها المنكود في سجنه مدة سنة أعوام، قطرت هذا التصور من غيبتها لأنه يحاول دون التفكير في طريقة إنقاذه. وحصرت أفكارها في البحث عن وسيلة هذا الإنقاذ.

نعم، إنها كانت تريد إنقاذه وهي لا رجاء لها به بعد أن أصبحت زوجة ألتاري. ولكنها كانت عازمة بعد الفوز بإنقاذه على أن تنتقم من أبيها الذي خدعها ومن زوجها الذي كذب عليها انتقاماً هائلاً دون إسحاق فنتقلها ثم تقتل نفسها.

غير أنها كانت تقول في نفسها كيف يحق لي أن أنتقم للخيانة؟ ألم أخذه أنا أيضاً؟ أما كان يجب علي أن أقاوم إلى النهاية ولا أرضى بالتاري. زوجاً ولو انتقم من أبي؟

وفيا هي تفتكر بذلك رأت فيليب الشيخ خارجاً من القصر

فلم تستغرب وجوده في قصر أبيها ولكنها كانت شديدة الاضطراب لا تجد من تعتمد عليه فأرادت الاعتماد عليه وثبته حتى وصلت إلى منزل أبيها في جزيرة أوليفو. فلما رآها الخادم الشيخ صاح صيحة قرح ودخل معها إلى المنزل فقال لها: إني أنبئك يا سيدتي بنبا سار وهو أن المنزل لا ينقض بعد الآن كما كان يريد أبوك. قالت: لماذا؟

— لأنه نبع.

— أباغ أبي المنزل؟

— نعم يا سيدتي، ولكن الذي اشتراه تمهد أن لا يغير شيئاً فيه بل قال أيضاً إنه لا يقيم فيه أكثر من أسبوعين.

— ما هذه الشروط الغريبة؟

— لقد تمّت يا سيدتي، وهذه شروط البيع الذي أمضاه أبوك وسيسلم الرجل المنزل في هذه الليلة.

وتأولها القعد مقترحاً فبدأت قراءته حتى ارتشت وقالت: جان دي لورزو؟ غير أنها فكنت من ضبط نفسها وهي تعلم أن هذا المثاري رولاند وأنه سيعضض بعد هنية فقالت له: أهو جان دي لورزو الموقّع على هذا العقد الذي اشترى المنزل؟ قال: نعم يا سيدتي.

— وأبي وقع عليه؟

— نعم يا سيدتي، فهل ما يبدو عليك من الاضطراب يسبب البيع؟

— نعم... نعم.

— إن سيدي دندولو قد وقع على عقد البيع ولكنني أعيد عليك ما قلته وهو أن المنزل لا يتغير فيه شيء وأن صاحبه لا يسكنه غير أسبوعين وأني سألبك حارسه كما كنت ، أي أنك تستطيعين أن تأتي إليه حين تشائين حسب العادة .

فاطرت ليونور مفكرة وقد تشككت لها خيانة أبيها فعلت الآن كيف أنه لم يتأثر يوم قبضوا على رولاند وكيف أنه باعها بيع السلع بالنصيب الذي هو فيه . فتأملت لهذه الخيانة ولكنها أبعدتها عن أفكارها إذ يجب عليها أن تنظر إلى الحاضر لا سيما وقد خطر لها أن يبيع هذا المنزل لم يكن إلا مكيدة . للقبض على رولاند فنظرت إلى الخادم وقالت له : متى يحضر هذا المشتري ؟

— في هذه الليلة .

— أية ساعة ؟

— في الساعة الثامنة .

— أيعلم أي بذلك ؟

— نعم يا سيدي .

— يا للهول ... يا للظلمة !

ذلك أنها أيقنت الآن أن يبيع المنزل كان فخماً منصوباً ، فلم يعد يخطر لها إلا أن تكون بجانب رولاند ، فلما تنقذت وإما قوت وإياه .

وقد عزمت عند ذلك عزمًا باتًا ظهر من إلتقاد عليها ، فسألت الخادم أسئلة مختلفة ثم عادت إلى قصر زوجها . وهناك رأت من دلائل اتهام القواد والجنود ما استنتجت منه أن

ألتباري سيكون مع الذين يقبضون عليه . وفي الساعة الثامنة من المساء برحت القصر وعادت إلى جزيرة أوليفو فدخلت إلى المنزل من باب في الحديقة كان لديها مفتاحه ، ودخلت إلى غرفتها القديمة فيه دون أن يراها الخادم . وقد هاجت أحزانها في تلك الساعة وذكرت سابق هناها في ذلك البيت فارتأت أن تظهر لرولاندي تلك الملابس التي كان يراها فيها أيام الخطبة . فلبست تلك الملابس ونزلت إلى الحديقة فسارت إلى تلك الأرزة الكبرى التي كانت ملتقى الحبيبين .

\*

وفي الساعة الثامنة كان ألتباري ودندولو قد شرعا بالعمل فطوقا الحديقة بالجنود . وفي الساعة العاشرة وصل دندولو إلى الجزيرة يخفّره ألتباري الذي تولى بنفسه إدارة هذه المهمة . وقد التفت عند ذلك إلى دندولو وقال له : لماذا لا نقبض عليه في الحال ؟ فأجابه دندولو قائلاً : إنني أعرف رولاند حق العرفان فهو لا بد له أن يبيت الليلة في هذا المنزل إحياءاً لتذكاراته القديمة ، وفوق ذلك فإن المنزل مطوق فلننتظر الساعة الموافقة . فاطرق ألتباري هنيهة ثم قال : هل اقتكرت بما يجب أن نصنع به حين نقبض عليه ؟ قال : إننا نحاكمه لتهمة الحرب والمؤامرة والعصيان وتسليم اللصوص وكل تهمة من هذه التهم كافية للحكم عليه بالإعدام . وعقد ذلك رأى دندولو رجلاً قد دنا منه فقال : من هذا ؟

ساندريجو؟ قال: نعم يا سيدي، فقد رأيت كل من أفعلة الجن  
ولم يبق مناص له منا.

وعند ذلك وضع يده على قبضة خنجره ورأى ألتباري يرق  
عينيهِ فسأل دندولو قائلاً: من هذا الرجل؟ فأجاب قائلاً: أَمْ  
تَقُل لي إنك تخاف عصابة رولاند وإنيك تؤثّر قتله حين القبض  
عليه؟

— كلا! إنني لم أقُل لك شيئاً من ذلك.

— ولكنك خطر في بالك دون شك، وهذا الرجل يكفيننا  
مؤونة المراكب.

فأطمان ألتباري وتبادل مسح عمة نظرة رضى. ثم سار  
الاثنان يتفقدان الجنود فرجدهم في المراكز التي عيّنوها لهم.  
وسأل ألتباري دندولو قائلاً: كم لدينا من الجنود؟ قال: مئتان.  
فضحك ألتباري ضحكاً عصبياً وقال: إن من رأانا يحسب  
أننا نريد الهجوم على قلعة عصنة. فقال ساندريجو وقد جمع  
الحديث: لقد كان يكفي أن أكون أنا وحدي. وعند ذلك  
قال دندولو: لقد انتصف الليل. وأشار إلى الجنود الإشارة  
المتفق عليها فاندفعوا جميعهم يتسلقون الأسوار ويشبّون إلى  
الحديقة.

أما ألتباري ودندولو وساندريجو فقد دخلوا من أحد أبواب  
الحديقة ومشوا إلى المنزل حتى إذا أصبحوا على قيد عشرين خطوة  
منه ظهر لهم نور فجأة فاصفرت وجوههم وجردوا خناجرهم  
ثم اندفعوا إلى ذلك النور وصعدوا إلى المكان الذي كان ينبعث

منه فرأوا ليونور تحمل يدها مصباحاً وقد وقفت أمامهم وقوف  
الخيال وقالت: ادخلوا فإني بانتظاركم.

فلبث دندولو في موقفه وقد وقف شعر رأسه وجد الدم في  
عروقه. وهاج ألتباري هياج الثور الضاري وقد قطعت الغيرة  
قلبه فصاح بها قائلاً: ماذا تعملين هنا؟

فوضعت ليونور مصباحها على المائدة وأجابت زوجها بله  
السكينة قائلة: سأجيبك على سؤالك، ولكن ادخل في البدة  
وادخل أنت يا أبي ولا حاجه إلى أن أعلم جميع جنود فيلينيّا  
أسرارنا العائلية. قد دخل دندولو وجلس على كرسي واهي القوى  
وهو يقول: ويلاه! إنها عارفة بكل شيء!

أما ألتباري فإنه لبث واقفاً ينظر إلى ليونور وهو يكسّد  
يفكرسها ينظراته. غير أن ليونور لم تكثر من هذه النظرات  
وقالت بصوت مرتفع: إن الرجل الذي تبحنون عنه غير موجود  
هنا، فأخرجوا من هذا المنزل الذي تدسونه قهر منزل أبي.

فنظر رئيس البوليس إلى دندولو وقال له: أجب أن تطيع  
يا مولاي؟ فأجاب بصوت غشيق قائلاً: نعم أطيعوا.

فخرج الجميع. وعند ذلك وقفت ليونور وقفة الملكات  
وأشارت إلى ألتباري أن يجلس فجلس وجلست وبينها دندولو.  
وعند ذلك التفتت إلى أبيها وقالت:

— إنني أبدأ بك يا سيدي لأنك تعلم أنني لم أعد بفنك، وأنت  
تعلم أيضاً فيما أظن بأنني عرفت تلك الحقيقة الشائنة. نعم  
عرفتها. فإنك بمتني بلقب ومن أجل منصب سحق قلبي...

لا . لا تجب بشيء . ودعني أتكلم .. نعم لقد عرفت أنه أقام  
سنة أعوام في الآبار ، وأنتك ارتكبت أقيح آثام الكذب . إنه  
كان هنا منذ هنية فأخبرته بعزمك على القبض عليه وسهلت له  
سبيل القرار !

نعم إنه نجح ولكن قضى علي أن أتعذب من أجلك ...  
إذن فأعلم أنني لست بتلك ولا أريد أن تكلفني ولا أن تنظر  
إلي . وفي مقابل ذلك أعفو عنك ، أي أنني لا أجمع نساء فينيسيا  
وأفصحك أمامهم . أرضيت هذا العفو ؟ أوصني أن لا تكلفني  
ولا تراني ولا تكون أي ؟ لا تتكلم فإن صوتك يؤلمني ، وإذا  
كنت رضية فأوضح عن قبوك بخروجك من هنا .

وكان . دندولو يسمعها وهو يحسب أن الأرض تقور به وقد  
صبح وجهه بلون المحكوم عليهم بالإعدام فلم يستطع أن ينظر إلى  
ابنته بعد أن علم منها أنها عرفت الحقيقة . وقهض فخرج من  
الغرفة دون أن ينس بكلمة ولكنه حين بات خارج الغرفة تنهد  
تنهداً يشبه صوت الشور المذبح .

وأما ألتيارى فإنه نظر إلى امرأته بعد انصراف أبنها نظرة  
دموية وقال لها : وأنا ؟ ماذا عسى أن تقولي لي ، أي لزوجك  
وسيدك ؟

قالت : أقول إنك تحملني على الإشفاق عليك بهذا التبرح ،  
فإنك منذ رأيتني هنا تلتمس قوة تعينك على قتلي فلا تجدها .  
والذي أقوله لك ، إنه إذا كان دندولو جباناً سافلاً فانت أشد  
جبناً وأحط نفساً . فقد خنت رجلاً كان يعدك من أخلص

إخوانه ... أنت الذي يخونك الآن أيضاً ! أنظر إلى ما حوالبك  
واحذر .

غير أن ألتيارى لم يسمع هذه الكلمات الأخيرة إذ لم يفتكر  
إلا بأمر واحد وهو أن ليونور رأت وولاند وأنها تقر بذلك .  
ولم يكتفّر لمّا قالته من أنها ساعدته على الفرار بل كلفت همه  
متصرفاً إلى ما دار بينهما من الحديث وأنه كان حديث غرام دون  
شك ، فنبض والثار تنوعه في عينيه وخطا خطوتين إلى ليونور  
فقال لها : إذن لقد رأيت ؟  
— لقد قلت لك ذلك .

— وليست هذه المرة وحدها دون شك ... قولي ... إنني  
أريد أن أعلم هذه الحقيقة منك ولو صرعتني الغيرة أمام قدميك !  
وبعد ، فإنك تتكلمين عن الحياة من الذي خنته أنت ؟ أخت  
العاشق أم خنت الزوج ؟ فإنك كنت خطيئة وكان الخوف  
لديك أشد من الحب ؟

فاضطربت ليونور لهذه الأقوال وقالت في نفسها بلهجة  
القنوط : نعم هذا هو ذنبى فقد كنت خائنة مثلهم .

وعاد ألتيارى إلى الحديث فقال : إنك تخلّيت عنه في أشد  
ساعات شقاؤه ولماذا ؟ لتضمني مستقبل أهلك وتحققي أطباعه .  
وهذه هي خيانتك الأولى التي لا علاقة لي بها في شيء . وأما  
خيانتك الثانية فهي أنك خنتني أنا وأنا الآن أناقشك الحساب  
وذلك من حقي ، فألقي التهمة إذا كنت تجسرين .

وقد ضغط عند ذلك على قبضة خنجره فأيقنت ليونور أن



ساعة موتها قد دنت وسرت بهذا الموت لأنها تجد به راحتها الكبرى ولكنها ذكرت لفورها أن رولاند غتبيء في غرفتها وأنهم قد يعثرون به وأنها تستطيع إنقاذه فرغبت في الحياة بضع ساعات إلى أن تأمن عليه ، وأجابت زوجها قائلة : إنك منخدع فأني لا أعاف قضائك . فقال : ماذا تعنين ؟

أعني أنهم إذا لم يروني صباح غد ، يذهب صديق مخلص لي إلى قم الأسد ، أي إلى المكان المعدّ لوضع تقارير الوشائات ، فيضع فيه تقريراً يثبت فيه أن ألتيناري قائد جيش فينيسيا العام ياتر مع ضباطه على الدوج ومجلس المشرة . والآن فاطمن صدري بخنجرك .

فسقط الخنجر من يد ألتيناري وتراجع منذراً مضطرباً . ثم وثب إلى الباب ونظر نظرة الفاحص إلى الحديقة فلم أنه لم يسمعها أحد فعاد إليها وهو يرتجف ونظر إليها نظرة شغفت عن رعبه ونسي في تلك الساعة حبه وغيرة ويات لبولور غريبة لديه لا يرى فيها إلا امرأة راقعة على سريره .

وأي سرّ هو ؟ فإنه يقوده إلى الشنق أو يصيبه بما أصيب به رولاند . ولذلك دعا منها وقال لها بلهجة المستطف : كيف عرفت هذا السرّ ؟

قالت : ذلك لا يقيدك ، فأني واقفة على سرّك منذ عامين . فلم أكن أكثر له إذ لا فرق عندي بين أن تكون أنت حاكم فينيسيا أو فوسكاري . ولكنك إذا أنذرتني أنذرتك ، وإذا طلبتني بحق لا أريد أن أعرفها دارت الدائرة عليك . والآن

فاسمع ما أريد أن أقول لك :

— إني ، حرصاً على شرف اسمي ، لا أريد أن أغتبر شيئاً من حياتنا الظاهرة ، ولكنك تراعي شرفنا القديم فلا أكون زوجتك إلا في أعين الناس ، وفي مقابل ذلك أنسى مؤامرتك . أبواقفك هذا الشرط ؟

فأجابها بصوت غتنتق قائلة : نعم . قالت : إذن إنصرف من هنا كما إنصرف أبي .

فترجع ألتيناري وهو ينظر إلى هذه المرأة التي باتت حياتها في يديها . ولما رأت لبولور أنها باتت وحدها تهتت تنهداً طويلاً وشمرت أن قواها قد تلاشت . ولكنها علمت أن مهمتها لم تنته بعد فشددت نفسها وصعدت إلى غرفتها التي خبأت فيها رولاند ففتحتها وقالت له :

— رولاند ، إنك حرّ طليق ؟

فحدثها رولاند فوجد أنها لم تتغير ما خلا أن علائم الهرم كانت بادية عليها .

وكانت واقفة مطرقة الرأس تحمل المضباح بيدها فكانت تشبه التمثال . فهابت الأفكار في غيبة رولاند ونظر إلى هذه المرأة التي وقفت أمامه دون أن تتكلم ، تلك التي كان يعبدها وينتظر أن يسمع كلمة منها لينطرح على قدميها ، تلك التي تزوجت سواه وهو طريق في آبار السجن ، فكبرت عليه خيانتها واشتد به اليأس فقال في نفسه : أية فائدة بقيت من الكلام ! وبعد ، فإذا أقول لها ، أؤنبها وألومها ؟ وأي لوم يقيد وهي

قد اشترت سعادتها بأسي الأبدى ؟ كلا ، إني لا أقول لها كلمة  
فإن الكلام لا يقيد .

وعند ذلك المنحى أمامها ومربها فقال : الوداع يا ليونور .  
ثم مشى ببطء وتوغّل في الحديقة إلى أن أخفاه الظلام .

أما ليونور فانها سارت في أثره وقد كاد يقتلها الحزن وقد  
أضلّ اليأس رشدها فحسبت أن تطفئ المصباح وأن تقفل الأبواب  
وذهبت توالى إلى قصر زوجها ففتحت الغرفة التي سجنّت فيها  
أمباريا ففتكت قفودها وقالت لها : إذ هي دون أن تزيديني حرفاً .  
وكذلك أمباريا فانها نظرت إليها نظرة ملؤها الوعيد  
وانصرفت دون أن تتكلم . وعند ذلك ذهبت ليونور إلى غرفتها  
وقد وهنت قواها ، فلم تستطع الوصول إلى سريرها وسقطت على  
الأرض شبه ممّيتة عليها وهي تشفق بالبكاء وتقول : يا وبع  
نفسي ، إنه لم يغفر لي ... إنه لا يحبني ، فاية فائدة بقيت لي  
من الحياة ؟

\*

ولم يكن رولاند يأكل منها يأساً فانه اختبأ في الحديقة إلى  
أن رأى ليونور خارجة منها ، فحاول أن يخرج من مخبئه إليها ،  
ولكنه توقف فجأة وقال في نفسه : أية فائدة من الكلام فاني لم  
أقل لها شيئاً حين أنقذتني فلا أقول لها شيئاً الآن ، إذ أن كل شيء  
قد انتهى بيننا منذ أخبرني حارس هذا المنزل أنها تزوجت .  
نعم ، إنها ماتت في عروقي ولست أراها الآن ، بل أحلم أنني أراها .

وقد قام على ذلك نحو ساعة إلى أن تمثّل له أعداؤه قهاج ثأثوه  
وأخرج من تلك الحديقة ، حتى إذا وصل إلى بابها لمح ظلاً يقتصب  
وسمع صوت رجل يقول له بلمجة مهددة : إلى اللقاء يا رولاند ،  
وما لقاءنا ببعيد !

فلم يكتف رولاند لهذا الرجل الذي توارى عنه في الظلام  
ولم يقتف أثره إذ لم يعد يبالي بأمر وهام على وجهه في تلك الليلة  
كما هام يوم عرف بخيانة ليونور . ولبت على ذلك إلى الصباح  
فذهب إلى المنزل الذي تقم فيه جوالاً وهناك لقي سكالا بريئو  
ينتظره فقال له : إن رجالنا قد حضروا يحملتهم وسيحضرون  
الليلة إلى المنزل الذي عينته لهم في جزيرة أوليفو .

فقال له رولاند : لم يعد الاجتماع ممكناً في هذا المنزل لأنه  
غير آمن وأظن أننا سنلتقي في المغارة السوداء . فنظر سكالا  
بريئو إليه نظرة اندهال وقال : والذي كان يجب أن نفعله ؟

— سنفعله بعد الآن ، فاذهب أيها الصديق وأخبر الرفاق أنني  
بعد ثمانية أيام سأكون في المغارة السوداء . وأنت حرّ في  
هذه المدة .

فقال له بصوت يضطرب : إذن أستطيع أن أذهب إلى قرية  
ميستر فأقيم فيها هذا الأسبوع ؟

— نعم إنك ستوصل أوامري إلى هناك ثم تذهب إلى تلك  
القرية فترى بتلك .

— ما هي الأوامر يا سيدي ؟

— إنك ستذهب على سفيلتنا الكبرى يا ساكتب إليك من

الرسائل ، فانتظر قليلا .

ثم قام فكتب ست رسائل فدفعها إليه فقال له سكالا برينو :  
إن هذه الرسائل ستصل إلى أصحابها بعد يومين . قال : هو ذاك ،  
أي أنك بعد ثلاثة أيام ستكون سعيداً .

فبرقت عينا سكالا برينو بأشعة الفرح وأوصاه رولاند بمسا  
يجب أن يفعلها مع الزعماء . وبعد ساعتين ركب سكالا برينو  
السفينة فبلغ بها الشاطئ . ثم سافر من هناك إلى المغارة السوداء .

### البيت القروي الصغير

\*

إن ذلك الرجل الذي وعد رولاند حين خروجه من حديقة  
مَنْزِل دندولو توارى مسرعاً في الظلام إلى جهة الميناء فذهب إلى  
خاوة حفية مقفلة الأبواب لا يجتمع فيها غير اللصوص والمتشردين .  
وهناك قرع بأعلى رأسه بشكل خاص ففتح له ودخل فمشى إلى  
رجل كان جالساً على المائدة ولمس كتفه ، فالتفت الرجل وهو  
بلايس البحارة وقال : ساندريجو ؟ قال : نعم ، لقد دنا الوقت .  
قال البحارة : حينذاك فأني أنتظر هنا منذ ثلاث ليال . قال :  
تعال معي .

وخرج الاثنان من الخاوة فقال ساندريجو للبحار : يجب أن  
يحتاز في البحيرات بأقرب حين .

- كيف ذلك ؟ أأعلمهم بطاردونك ؟

- كلا ، بل إنني أصبحت قريباً من أرباب الثروة وستنال  
حظك منها .

قطهرت علائم السرور على وجه النوبي ، وبعد ربع ساعة  
كان القارب يحتاز البحيرات على السرعة .

\*

عندما كانت الجنود تزحف من حديقة مَنْزِل الجزيرة إلى المَنْزِل  
للقبض على رولاند كان ساندريجو واقفاً بجانب دندولو وألتياري  
وخنجره بيده فلو ظهر له رولاند في تلك الساعة لقطعته به  
لا محالة .

فلما وصل الجنود إلى باب المَنْزِل وفتح ذلك الباب قطهرت  
منه ليونور دون رولاند ، دهش الاص دهشاً عظيماً وأيقن حين  
رأى اضطراب دندولو وألتياري أنه ستجري أمور غير عادية ،  
فتراجع مسرعاً واختبأ تحت شجرة بجانب الباب وجعل يصغي .  
فسمع ليونور تأمر الجنود بالانصراف بل ، العظيمة ورأى أن  
رئيس ديوان التفتيش أصدر أمره إلى رئيس البوليس بالامتنال ،  
فكأنه يمين من حقه وأيقن أن رولاند قد نجح .

ولكن ساندريجو لم يتصرف مع الجنود بل تقدم من النافذة  
التي كانت مفتوحة وسمع كل ما دار من الحديث بين ليونور وبين

أيها وزوجها . وكان يعتقد من قبل أن رولاند قد هرب ،  
ولكنه حين سمع كلام ليونور أيقن أنه لا يزال في المنزل . وعزم  
على التكون له إلى أن يخرج فينقذ عليه ويقتله .  
على أنه انتهى عن هذا العزم حين رأى ليونور تفضح سر  
زوجها . حين علم أن ألتباري يأتي على الدوج فقال في نفسه :  
إن حياة رولاند تفيدني الآن أكثر مما تفيدني موته ، وسأقتله  
بعد أن أبلغ مرامي من ألتباري . وأمال تروتي . وقد رأيناه كيف  
أنه توعد رولاند حين خروجه من الحديقة دون أن يحاول قتله  
وذلك لأنه أراد أن يجعله ياباً لخبراته مع ألتباري .

\*

هذا ما كان منه في تلك الحديقة ، وقد ركب السفينة مع  
النوتي كما تقدم فاجتازت به البحيرات مسرعة حتى بلغ الشاطئ  
عند طلوع الفجر فسار نواً في طريق قرية ميسر ، أي إلى ذلك  
المزل العتزل الذي لقي فيه جوانا .

وبعد هنيهة عرف أن ضيوف المزل لا يزالون فيه . فلما وقي  
من ذلك عاد إلى أحد الفنادق فاستأجر فيه سواداً وأوم صاحب  
الفندق أنه سائر في طريق تريفيز حتى إذا توارى عن الأنظار  
ربط الجواد إلى شجرة وعاد إلى القرية فكمن على مسافة قريبة من  
منزل جوانا . وقد صبر إلى أن هجم الظلام فحس إلى ذلك المزل .  
وكان والد رولاند قد نام وكذلك يانكا ، فلم يبق ساهراً  
غير جوانا فكانت تجالس مطرقة تفكر ولعلها كانت تفكر في

غرامها الزائل . ولا تريد بغرامها ذلك الغرام السافل الذي  
اضطرت إليه مكرهة لإنقاذ أم رولاند من الجوع ، بل غرامها  
الصادق ، فإن قلبها قد يكون سرت إليه أشعة هذا الحب كما  
سرى .

ولبت مدة طويلة وهي مطرقة مفكرة إلى أن عزمته على  
الرفاد وسارت إلى غرفتها فسمعت عند ذلك طرقاً على الباب .  
فوقفت تصغي دون أن تخاف فإنها تعودت الأخطار فلم تعد  
تكثر لها ، وباطلاً كبس الجنود بينها للبحث عن سكالاً  
برينو ورجاله كساندريجو وسواه .

ولكن رولاند كان قد أوصاها أن تبأل بالحرص وأن لا  
تفتح الباب لأحد إلا بإشارة خاصة لم يعرفها غير رولاند وسكالاً  
برينو . فلما سمعت ذلك الطرق أسرعته إلى إطفاء المصباح  
ولبتت في موقفها وهي عازمة على أن لا تفتح فإن الطرق كان  
على الباب الداخلي فلا بد أن يكون هذا الطارق قد تسلق  
سور الحديقة . وهو دون شك غير رولاند وسكالاً برينو لأنه لم  
يطرق الباب بالشكل السري المضطج عليه بينهم .

وبينا هي تسمع الطرق سمعت أيضاً ذلك الطارق يناديها  
باسمها بصوت منخفض .

فارتعشت حين سمعت هذا الصوت واصقر وجهها . رباه ...  
هذا هو !

وردد الصوت نداه قائلاً :

— جوانا ... إني عالم بأنك في المزل ، وإنهم يطاردونني



الآن أرضين أن يقبضوا عليّ ؟

فأضاعت عند ذاك المصباح بيدى تضرطاً ، وذهبت إلى  
الغرفة التي بنام فيها والد رولاند وبينانكا فأقفلت بابها ووضعت  
الفتاح في جيبها . وعادت إلى الباب فسمعت الطارق يقول :  
« افتحي يا جوانا إذا لم يكن لعاطفة أخرى فمن قبيل الإشفاق »  
وأسرعي إلى تخبتي عندك فبيل أن يدركني المطاردون ويفوت  
الأوان .

فأسرعت جوانا عند ذلك إلى الباب ففتحته . وقالت : أهذا  
أنت يا ساندريجو ؟ قال : نعم أنا هذا ، ألم تعرفيني من صوتي ؟  
ثم دخل وقال : لقد كنت أحسب أنك ستدعيني على الباب .  
فذهرت جوانا لما رآته منه ، فإنه حين دخل جعل ينظر  
نظرة الباحث وهو مطمئن فقالت له : لقد كذبت فيما ادعيت ،  
فإنهم لا يطاردونك ! فضحك وقال : لقد أصبت يا جوانا .

— إذن أخرج من هنا ... اذهب في الحال .

— سأذهب كما تريد فاطمئي .

— ماذا تريد ؟

— سوف تعلمين ماذا أريد ، ولكن لم هذا الجفاء ، فإني لم

أكن أحيفك من قبل ؟

فتنهدت جوانا تنهد ارتياح كأنها اعلمت بعض الاطمئنان ،  
فدنا ساندريجو عند ذلك منها وقال لها : أملكك نسيت يا جوانا  
أني أحببتك من قبل وأنت أحببتني أيضاً وأنت لا تزالين تحبينني .  
نعم إنك لا تزالين تحبينني فانتفضي قلبي إذا كنت تجسرين . وإذا

كنت تحبينني فكيف تستقبليني بهذا الجفاء ؟

فلنكت جوانا روعها تباعاً وأحرّ وجهها لكلمات ساندريجو  
الأخيرة فقالت له : نعم إني أحببتك من قبل وكنت أرجو أن  
أكون امرأتك وأن أكون معك من أسعد النساء .

— رأيبت إذن ؟

— نعم ، ولكن ذلك لم يكن غير حلم يا ساندريجو وقد  
حدثت حادثة قضت بقرائنا إلى الأبد .

— وما هذه الحادثة ؟ أملكك أحببت موابي ؟

— كلا يا ساندريجو ، قبل المراء لا يحب قلبه مرتين . وإني  
مستعدة للموت في سبيلك الآن كما كنت من قبل .

وعند ذلك سألت دمعان من عينيها وقالت له : إني أصبحت  
غير جذيرة بك ، فاذهب يا ساندريجو ولا تفتكرني بعد الآن .

— ما هذه الأقوال التي أسمعها منك ، فقد كنت أعرف من  
قبل أنك غريبة الأخلاق وكنت تبالغين في كتمان حبك عني فلم  
أعلمه إلا من عبيدك ، ولكنني أرى منك الآن غير ما كنت أراه  
من قبل ، وقد عدت إليك كي أزوج بك فما هذا الانقلاب ؟

فعضت جوانا يدها من اليأس وقالت : ذلك مستحيل ،  
فأسكت واذهب فإنك تقطع قلبي .

فجلس ساندريجو باطمئنان وقال لها : إذا كنت لا تريد  
أن نبحت في الغرام فلنبحت في سواء . فقلبي الآن كيف اتفق  
وجودك هنا بعد أن نبحت عنك ملياً في فينيسيا ، وقد عهدتلك

فقبرة فكيف نقيم في هذا المنزل الذي تدل رياسته على البسطة والثروة ؟

فصكنت جوانا وبدأ عليها الاضطراب فقال لها : لقد فهمت الآن معنى قولك إنك غير جدية بي ، فإنك هنا مع عشيق . فارتعشت جوانا وسألت أن تحتج عليه وتقول له : كلا يا ساندريجو ليس لي عشيق ولا أحب سواك ! ولكنهما لم تستطع أن تقول فأن ما رأته من ابتسام ساندريجو ذكرتها بذلك الشيخ وتلك الفتاة التي أفتنمها عليها رولاند وأيقنت أنها في خطر فقال لها ساندريجو بعد سكوتها : أجسري على إنكار ما أقول . فأجابته عند ذلك بلهجة القاطنين قائلة : نعم لي عشيق وإني أقيم في منزله وهو غائب الآن ولكنه سيعود قريباً والويل لي ولك إذا وأنا مما .

\*

في ليلة من ليالي الشتاء وفي المنزل الحغير الذي كانت تقيم فيه جوانا مع سكالا برينو في فينيسيا ، كانت جوانا تهيء الطعام لسكالا برينو بينما كان سكالا برينو يمسح غدارته وينظف أسلحته . وقد قورع الباب عند ذلك بشكل اصطلاحى فقال سكالا برينو إنه صديق من الرفاق .

ثم ففتح الباب فظهر منه رجل فأدخله سكالا برينو وقال له : ماذا حدث يا ساندريجو ؟ قال : لم يحدث شيء سوى أنهم طاردوني فأقلت منهم وأتيت إلى هنا لألتجئ .

كان عمر جوانا في ذلك العهد ستة عشر عاماً وقد جرت هذه الحادثة التي نقصها الآن قبل الحوادث التي بدأنا قصتها بهام أي قبل عام من تاريخ القبض على رولاند .

ويذكر القراء أن سكالا برينو كان زعيم ساندريجو وأن هذا اللص كان يعتمد على زعيمه حقداً هائلاً بسبب تلك الحادثة التي جرت لها مع أمباريا في المغاور خلافاً لسكالا برينو فإنه لم يكن حاقداً عليه بل كان يميل إليه ويقضه على الرفاق ولذلك قال لجوانا حين دخوله : أكرهي الطعام يا جوانا فإنه يأكل معنا . وقال لساندريجو : أدخل أيها الأخ !

وبعد أن أكل وشرب معها التفت برءائه وثام وقد أنهكه التعب . وثام سكالا برينو أيضاً فذهبت جوانا إلى الغرفة التي كانت تنام فيها بعد أن نظرت نظرة أخيرة إلى ساندريجو فكانت هذه المرة الأولى التي تسارقت فيها بالرقاء .

وقد أقام ساندريجو معها ثمانية أيام فكان يقضي الليل بالمقامرة وقص أخبار حملاته فكانت جوانا تسمع أخباره وهي تعجب ببسالته وإقدامه . وقبل سفره بيوم اتفق أن سكالا برينو كان خارج المنزل فأقام ساندريجو معها وجعل يقص عليها غرائب أخباره حسب عاداته .

وفيما هو يتكلم قطع على نفسه الحديث وقال لها فجأة : أتملن يا جوانا أنك بارعة الجلال ؟

فأطرقت جوانا برأسها إلى الأرض استحياءً واحمر وجهها ثم اصغرت حين أخذ ساندريجو يدها بين يديه وقال لها وهو

يبتسم : أتريدن أن تكوني امرأتى ؟ إنى أذهب بك إلى الجبال  
هناك حيث تنتشقين أريج الأزهار وتناجين الأطيار وتعيشين  
أرعى عيش .

فتظرت إليه عند ذلك وقد وضعت يدها على صدرها كأنها  
خشيت شدة غفوق قلبها للرحا وقالت : نعم إنى أريد أن  
أكون امرأتك لأنى لا أجد لك نظيراً بين الرجال ، فذهب  
وعند يكاهن يزوجنا أبعك إلى حيث تريد . فحاول ساندريجو  
أن يضم الفتاة إلى صدره فهربت منه وأسرت إلى غرفتها  
فدخلت إليها وأقفلتها .

وفي اليوم الثاني سافر ساندريجو وقد أثرت عليه جوانا  
تأثيراً عظيماً بدليل أنه كان يتردد إلى المنزل كلما عاد من سفر ،  
بحيث زاد تعلقه بها وزادت به افتتاناً وهي محافظة على نفسها  
أشد المحافظة .

إلى أن حدثت الحوادث التي ذكرناها فاشتفى ساندريجو بعد  
أن قبض على سكالابرينو وربما انتهى به الأمر إلى سلوانها .  
غير أن جوانا لم تنسه رغم تقادم الأيام ، وكانت دائماً تناجي  
نفسها فتقول : إنه يحبني ولا بد أن يعود يوماً فيزوج بي .

هذه هي حكاية تلك الفتاة المنكودة قلبه بصور القارىء كم  
لقت من اليأس حين اضطرت مكرهة إلى الاتجار بجهاها لإنقاذ  
أم رولاند من الموت جوعاً ولم كانت تضعيها عزيمة وهي  
حافظة نفسها لمن تمتد أنه خطيئها .

فلما لقيته بعد أعوام طويلة اضطرت أن تقول له : نعم ،

لى عشيق وإنى مقبلة فى منزله ا

\*

أما ساندريجو فإنه لما سمعها تقول هذا القول وقف وظهرت  
بين عينيها علامة الرعيد فقال : أنت تكذبين يا جوانا فليس لك  
عشيق ، وأنت مقبلة هنا مع دوج فينيسيا السابق ومع ابنة  
المهظبة أمباريا .

فصاحت جوانا صيحة الرعب ونظرت إلى ما حولها كأنها  
تبحث عن سلاح تقتل به هذا الرجل الذي طالما أحبته . ولكن  
ساندريجو أدرك قصدها فهز كفه وقال لها بصوت أجش :  
أصغى إلى يا جوانا ، إنه يوجد رجلان أهاناني إهانة لا أغفرها  
لها ، وسيكون انتقامي منها دون إشفاق . وإنت تعرفين هذين  
الرجلين فلا حاجة إلى ذكر اسميهما .

والآن ، فإني محتاج إلى أخذ الفتاة بيانكا التي عهد إليك  
بحراستها وأنا لا أريد لها سوءاً ولكنى أريد أن أرجعها إلى أمها  
لأن ذلك يوافق مشرعاتى ، فهل أنت معى على أعدائي ؟ إذا  
كان ذلك فتعالي معى فإنا نذهب إلى كاهن يزوجنا وتصبحين  
امراتى إلى الأبد .

ولقد قلت لى أنك غير جديرة بى ، ولكنى أفهم ما تقولين  
ولا أفهم إلا أنى أحبك وأنت تحبيننى ، فتعالي معى إلى فينيسيا  
حيث تقولين كل ما جرى هنا ثم نذهب إلى كاهن يعقد لنا عقد  
الزواج ، فماذا تقولين ؟

قالت : أقول إن بيانكا لا تخرج من هنا ما زلت في قيد الحياة .

وقد قالت هذا القول بلهجة دلت على عزية راسخة وروح الجبال . فقال لها اللص : إذن أنت عليّ مع أعدائي ؟

— نعم !

— وتقولين إنك تحبينني ؟

— نعم !

— إذن لتلقي التبعة عليك فأنت أردت ذلك وأنت المسببة إلى نفسك .

وعند ذلك انقضّ عليها انقضاض البازي على الحمامة فألقاها إلى الأرض وأوثق يديها ووضع كامة في قفها ثم جرد خنجره وحاول أن يقتلها ولكن الإشفاق منعه عن هذا القتل الذريع فأرجسعه يده وهو يقول في نفسه : أية فائدة لي من قتلها ، بل يسرني أن تخبرهما بما قلت كي يعلما أنني عدو شديد ؟

وكان قد عثر وهو يتودها بفتح الغرفة في جيبها فأخرجها منها وفتح به الغرفة المؤدية إلى غرفة بيانكا . وكان والد رولاند نائماً في تلك الغرفة فوقف حين رآه موقف المتردد في قتله ثم قال في نفسه : أية فائدة من قتله فهو أعمى مجنون فليمت ببطء .

وعند ذلك دنا منه وجعل ينظر إليه ويبتسم ابتسام المتهمك ويقول : إنه لا يستحق عناء القتل وصبح خنجره بدمائه .

وقد أبسط الضجيج نور الصباح ذلك الشيخ ففتح عينيه ونظر بها إلى جهة الضجيج وهما لا تريان فظهر منها بيان غريب

على انطفاء نورهما حتى أن ذلك اللص الجسور ارتعد خوفاً وخيل له أن هاتين العيتين الظاهرتين قد اقتداً ببارق من الوعيد .

وقد تراجع منذراً وأقبل الباب ثم هن كنفه وقال : تباً لي أخاف من مجنون أعمى ؟

وعند ذلك مشى إلى غرفة أخرى ففتح بابها وأطل منه فقال وقد أبرقت عيناه ببارق من السرور : إنها هنا !

وكانت بيانكا نائمة في سريرها نوماً هادئاً كصغار الأطفال وهي تبسم ومعصنها الجبل خارج الحاف وصدرها يرتفع ويهبط بأنفاسها بانتظام يدل على نومها الهادي . فوقف اللص يتعمن بوجهها الجميل وقد سال العرق على خديها الموردين فكان يشبه ندى الفجر فوق الورد .

فلم تستيقظ ، ولم يندفع اللص بسيلقة الوحشية بسل تغلبت حكمته على آمياله فوضع مضابحه على المائدة ودنا منها فلمس كتفها برفق . وعند ذلك صحت الفتاة ولم تكدر ترى ذلك الرجل حتى دعرت ذعراً لا يوصف وصاحت تستغيث وتنادي جوانا . غير أن جوانا لم تستطع أن تجيبها بفير الأنين فإنها كانت مكرومة الفم ، فغطت بيانكا معصمها وبلغ الدعور منها أشد مبلغ بحيث أن صوتها احتبس في قفها فلم تعد تستطيع الاستدانة . وأما ساندريجو فإنه ملك نفسه وتكلف هيئة تدل على الرفق والدعة فقال لها بلهجة حنو : إطمئني يا سيدتي ولا تجزعي فلا أريد لك سوءاً وأصغي إليّ دون رعب كي لا تفوتك كلمة من كلامي فإن الوقت غير متسع لدينا وإني أقسم لك بالله العظيم أنني



لا أريد لك إلا الخير ، وقوق ذلك فلا فائدة من مناداة جوانا إذ  
ليست هنا ، أتريدن الآن أن تصغي إليّ ؟  
فاشارت برأسها إشارة بإيجاب فاطمأن الص وقال لها :  
إذن فاعلمي أنني آت إليك من قبّل أمك .  
— أمي ؟

— نعم ، أمك السنيورا أمباريا ، وهي التي أرسلتني . وإذا  
أردت برهاناً على صدق ما أقول أخبرتكم بجميع ما استشف لك  
فإنهم استشفوك من منزل أمك بالرغم عنها وبالرغم عنك ، وإن  
أمك الآن في حالة شديدة من اليأس وقد لقيتني وعهدت إليّ  
أن أردك إليها . أتصديقتي ؟  
فظهر لسانكا أن هذا الكلام طبيعي معقول فقالت له : أتم  
حديثك . فقال ساندريجو في نفسه : لقد فزت عليها . ثم قال  
لها : إن أمك السنيورا أمباريا توسلت إليّ أن أبحث عنك  
فرضيت بذلك وتعهدت أن أردك إليها وقد توفقت إلى لقائك  
في هذا المنزل لأخلصك من غالب مضطهديك .

لا تترضي فلا فائدة من الاعتراض . والآن اسمعي ما أقوله  
لك : إنني سأخرج من هذه الغرفة الجبورة ربيع ساعة كي تلبسي  
ثيابك وتأتني للذهاب معي . فقالت : أتبعك ؟ كلا ! وماذا  
يثبت لي أنك قادم من قبّل أمي ؟ قال : أرجو أن تشعيني  
طائعة برضائك فقد آثيت يقيناً من قبل أمك السنيورا أمباريا  
حتى أنها أمرتني أن أستعمل العنف إذا خطر لك أن تنسي  
تلك الأم التي لا تعرف منذ فراقك غير البكاء .

فتتمت الفتاة قائلة : رياه ، ماذا أعمل ؟

فأتم الص حديثه فقال : ولذلك أرجو أن أجدك متأهبة بعد  
ربيع ساعة للرحيل معي بل الرضى ، وأقسم لك أنك غسداً  
تكونين آمنة في قصر السنيورا أمباريا . ومها يكن من الأمر ،  
وسواء صحت عزيتك على الرحيل أو على البقاء ، فأني سأدخل  
إليك بعد ربيع ساعة فإذا لم تصممي على الرحيل اضطرتت إلى  
تقييدك وحملك بالعنف إلى أمك وسواء عندي في تلك الحالة إذا  
كنت لابس ثيابك أو كنت كما أنت الآن .

وقد قال هذا القول ونظر مسرعاً نظرة الفاحص إلى هذه  
الغرفة فوجد أن نوافذها مشبكة بالحديد وأنه لا خوف من  
قرارها ، فالتفت عند ذلك أمامها وانصرف .

أما بيانكا فقد بلغ منها الخوف من هذا الرجل أشدّ مبلغ لا  
سياسين قال لها إنه لا فرق عنده بين أن يجدها لابساً أو عريانة ،  
فلم تجدد يدأ من لبس ملابسها بسرعة . ولكنها كانت موقنة أيضاً  
أن هذا الرجل يقول الحقيقة فإن جميع أقواله تنطبق على حوادث  
اختطافها فلم يبقّ لديها شك أن أمها ينسب لفراقها وأنها عادت  
إليه أن يعيدها كيفما اتفق .

ثم ظهر لها أن المقاومة أمر مستحيل وهي تعلم من نفسها أنها  
بأسلة تستطيع الدفاع عن نفسها إذا ظهر لها سوء قصد هذا  
الرجل وعلمت أنه من الكاذبين . ولذلك أخذت ختبراً ختبراً  
بين ثيابها . ولما عاد ساندريجو بعد ربيع ساعة وجدها قد آتت  
لباسها فقال لها : هل أنت متأهبة يا سيدتي للرحيل معي ؟

فعاودها الرعب عند ذلك حين رأت هذا الرجل واقفاً معها في غرفة رقادها فصاحت صباح بأش تستغيث يحوّنا . فقال لها اللص : لقد قلت لك يا سيدي إن جوانا ليست هنا فأمرعي إلى إجابتي الآن وقولي هل أنت مستعدة للذهاب معي أم تؤخرين أن أستعمل العنف وهو ما أعله بـلـه الأسف ولكنني لا أتردد ؟ وكان يقول لها ذلك بسكينة وأدب ، فأطردت الفتاة منهية ثم التفتت إليه وقالت : هلم بنا يا سيدي فإني أتبعك . فتشهد اللص تنهد ارتياح وقال :

— هلمي بنا يا سيدي وشهد الله أنني ما كنت أتوقع أن أجد مثل هذا العناء بإقناع فتاة على الذهاب إلى أمها الفانطة لفراقها .  
— قالت : سر أسر معك .

فأخذ عند ذلك بيدها وخرج بها من ذلك المنزل فسار بها مسرعاً إلى حيث ربط جواده فلم تكن ساعة حتى وصل بها إلى شاطئ البحيرات ، وهناك لقي ذلك البحار الذي أوصله وأقام ينتظره في السفينة . فقال له النوبي : لقد قتلتني صبراً وهذه آخر مرة أنتظرك في مثل هذه المواقف ! فلم يجبه ساندريجو والتفت إلى بيانكا كي يحملها إلى القارب فوجدتها منغمياً عليها . فقال في نفسه : حسناً ، فإن إغماها يغنيني عن المناقشات .

وعند ذلك حملها بين ذراعيه ليأخذها إلى القارب فلما التفتي الجثمان وشعر أنه يضم هذه الفتاة إلى صدره وأن شعرها الجميل مسدول على كفتيه تكهرّب جسمه وشعر بأن قلبه يكاد يشب من صدره وأن رجليه قد وهتا .

وقد رأى البحار ما كان من اضطراب ساندريجو فقال له : لقد فهمت الآن . فأنشده ساندريجو قائلاً : أسكت أمها الأبله ! وقد نفى قول البحار تلك الوسواس من صدره فوضع الفتاة في القارب وغطاها بوشاحه . فقال له البحار : ماذا تضعين بالجواد؟ قال : لاني أمهلك إياه فيكون أجرة رسلك . قال : لا شك أنك من كبار ذوي المكارم ، فأهلني ريثما أرسل هذا الجواد إلى محل أمين .

وعند ذلك وثب إلى اليرفسار بالجواد بضع خطوات فالتفت بفلام يعرفه فقال له : لإذهب بالجواد إلى مستقر فضعه عند صديقي صاحب الحجارة التي تمرقها وقل له إنه لي .

ثم ركه وعاد إلى القارب فجعل يجتاز به البحيرات . أما بيانكا فلم يعد إليها رشدتها إلا حين بلغ القارب الرصيف أمام تلك الحجارة التي لقي فيها ساندريجو ذلك البحار . فنزل إلى اليرفسار وأرسل الفتاة فجعل يسير وهي تتبعه مشتتة البال وأمية العزيمة . وما زال يسير حتى بلغ إلى منزل قصعد بها سلمه وأدخلها إلى غرفة ثم خرج من تلك الغرفة . فسمعت الفتاة صرير مفتاح بابها مرتين .

ثم خرج ساندريجو دون أن يقول لها كلمة أو يوضح أسباب سجنها في هذه الغرفة ، فملع قلبها من الخوف وسقطت على كرسي وهي تشفق بالبكاء .

وكانت الشمس قد أشرقت في تلك الساعة وملاّت أشعتها الفضاء فانطلق ساندريجو مسرعاً إلى قصر المحظية أمباريانا، وبعد

غابرات طويلة مع الخدم تمكن من الوصول إليها فقال لها فجأة:  
إن ابنتك يا سيدتي قد اختطفت من عهد قريب أليس كذلك ؟  
فارتعشت أمباريا بماطمة رجاء وقالت له : كيف عرفت ذلك ؟  
فأبدى ساندريجو وقال : يكفي يا سيدتي أن أكون عرفت !  
إذن إن ابنتك اختطفها رجل شديد الحقد عليك لا يريد لك غير  
السوء .

فبرقت عينا المحطية ببارق من الحقد وقالت : ولكنني سأقتل  
هذا الرجل شر قتله ! فقطب ساندريجو حاجبيه وقال :  
— ذلك إذا لم أكن السابق إلى قتله . ولكننا سنبحث في شأنه  
فما بعد يا سيدتي . وأما الآن فقد أتيت لأقول لك بأنني أستطيع  
أن أرد ابنتك إليك .  
— أنت ؟

— نعم يا سيدتي !  
— أين هي ؟ تكلم .  
— سأقول لك أين هي حين يتم اتفاقنا على بعض أمور .  
— ما هي هذه الأمور التي تريد أن تتفق عليها ؟ قل وأسرع  
فإني أوافئك على كل ما تريد ... ولكنك رأيت ابنتي دون  
شك ، فإذا كان بين جنبيك قلب رجل فقل لي في الحال أين هي  
وأني خطر بنفسي .

— اطمئني يا سيدتي فإن ابنتك على أحسن حال ولا يتهددها  
شيء من الأخطار ، فإذا شئت كانت عندك بعد ساعة .  
— بعد ساعة ؟ تقول بعد ساعة ؟

— نعم يا سيدتي ويكفي لذلك أن تتفق .

فجعلت أمباريا ترتعد وقد تنازعتها في حين واحد عوامل  
الفرح والخوف والياس والرجاء . فقالت له بصوت يتلعثم : ألا  
ترى يا سيدتي أنني أموت جزعاً فأخبرني على الأقل أين وجدت  
ابنتي وكيف لقبتها ؟

— ذلك بسيط يا سيدتي ، فإن الإتفاق دفعني إلى أبواب منزل  
في ضواحي فينيسيا ... وهناك امرأة كنت أعرقها من قبل  
فاضطرت إلى الإقامة ساعة عندها وعرفت بعد البحث أن هذه  
المرأة عهد إليها سراسة بنتك . وقد عرفت من تلك المرأة اسم  
بنتك واسم الذي اختطفها ، فخرجت من المنزل وصبرت إلى أن  
هجم الليل فدخلت إلى ابنتك وسألتها إذا كانت تريد أن تتبعني  
لأردها إليك فوافقتني وأتيت بها إلى محل أمين .

— هنا في فينيسيا ؟  
— لم أقل يا سيدتي إنني أتيت بها إلى هنا بل إلى محل أمين ،  
ولكنه غير بعيد ! فوفقت أمباريا وقالت : إذن سري إليها .  
— أملكك نسيت يا سيدتي أن لدي بعض شروط أقترحها  
عليك .

— قل كم تريد ... أسرع .  
— إنني لا أريد مالا يا سيدتي .  
— إذن ماذا تريد ؟  
فوقف ساندريجو وقال : أنظري يا سيدتي ، فقد اهتمت  
إلى اليوم مهنة اللصوصية وأنا أدعى ساندريجو والناس يخافوني

من هنا إلى مسافة عشرين مرحلة، فإذا شئت ألفت عصابة ثلثي  
العرب في قلوب أهل هذه البلدة . ولكنني غيرت مناهجي الآن  
إذ خدمت الحكومة خدمة جليلة أرجو بعدها أن تكافئني  
بتعييني من قادة الجيش ورجائي أن أصبح قائداً عاماً حين سنوح  
فرصة أو حين نشوب حرب ، فإني شديد ضليع في فنون  
الحروب ، فإن اللصوص يا سيدتي لا شغل لهم غير الهجوم  
والدفاع . وعلى الجملة فإني أرجو أن يكون لي في هذه العاصمة  
خير مستقبل ينطبق على مطامعي ، فهل تجدني زوجاً خيراً مني  
للآسة بياضاً ؟

فندرت أمباريا وقالت بلهجة استنكار : أنت تكون زوجاً

لبياضاً ؟

فلم يظهر اللص استياء من لهجتها وقال لها : إني أحب ابنتك  
وأشعر أن هذا الحب قد غلق قلبي وأنه ثابت مكين . وسأقدم  
لك برهاناً على ذلك وهو أن ابنتك بقيت عندي مدة طويلة دون  
أن يكون لها نصير .

— ماذا تعني بهذا البرهان ؟

— أعني به أنها خرجت نقية طاهرة من بين يدي ساندريجو  
ولم يتفق لي ذلك مع عذراء من قبل . فالعنى يا سيدتي أنني أقترح  
عليك السلام والتعالف ، وإنما أقول التعالف إذ لديك عدو  
هائل لا يد لك من مصارعتة .

— أي عدو تعني ؟

— رولاند كانديانو !

— إنهم سيقبضون عليه قبل يومين .

— بل إنك لا تعرفين هذا الرجل حتى العرقان ، فإنه جدير

أن يقاوم جيش فينيسيا بأسره ، فقد أرسلوا مائتي جندي للقبض  
عليه في منزل طوقوه وهو لا يزال حراً . فأعطني إذن أنك في  
أشد حاجة إلى مخالفتي وسأمن بك إلى الغد فأما أكون ضورك  
وحليفك وإما أكون عدوك فاختاري .

وعند ذاك نهض وانصرف مسرعاً فأرادت أمباريا أن

تستوقفه ولكنه ابتعد دون أن يلتفت إليها فانطرحت على

كرسيها مذهولة وهي تقول : أنت كورت ابنتي زوجة اللص

ساندريجو ؟ وبعد ، فأي عجب من ذلك ، أليست بياضاً ابنة

محظية ؟ ومن يكون زوجة ابنة المحظية إذا لم يكن من اللصوص ؟

ثم ضحكت ضحكة عصبية وقالت : لقد رأى ذات يوم ابن

تاجر شهير ابنتي قهلاً بها ، وأعجبني ذكاء الفتى ومروءته ،

فرضيت به زوجاً لابنتي . وهم يعمد المحظية حتى إذا عرف من

أنا هجرها دون اكتراث . وكذلك كل من كان يراها فإنه كان

ينتظر إليها ويعجب بجمالها ولكن دون احترام . فإن الحية في

اعتقادهم لا تسلك إلا الحية ، وابنة المحظية لا تخرج إلا محظية !

نعم ، هذا هو معتقد الناس بي وبهذا الملاك الذي لم يشفق عليه

غير رولاند أنهم ، لقد رأيته حين كان ينظر إليها تلك النظرات

الخنونة وهو وحده الذي كان يحترم طهارتها دون سواه ...

ولكنني أكره هذا الرجل وإفا أكرهه لأنه اختطف بنتي وأراد

أن يفرق بيني وبينها إلى الأبد .



ثم سكنت هنيئة وعادت إلى مناجاة نفسها فقالت : أتراني أبغضه لهذا السبب وحده ؟ كلا ! فإني أحببت هذا الرجل فأحتقر حيي وأحتقرني ! أواه ! إني لا أنسى تلك الليلة التي بجأت له فيها بغرامي فرفع يده عليّ يريد أن يسحقني ! إني لا أنسى تلك الدقيقة المائلة وما أصبحت به من الحجل ، ما حبيت .

نعم أيتها الأم الشقية الفاسدة الأخلاق ، إنك لا تذكرين هذا الرجل الذي يستطيع دون سواه إنقاذ بنتك إلا لأنك لا تزالين تحبينه ! نعم إنك لا تزالين تعبدينه ، وإنك لم تعودي إلى فينيسيا إلا من أجله ! والآن فإن تلك النار التي كانت غبوة تحت الرماد في صدرك قد عادت إلى الأحيي ، وهذه العاطفة التي تحسبونها كرها ما هي إلا عاطفة حب !

وعند ذلك سارت إلى تلك الغرفة السرية التي أخذت إليها من قبل عشيقها دافيليا وهي تشفق بالبكاء . وكانت هذه الصورة ذات الإطار الذهبي ، صورة رولاند المعلقة فوق الهيكل ، لا تزال في موضعها . فارتعشت حين رأت هذه الصورة وذكرت قتلها دافيليا وركعت كما ركعت في ذلك اليوم تحتها فبسطت يديها إلى ذلك الرسم وجعلت تذرف الدموع وقد نسيت في ذلك الموقف بنتها وساندريجو وميمو بل نسيت الوجود .

ذلك أن الحب قد انتصر على الكره وعادت إلى هيامها برولاند .

## الأب

\*

تقدم لنا القول فيما تقدم أن رولاند أرسل سكالا برينو إلى الزعماء برسائل يلقي فيها أوامره إليهم .

وكانت مراكز تلك العصابات متفرقة في مساحة ثلاثين مرحلة ، فأقام سكالا برينو يومين وهو يسير على جواده من مكان إلى مكان دون أن يشعر بتعب لفرحه بقرب لقاء بنته .

فلما فرغ من مهمته سار قوفاً إلى قرية عيستر فوصل إليها في الساعة العاشرة من المساء ، فخرج عن جواده ودخل مسرعاً إلى البيت حيث كانت الطفلة والسكينة سائدتين . وهناك وقف وهو يضطرب اضطراباً طيفاً ويقول في نفسه : إني لا أستطيع الآن أن أقول لها إني أبوها ، ولكنني سأنتقم برؤيتها ستة أيام .

غير أنها لا يدرك أن تكون نائمة الآن وأنا أذوب شوقاً إلى رؤيتها فبأية حجة تتذرع بجوانا إلى إيقافها ؟

وتتمن طويلاً فلم يجد حلاً لهذه المشكلة فقال في نفسه : لا بد لي من الانتظار إلى الصباح . ولكن لأدخل فإني سأقف على الأقل على أخبارها من جوانا . وعند ذلك فتح باب الحديقة بفتاح

كانت أعطاه إياه رولاند ودخل ففرح باب المنزل بشكل  
اصطلاحي ففتح في الحال وظهرت منه جونا وهي صفراء الوجه  
فقالت له بصوت منخفض مضطرب: أهذا أنت؟ أتيت أخيراً؟  
فارتعش سكالا برينو لهيئتها ولاضطربها وقال لها: لقد  
حدث مصاب دون شك؟ فأشارت برأسها إشارة إيجاب وجلس  
دون أن يحسر على سؤالها.

أما جونا فإنها اضطربت اضطراباً خفيفاً وقالت له: لقد  
اختطفوا بيانكا.

فوقف سكالا برينو كان لولبة قد أوقفه ثم هوى إلى الأرض  
مغمياً عليه. فأسرعت جونا إلى معالجته حتى استفاق فكان أول  
ما قاله: بيانكا... بيانكا... هل اختطفوها؟

قالت: نعم، وهو مصاب ألم ولكنني أرى أن هذه الحادثة  
قد أوت عليك فائزاً غريباً. قال: كيف لا تؤثر علي وهي  
بنتي؟

— بناتك؟

— نعم، ولذلك حكاية ستمليها قياً بعد. أما الآن فأخبرني  
كيف كان هذا الاختطاف؟ بل قولي لي قبل ذلك أتعرفين الرجل  
الذي اختطفها؟

فاصقر وجه جونا لأنها إذا ذكرت اسم ساندرينو تكون  
قد عرضته لخنجر سكالا برينو وقد رأت ما كان من حزنه فقالت  
في نفسها: إذا استحال هذا الحزن إلى غضب كان هائلاً!

ولكنها كانت مثال الإخلاص فوازنت بين حبها وإخلاصها

وأطرقت مفكرة. فقال لها سكالا برينو: ما هذا السكوت؟  
ألم تعرفيه؟

فتغلبت الإخلاص في قلبها على الحب وقالت: نعم عرفته.

— ما اسمه؟

— ساندرينو!

فضم سكالا برينو قبضتيه وتهدد بها الساء إذ لم يجد من  
يتهدده وقال: حسناً، فأسدد ما بيننا من الحساب القديم.  
وبعد أن هاج هياج الأسود سكن فجاء فصح عرق جبينه وقال:  
ألم يختطف سواها؟

— كلا، فإن الشيخ لا يزال هنا.

— متى حدثت هذه الحادثة؟

— منذ يومين، في الليل.

— كيف تمكن من اغتصاب الأبواب وهي متينة؟

— إنه لم يقتصبها بل أنا التي فتحت له الباب. وسمع كيف  
اتفق ذلك: فأنبه قرع الباب وجعل يناديني فعرقت صوتي  
وسألته عما يريد فقال لي إنهم يطاردونه فإذا لم أفتح له قبضوا  
عليه، فخفت وأشفقت ولم يعد في بالي إلا أنهم سيظفرون به  
وأني قادرة على إنقاذه.

فتفرس سكالا برينو بها ثم قال: جونا... أينها الأخت  
العزيرة، لقد نسيت أنك كنت تحبينه! أسكني، لا تعترضني  
عليّ فقد عشت أموراً كثيرة لم أكن أعلم قبل أن صيرني الرئيس  
رجلاً... إنك لا تزالين تحبين ساندرينو وهو شقاء عظيم لأنك لا

تعلين مبلغ حقد هذا الرجل . ولو كان حقه قاصراً عليّ لما  
بليت به ، ولكنه ساقط عليّ مولاي رولاند . وهو لم يحتطف  
ببانكا إلا للانتقام منه وقد بات العداة شديداً بيننا الآن لا  
ينتهي إلا بالموت .

فسالت مدافع جوانا وقالت له : لا تحسب أنني غطّنة فيما  
حدث فقد دافعت ما استطعت الدفاع حتى أنه صرعتني وقبضني  
ووضع كامة في فمي . ولولا ذلك لما استطاع اختطافها وأنا في  
قيد الحياة .

— حسناً ، فلندع البحث في هذا الشأن فاني مسافر في أثره .  
أتعلمين في أية جهة سار ؟

— كيف أستطيع أن أعلم وقد كنت مقيّدة ؟  
وقد حاول سكاللا برينو أن يذهب لفوره ولكنه شعر يتعب  
عظيم فأرجأ سفره إلى الغد ونام وقد أنهكه الحزن والتعب .  
أما جوانا فقد لبثت ساهرة . وقد كبرت عليها هذه التكبّة  
فقالت في نفسها : ويح لي بما أعانته ، فإن هذه التكبّة كلها عليّ .  
فانه إذا قتل سكاللا برينو قتلت نفسي في أثره وإذا كان الفوز له  
سحق قلبي . فلن أغنى الفوز ولن أرجو الخلاص ؟

وفي الساعة الخامسة صعد سكاللا برينو من رقاده وقال وقد  
راهما لا تزال في جانبيه : لقد خيل لي أنني نمت كثيراً في حين أني  
لم أغم غير ساعة .

قالت : بل إن الفجر قد انبثق . فارتعش وقال في نفسه :  
إنها لم توقظني إلا كي تفسح مجال الفرار .

وعند ذلك أكل ما تيسر ثم عانق الفتاة بحتو وقال : أرى  
يا جوانا أنك قد تكونين أشدنا تكبّة بهذا المصائب ومها حدث  
فأذكرك أني أخوك وإعلي الآن أني ذاهب للبحث عن بياتكا  
إذ لا بد لي من إيجادها .

أما هذا اللص الذي سرق قلبك وهو لا يستحقه فأقسم لك  
أنني إذا التقيت به لا أكون البادئ بضربه . فارتعشت جوانا  
سروراً وقبّلته والدموع تسيل من عينيها فودّعها وأسرع  
بالرحيل . وقد امتطى جواده وسار وهو لا يقتكر إلا بطريقة  
إيجاد ساندريجو حتى وصل إلى فندق فأقام فيه وطلب زوجة  
شراب فأسند رأسه إلى يده على المائدة وجعل ينظر من النافذة  
المفتوحة إلى الطريق .

وفيا هو عليّ ذلك رأى رجلاً ماراً فدهش لمراه وقال في  
نفسه : ماذا يفعل جانيتو هنا ؟

وكان جانيتو هو ذلك البحار الذي جاء ساندريجو في قاربه .  
فأسرع سكاللا برينو حين رآه وسار في أثره حتى أدركه ، وكان  
يعرفه فإنه من بحارة ميناء فينيسيا الذين يشتركون مع عصايات  
الصوص ، فدنا منه وقال له : ماذا تفعل هنا يا جانيتو ؟

فدهش البحار لمراه وقال له : إنني لم أكد أعزفك يا سكاللا  
برينو وأنت بلباس الفرسان . أما أنا فقد أتيت بهمة إلى قرية  
ميستر وأنا عائد إلى فينيسيا .

— وأنا كذلك عائد إليها .

— إذن نعود معاً ؟

— هو ذلك ، فلم يبق .

ورجل سكالاً برينوا وسار وإياه إلى جهة الشاطئ .

## مرسى الذهب

\*

لم يكن لسكالاً برينو غاية خاصة حين تبين جانيتو ولكنه كان يعلم أن هذا البحار عارف بجميع أخبار العصابات ورجالها . ولما كان ساندريجو قد طرد من الجبال ، فلا بد أن يكون قد لجأ إلى مكان قد يعرفه هذا البحار ، أو أنه قد يكون رآه منذ يومين فيسهل عليه البحث عنه . وبدأ جانيتو الحديث فقال : كيف أننا لا نراك بيننا منذ عهد بعيد ، وإني أراك الآن في طريق تريفيز على مثل هذا الجواد الجميل ؟

فأجابيه قائلاً : وأنت يا جانيتو ، ماذا تعمل هنا ؟ قال : إني أتيت بمهمة إلى هذا الفندق . قال : وأما أنا فإني ألتزمه .

فغمر البحار بعينه وقال : إنك تلتزمه وتبحث معاً عليك تجد حتى هذه الطريق قد استحالت إلى دنانير !

— ربما كان شيء من ذلك ، فمن الذي أرسلك بالمهمة ؟

— صاحب السفينة ماريا وهي تغير سفن الميناء .

— وإلى أين تعود ؟

— إلى مرسى الذهب !

فارتعش سكالاً برينو لهذا الاسم إذ علم أنه المكان الذي يجتمع فيه اللصوص وأنه خير مكان أمين يابحاً إليه الهاربون إلى فينيسيا ، فإن مرسى الذهب كان اسماً للخبارة التي ذهب إليها ساندريجو وقال له : لقد خطر لي أن أذهب معك إليها . قال : تعال ، فانهم يستقبلونك بالترحيب .

— إني على يقين من ذلك ، ولكنني أخاف الجواسيس .

— إن خسارة مرسى الذهب لا يدخل إليها الجواسيس ولم يدخل إليها غير واحد منهم مرة ولكنه ...

— لكنه ؟

— ولكنه لم يخرج .

— كيف ذلك ؟

— أعترف الخسارة ؟

— تقريباً .

— أعترف ذلك القبول المقتضى الكائن في آخر الخسارة ؟

— لقد سمعت به ، فأخبرني بما تعرفه عنه بالتفصيل .

— ذلك أنه حين يدخل إلى هذه الخسارة رجل لا يروق

زيارته في عين صاحبها يرتولو ... أعترف يرتولو ؟

— نعم أعرفه ، فهو ذلك الرجل الأعور القوي .

— هو بعينه . فعندما يدخل إليه ذلك الرجل الذي تسوءه

زيارته يُحسن استقباله ويسقيه من أفضل الخمر الكأس تلو



الكأس حق يضيغ صوابه . ويزيد اشتياقه إلى الخمر شئت كل  
السكارى ...

— هو ذاك .

— وعند ذلك يدعوه برتولو إلى شراب كأس من أفضل ما  
عنده ! ولكن هذه الخمرة لا تشرب إلا في مواضعها أو في القبو  
لأنه لا يخرج منها إلى الزبائن ...

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك يدعن له الرجل شاكراً فيدعوه برتولو إلى أن  
يقبعه ، ويفتح باب القبو وينزل أمامه ، فإذا لم يستطع نزول السلم  
أعانه بعض رفاق برتولو إذ يوجد دائماً أربعة أو خمسة رجسالم  
لمثل هذه الحوادث ، حتى إذا نزل بالكمره أو بالرضى عاد برتولو  
من حيث أتى وأقفل الباب .

فضحك سكالابرينو وقال : بحيث أن هذا الرجل الذي  
ينزل إلى القبو ليشرب يموت من الظمأ .

قال : ليس الأمر كما توهمت ، فإن برتولو حين يخرج من  
القبو ويقفل بإبه على ذلك المنكود يذهب توتاً إلى القرعة ويرفع  
صفحة من الحديد لا يعرف مكانها سواء . وهذه القطعة من  
الحديد تسد متقفاً عالياً في القبو تحت سطح الماء ، فإذا فتحتها  
دخل الماء إلى القبو فلاً ، وغرق ذلك المنكود . أرايت كيف أنه  
لا يموت من العطش ؟

فارتعد سكالابرينو وقال : أفتتلوا جاسوساً بهذه الطريقة ؟  
— نعم ، وهو الجاسوس الوحيد الذي تجاسر على الدخول

إلى هذه الحفارة . ولكنهم يستخدمون القبو لغير الجواسيس أيضاً .  
— لمن ؟

— للضائنين الذين يرسلهم إلى برتولو رئيس العصابات الأكبر .

— من هو هذا الزعيم الذي يمثل له برتولو هذا الامتثال ؟

— لماذا تسألني عنه ؟

— ذلك بسيط ، فاني مللت عيش الوحدة فقد أردت  
الاستقلال ولكنني لم أقمح بحيث أنني أستر أن ...

— أن تعود إلى الانتظام في سلك العصابات ... فإذا كانت  
ذلك ، يستقبلونك على الرحب إذ طالما تعدوا بك في الحفارة  
وبفراذك العجيب من السجن .

— أيعرفون هنا أمر فراري ؟

— ومن تريد أن يعرفه إذا لم يعرفه أصحابك القدماء ؟

— حسناً ، ولكنني قبل أن أنتظم في سلك العصابات أحب  
أن أعرف من هو رئيسي كي أعلم لمن يجب أن أمتثل ...

— لقد أصبت ... ولكن ...

ورأى سكالابرينو ما كان من تردده في الكلام ، فقال :  
أصغر إلي يا جاسائيتو واعلم أنه إذا لم يعجبني ذلك الرئيس  
عامدتك على نسيان اسمه وأنت تثق بي كما أظن .  
— دونه شك .

وإذا رأت لي الحضور كان الفضل لك في إدخالني بين أعضاء  
العصابة . فاقتمتع البحتار ببرهانه وقال له : حسناً ، فأعلم إذن  
أن الرجل الذي يخضع له برتولو وندعوه زعيمنا الأكبر إنما هو

ساندريجو .

فلم يستطيع سكالا يزيئو ضبط نفسه وصاح صيحة فرح ،  
فقلق البحار وقال له : ماذا أصابك ؟ فقال : لا شيء سوى أنني  
سررت أن يكون ساندريجو ذلك الزعيم .

— أملكك تمرقة ؟

— نعم ، فقد كنا من قبل في عصاية واحدة .

— إذن لقد رضيت أن تكون معنا ؟

فلم يجبه سكالا بريئو لقوره ومشى وإياه بضع خطوات ثم  
وقف فجأة وقال له : جانيئو ، يجب أن تتبعني . فنظر البحار  
إلى ما حواليه نظرة قلق وقال : إلى أين ؟ قال : ستعرف حين  
نصل . واعلم يقيناً أنك لا تصاب بسوء إذا تبعني بل يكون  
لك في ذلك فائدة فإني أحب أن أذهب إلى هذه الحجارة دون  
أن يعلموا بقدمي ، وأنا أخشيك بين أن تتبعني وبين أن تبقي ،  
فإذا آثرت البقاء يقتضي لك أربعة رجال ليجعلوك لأنك  
ستبقى ميتاً .

وهنا برقت عينتا سكالا بريئو وجرد خنجره ، فخبأه  
البحار خوفاً شديداً وقال له : أتخسر يا سكالا بريئو على قتلي  
وعلى تحمل تبعه مثل هذا الذنب ؟

— إنني لا أقتلك إذا رضيت الذهاب معي . وإنك لا تكون  
تأديماً إذا فعلت .

— حسناً ، فأتبعك إلى حيث تريد .

— إذن هلم بنا وأسرع بالمسير .

وسار الاثنان نصف ساعة قبلما قرية ميستر ، وهناك التفت  
سكالا بريئو إلى البحار وقال له : إنك إذا أضرت إشارة أو  
بدرت منك صيحة فأنت ميت لا محالة . قال : كن مطمئناً فلا  
قلق عندي بين أن أستبدل رئيساً بريئاً بل إنني أفضلك على  
ساندريجو . قال : إذا كنت مخلصاً في ما تقول فلا يضي زمن  
قليل حتى تنقذ نفسك بالخلاص من ساندريجو وبرولو .

وقد استراح الاثنان هنيهة في ميستر ثم سارا إلى مغاور بيافا  
فعمد سكالا بريئو بذلك البحار إلى ثلاثة من رجال العصابة ثم  
عاد من حيث أتى وهو يتكاد يحس لياسه ، فانه كان على يقين من  
أن ساندريجو لم يحتفظ بياثكا إلا انتقاماً من رولاند . ولكنه  
كان يعرف أيضاً هذا اللص وأنه لا يحترم طهر العذارى فجعل  
بعض أصابعه لقنوطه ويقول : رياء ، سهل في سبيل الوصول  
إليه قبل قوات الأوان .

\*

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كان نحو عشرين بحاراً  
يجتمعين في حجرة مرسى الذهب وهم يعاقرون بنت الحان . وفي  
الساعة العاشرة قال برتولو صاحب الحماشة بصوته الجمهوري :  
هلموا أيها الرفاق واذهبوا في شؤونكم فقد دنت ساعة  
إقفال الحماشة .

فدفع معظمهم ما عليهم من الحساب وانصرفوا فلم يبق إلا  
خمس أو ستة من الشاربين . غير أن برتولو لم يدعهم إلى

الانصراف كما دعا الآخرين بل إنه أقفل باب الخمار من الداخل وعاد فنظر إلى أولئك الذين بقوا وعرفهم جميعهم ما خلا واحداً منهم كان لابساً ملابس فقراء البحارة . وقد أدار وجهه إلى جهة التور . قدنا برتولو منه فبرزت بعنف وقال له : قل أيها الصديق ماذا تعمل هنا !

فالتفت الرجل وأشار بيده إشارة سرية . فجلس برتولو بجانبه وقال له بصوت منخفض وبلمحة تدل على الرعب : من أنت أيها الرجل العارف بإشارتنا السرية فاني لم أرك قبل الآن ؟

— ماذا يهلك اسمي ؟

— إذن ماذا تريد ؟

— أريد أن أرى ساندريجو ؟ فهل هو هنا ؟

— كلا !

— أين حضر الليلة ؟

— ربما .

فقال له بلهجة المتوعد : ألا تريد أن تتكلم ؟ فقال برتولو في نفسه : لقد فهمت قصدك الآن . ثم قال له : إن ساندريجو في فينيسيا وسيحضر إلى هنا عند انتصاف الليل .

— حسناً . فدعني أنام الآن ولا توقظني إلا عند حضوره فاني في حاجة إليه . فترك برتولو وتظاهر هنيهة بأنه يشتغل في مهام الخمار ثم دخل إلى قاعة أخرى وراء تلك القاعة وغلا فيها بمرجل .

وكان في تلك القاعة نافذة تشرف على القاعة العمومية فقال

برتولو لذلك الرجل الذي كان معه : أنظر يا ساندريجو من هذه النافذة ، أترى هذا الرجل الهائل الجثة الجالس وحده على المائدة الثانية ؟

— نعم إنني أراه .

— إذن فأعلم أنه سكالابرينو .

فالتفت عينا اللص ببارق من السرور وضم قبضته فقال له برتولو : ليس هذا كل شيء ، فإن هذا الرجل يريد مقابلتك .

— حسناً ، فسيراني . هل أقفلت الباب الخارجي ؟

— بالزلاج !

— وباب الرواق ؟

— أقفلته أيضاً .

— وباب القبو ؟

— إنه مقفل على عادته !

— إذن افتحه وادع لي جميع من يوجد في الخمار من الرفاق . فترك برتولو وعاد إلى القاعة فطاف بأولئك الشاربين وأشار لكل منهم إشارة سرية ثم ذهب إلى حيث كان سكالابرينو فجلس بجانبه وقال له : إن ساندريجو لا يلبث أن يحضر ، ولا شك أنك قادم إليه بشأن خطير . قال : هو ذاك ، فاني قادم إليه بهمة تقبده كل الفائدة .

— أتريد أن تخلو به ؟ وهل عادتتكم سرية ؟

— دون شك !

فنهض برتولو وجعل يؤنب الحاضرين لتأخرهم بأنه لا يفتح لهم

في الغد إذا تأخروا دقيقة أيضاً. فقام الجميع ودخلوا الواحد تلو الآخر إلى الرواق وقواروا عن الأنتظار. وذهب برتولو في أثرهم فادخلهم إلى حيث كان ساندريجو وفتح زلاّج الباب وأقبله إليهما لسكالا بريتو أنه أخرجهما ، ثم عاد إليه فقال له :

- لقد أصبحنا الآن وحدنا فلا حاجة بعد ذلك إلى أن نتظاهر بالنوم يا سكالا بريتو .

- كيف ذلك ؟ أعرفتنى ؟

- ومن لا يعرفك ؟ أنتحسب أني كنت أطرد أولئك الزبائن من أجلك لو لم أعرفك ؟

- فشكروا سكالا بريتو وهو لا يسدرك مقصده من ذلك ، وقال له : أظن أن ساندريجو يتأخر ؟

- إنه حضر ، فإذا أردت أن تكلله فما عليك إلا أن تتبعني .

- أين هو ؟ ولماذا لا يأتي إلى هنا ؟

- لا أعلم ، فقد أخبرته بأنك تريد مقابلته فقال لي : إنه ينتظرك . والآن إذا أردت أن تتبعني مشيت أمامك إليسه . وإذا أبيت فأنت غير بين البقاء هنا وبين الإنصراف .

فذكر سكالا بريتو ما قاله له البحار عن ذلك القيو الهائل وقال في نفسه : إنهم يريدون إلثائي في هذا القيو دون شك .

غير أن سكالا بريتو كان يبلغ بشجاعته حد الجنون ، وله بقوة البدنية ثقل لا تحد ، فقال في نفسه وهو يتنسم : إنهم إثنان فقط وما تموّدت أن أبالي بإثنين .

وعند ذلك وقف وقال : هلم بنا . فقال برتولو : ليس

المكان بعيد . ثم مشى أمامه فدخل إلى الرواق واجتأزه إلى القاعة ، فقبضه سكالا بريتو ونظر إلى تلك القاعة نظرة اطمئنان فإنه لم ير فيها غير رجل واحد وهو ساندريجو . وكان ساندريجو جالساً حول مائدة عليها كاسات من الشراب وقد وضعت هذه المائدة على قيد خطوات من القيو الذي بقي بابه مفتوحاً بحيث لو جلس سكالا بريتو على تلك المائدة مقابل ساندريجو لكان ظهره إلى جهة باب القيو ولما يبعد عنه غير خطواتين .

ولا نعلم إذا كان سكالا بريتو رأى ذلك الباب المفتوح وعلم أنه باب القيو الخفيف . ولكنه جلس على الكرسي المعد له أمام المائدة وقال لساندريجو بلهجة تدل على السكينة : السلام عليك يا ساندريجو . لقد مضى زمن طويل دون أن أراك . فزد ساندريجو تحيته وقال له . وأنا يسرّني أن أرى رفيقاً قديماً .

وقد كان سكالا بريتو يبذل جهداً عظيماً كي يتمكن من ضبط نفسه والتظاهر بالسكينة فلم يخفق هذا الرجل الذي كان السبب في سجنه ستة أعوام واختطف بتهته ، وذلك لأنه قد أقسم لجوانا أن لا يكون البادئ بالشراب .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين وكلاهما يعلم أنه يريد الموت لصاحبه ، وكلاهما يتظاهر بالسكينة ، إلى أن افتتح سكالا بريتو الحديث فقال : لقد أحببت . أن أراك في البعد قبل أن أعلم إذا كان يجب أن أعتبرك رجلاً أو يجب أن أقتلك كما يقتلون الكلاب .

فأجاب ساندريجو قائلاً : وأنا كنت أنتظر أن أسمع كلامك



لأقرر نفس قرارك .

- إذن فاصح ما أقوله لك : إن الحق قد تولد في قلبك عليّ  
في حين أنني لم أعاملك إلا معاملة الصديق . وقد دفعك هذا الحق  
إلى ارتكاب جريمة تعاقب عليها شرائعنا الجلية بالإعدام ،  
فأنت الذي وثيت بي حين قبضوا عليّ . أتعترف بذلك أم تنكر ؟  
- لا أقول شيئاً على سبيل الاعتراف فإن المجرمين لا  
يعترفون .

- إذن أنت تنكر ؟

- كلا ، فأنا الذي دفعتهم القبض عليك .

- حسناً ، فاني أقمت في السجن ستة أعوام ثم هربت منه  
ولقيت في الجبال .

فضم ساندريجو قبضة يده وقال : نعم ، وكان ذلك في اليوم  
الذي سرق عصابتي مني ويوم أكرهني رولاند كاندانو على  
التألم العفو أمام الرفاق . قل فما تريد بعد ذلك ؟

- أريد بعد ذلك أنه يوجد امرأة طاهرة القلب سليمة التنية  
شديدة الإخلاص ، ولقد أحببتك هذه المرأة . ولا أدري كيف ،  
فاعلم يقيناً أنني لولاهما لكنت قتلتك شر قتيل .  
- ويعد ذلك ؟

- أصبر ، فإن جوارنا عهد إليها بحراسة فتاة ...

- وهذه الفتاة قد اختطفها واستعنت على ذلك بغرام جوارنا .  
فطاش رأس سكالا برينو وهم بقتله ولكنه أسرع إلى ضبط  
نفسه فقال : إنك تستطيع شراء جرافك ، فردت لي تلك الفتاة

التي اختطفها وتزوج جوانا . وأنا أتعهد بأن أعينك وأنيك  
مائة مرة أكثر مما ترجوه .

- أحق ما تقول ؟

- إنني أقسم .

- أود أن أقبل ببل الرضى . ولكن هناك مانعان قويان  
يحولان دون ذلك .  
- ما هما ؟

- المانع الأول هو أن جوارنا تحبني ولكني لا أحبها .

- والثاني ؟

- والثاني أن هذه الفتاة التي تسألني بأن أردّها إليك هي  
التي أحبها . فنهض سكالا برينو وقد اتقدت عيناه وقال له :  
أقول إنك تحب بيانكا ؟

فخاف ساندريجو وأيقن أنه سيضطرب به إذا لم يستنجد  
بصاح : إيلي ... إيلي ...

وعند ذلك دفع المائدة التي كانت بينه وبين ساندريجو بعنف  
فجرد سكالا برينو خنجره وهجم عليه فأسرع ستة أصوص إلى  
مجدة زعيمهم وتراجع سكالا برينو كي يستند إلى الجدار ويمتأط  
به فشمع أنه سقط في حوة . ولكنه قبل أن يصل إلى أسفلها  
تعلقت يده بسقفها فأخذ ساندريجو الكرسي الذي كان جالساً  
عليه فضربه به على رأسه فأفلتت يده حافة السقف وسقط ،  
وأسرع برتولو فأقبل باب ذلك القبو .

أما سكالا برينو فقد طاش رأسه للضربة التي أصابته وهوى

إلى أرض القبر فأغمي عليه .

وصحنا من إغمائه لرطوبة شديدة شعر بها فذكر لقوره ذلك الخطر المحدث به إذ ذكر مسارواه له جانيتو البحار عن الحكاية ذلك القبر المائل حين ختم تلك الحكاية بقوله : إن المرء لا يموت في هذا القبر عطشاً بل من كثرة الشرب .

وقد مررت هذه التصورات بخيالي مرور البرق ، ونظر إلى مساحوله فرأى الظلمات تكثفت من كل جانب وجمع من فوق رأسه ضوئاً يشبه صوت تدفق المياه وشعر أن المياه قد بلغت إلى ركبتيه فصاح صيحة يأس وقال : القرعة ... الباب الحديدي ... الماء المتصاعد ...

ذلك أن الماء كان يتصاعد ببطء ولكنه مستمر في صعوده وهو لا يزال يتدفق من الباب إلى أرض القبر . فوقف جامداً قانطاً مبهوتاً إلى أن تجاوزت المياه ركبته فتمثلت له جوارنا وبياتكا فتنهت تنهداً كاه يتمزق له صدره وقال : رباه ، أموت في حين كنت أبلغ أوج السعادة ؟ ثم قتل له بعدها رولاند فقال : أيها الرئيس أين أنت ؟

وقد ارتعش حين لم يحبه غير الصدى ، وذكر ما قاله له ساندريجو وهو أنه يجب بياتكا وأن تلك الحمامة الوديعه باتت فريسة ذلك اللص اللذي النفس والوعد الخثير إذ هي في قبضته فصاح صيحة يأس ارجعت لها جوارب القبر ، ومد يديه يلتمس في الظلام سلم القبر كما يلتمس العميان السيل إلى أن عثر به فصعد عليه حتى النظم رأسه بسقف القبر فوضع كنفه القويتين

تحته وحاول أن يشهقه ولكن جهده ذهب عبثاً .

حتى إذا أيقن أن فتح ذلك الباب محال وقف واليأس مله قلبه ، ولكن الماء لم يقف ، فإنه حين صعد السلم كان قد بلغ إلى قدميه ثم جعل يتصاعد حتى بلغ إلى ركبتيه . وذعر ذعراً شديداً حين علم أنه سيموت موتاً بطيئاً وأن الماء سيبلغ إلى صدره فيغمره . فغزم على أن يموت ميتة مريمة كي يتخلص من عناء هذا اليأس إذ أيقن أن الموت لا بد منه .

وعند ذلك ذكر جوارنا وبياتكا رولاند وهؤلاء هم كل الذين يحبهم في هذا الوجود وألقى نفسه من السلم إلى ذلك الماء الأسود .

\*

كان سكالابرينو من الماهرين في السباحة ، فلم يكن يلقي نفسه في تلك المياه حتى تغلب في نفسه حب الحياة على اليأس فصعد إلى سطح الماء بعد أن كان قد بلغ الأرض وجعل يسبح دائراً حول القبر وقد تولد في نفسه أمل لا يدري ما هو ، فإن الرجاء آخر فر ينطفئ في قلب الإنسان وإث القوي تتلاشي والصبر يقى ولكن الرجاء يبقى إلى آخر لحظة من الحياة .

وعلى ذلك فإن سكالابرينو كان يرجو ولكنه لا يعلم ما يرجوه ، فجعل يسبح وهو لا يفكر في شيء إلا بأن يبقى عائناً على سطح المياه . وظل على هذه الحال إلى أن كلفت يدها وفلاشت قوى رجليه وقد بعد عن السلم الذي كان يساربح على درجاته فبذل جهداً عظيماً وهو آخر جهد وجعل يطوف ساجداً إلى أن

علقت يدها به قضبان غليظة من الحديد وهي لتلك النافذة التي يدخل منها ماء الترعَة إلى القبو .

\*

كان ساندريجو قد أطلق سراح جميع اللصوص الذين كانوا في الحفارة بعد أن ألقوا سكالاً برينو في القبو ولم يبقَ غير برتولو . وقد جعلنا عند ذلك بضعان الأثقال فوق باب القبو حتى إذا أعما مهمتها قال برتولو : إن هذا القبو خير من آبار السجون ، فإن الفرار منه محال . فوضع ساندريجو أذنه على باب القبو وقال : إنه لا يتحرك .

فقال له برتولو : إصبر قليلاً فستسمع حين يبدأ شرب المياه . قال : كم ينبغي لذلك من الوقت ؟ قال : إن القبو يمتلئ عادة بـدّة ساعتين .

ثم انقطع الحديث بينها فاضطجع ساندريجو فوق باب القبو وجعل ينتصت . ولبت على ذلك إلى الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل حتى لم يعد يسمع شيئاً فنهض برتولو وقال : لقد انتهى كل شيء . فنهض ساندريجو في أثره وقال : نعم ، لقد انتهى كل شيء .

## الحظية الكبرى

\*

خرج ساندريجو من تلك القاعة وصعد سلماً يؤدي إلى طابق علوي في تلك الحفارة . وهناك وقف عند باب غرفة ووضع أذنه على قفل الباب فاطمأن وقال : إنها نافذة . ثم دخل إلى غرفة مجاورة لها وتأمّ نوماً هادئاً .

وفي صباح اليوم التالي صعد من رقاده فجلس في سريره وجعل يحدث نفسه فيقول : إن عادته القليلة قد أتممتني فوق ما ينبغي يوم معركة ، وكنت أودّ أن أكون قد تخلصت منه بطعنة خنجر ، فإني أشعر أني رجل حين أهرّ خنجر بيدي وقد غدا يريق عيني أشدّ من يريقه فيغلي الدم في عروقي ويخفق قلبي سروراً بالقتال . وما أشدّ ما يكون سروري حين يسقط ذلك العدو صريعاً تحت قدمي ويتخبط بدمائه فإن منظر تلك الدماء يسكرني .

وأما هذا القبو وهذه النافذة التي يسيل منها الماء إليه ، فلا لذة باستخدامها للقتل ، فإني لا أزال أسمع صوت تدفق الماء من تلك النافذة وسوف أسمع هذا الصوت المزعزاع ما حييت .

وعند ذلك هز رأسه وذل من سريره فارتدى أحسن ما كان عنده من الملابس وتجمل بما كان اختلعه من المجوهرات وتقلد حساماً طويلاً كانت قد اغتصبه من أحد الأشراف . ثم خرج ، وبعد نصف ساعة كان في قصر الدوج حاكم فينيسيا . وهناك أخرج من جيبه رسالة فدفعها إلى أحد الحجاب وسأله أن يوصلها إلى الدوج . فلم تكن غير منبهة حتى أمر الدوج بإدخاله إليه فنظر إليه نظرة تدل على عدم الاكتراث وقال له : إنك أعطيتني كتاب توصية من المولى دندولو رئيس ديوان التفتيش ، ولكن هذا الكتاب الذي يوصي بك خير وصاية لم يذكر فيه اسمك . ولولا ثقتي بالرئيس لما أذنت لك بالدخول إلي . فقال له ساندريجو : أنا يا مولاي التمس من الرئيس أن لا يذكر اسمي خوفاً من أن لا تأذن لي بشرف المثل بين يديك متى عرفت ذلك الاسم ، فاصبح لي الآن أن أذكر لك اسمي . فأشار الدوج بإشارة قبول ، فقال ساندريجو : إنك يا مولاي حين رقيت إلى أريكة الحكم في فينيسيا كان أول أمر أصدرته تعيين جائزة لمن يأتيك برأسي ، فإني أدعى ساندريجو ، وأظن أن هذا الاسم يكفي للتعريف بي . فاحمر وجه فوسكاري من الغضب وكان أول ما خطر له أن يأمر بالقض على هذا اللص الجسور وأن يعزل دندولو . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سكنته فقال في نفسه : إرت رئيس ديوان التفتيش لم يرسل لي هذا اللص إلا لأنه يجب الإبقاء عليه ، فقد كان يوسع أن يعامله معاملة اللصوص . ولذلك أطمأن وقال له :

- إنك الآن ضيفي ، ومائس كل ماضيك .  
- ولكنني أتيت يا مولاي كي أسألك تسليان هذا الماضي إلى الأبد .  
- أراك تتكلم بجرأة نادرة .  
- ويحق لي ذلك !

وقد قال هذا القول وهو يعلم يقيناً أنه يخاطر بحياته . ولكنه علم أنه لا يفوز إلا بالجرأة فقال : نعم يا مولاي ، يحق لي أن أكون جريئاً فقد خدمت الجمهورية خدمة جليلة وأنا قادر على أن أخدمها أيضاً خدمة أجل .

- ماذا تستطيع أن تفعل في خدمتها ؟

- أستطيع أن أتيها برأس رولاند كانديانو .

ففرج فوسكاري قرعاً لا يوصف ، فإنه لم يكن يفكر برولاند حتى يصاب بما يصاب به النائم حين يقاومه الكابوس ولا سيما بعد قراره من السجن . ولكنه لم يظهر شيئاً من ذلك السرور ، ومضى ساندريجو في حديثه فقال : وإذا شئت برهاناً يا مولاي على ما أقول فأعلم أنني بدأت بقتل سكالابرينو . وهذا الرجل لم يسيء إلي بشيء ولكنه كان عدو الجمهورية وكان شديد الخطر عليها .

- كيف يكون مثل هذا اللص خطراً على الجمهورية ؟

- لأنه كان مساعد رولاند الأمين ، فإن رولاند يضع الخطة وسكالابرينو ينفذها ، فكانا قوين باتحادهما . أما وقد بات رولاند وحده فقد ضعف وإن كان لا يزال قويّاً إلى الآن .



— ما هي قوتته ؟

— لقد أخبرك رئيس ديوان التفطيش يا مولاي ، أنه زعيم  
عصابات كثيرة تشبه الجيش فهو يستطيع بها أن يكون من  
الأقوياء . أما عرض رولاند من تأليف هذه العصابات فلا دخل  
لي به ، ولكنني أعيد عليك ما قلته لك وهو أنني أنا وحدي  
الذي أستطيع القبض على رولاند لأنني أنا وحدي الذي يعرف  
مكانه .. دعني أتم حديثي يا مولاي وسأرى أريك بعد إقامة ،  
فلإني بدأت يقتل سكانا بريئو فأكون بقتله قد جررت رولاند  
من خنجره . والآن أسمع لي أن أسألك سؤالاً ؟

— تكلم .

— أتعلم أين يوجد أسقف فينيسيا ؟

فظهر الاضطراب على وجه فوسكاري بالرغم عنه وقال :

الكردينال بيو ؟

— نعم ، الكردينال بيو الذي اختفى دون أن يعلم أحد

مقره . ولكنني أعلم أين هو .

— أنت ؟

— نعم أنا . فلن لي رقباء في الجبال كما لك نحواميس في

فينيسيا .

— إذن تقول أين هو الكردينال بيو ، فلماذا لم يكن قولك

من قبيل الإدعاء أصبحت تروتك مضمونة .

— أرى يا مولاي أننا قد بدأنا بالإفئاق . أما الكردينال

فلأنه الآن في قبضة رولاند كاندانو وهو حاقد عليك جداً هانك

دون شك لا أعلم أسبابه إذ ليس ذلك من شأني .

فاضطر وجه فوسكاري وحديق يساند ريجو كأنه يريد أن

يقراً سرائر قلبه فقد قال في نفسه : إن رولاند ما زال قد ظفر

بالكردينال فهو سيطفر بالنصارى ونددولو ... بي أنا !

ورأى اللص ما كان من اضطراب الدوج فوثق من انتصاره

عليه وقال له : لا يجب الاقتصار على معرفة مكان الكردينال بل

المهم إنفاذه وإرجاعه إلى فينيسيا . وأنا أتعهد بذلك ، فلإذا

أردت كانت الكردينال غداً عندك وإذا أردت جئت أيضاً

برولاند مكتوف اليدين والرجلين . فقال الدوج : ماذا تريد

مقابل ذلك ؟

— أأأذن لي أن ألتص يا مولاي ؟

— قل .

— إني سمعت يا مولاي عيش القشر وعلمت أنني ما خلقت

لأعيش شريداً طريداً ، وعلى الجملة فلإني أحب أن أعيش في

فينيسيا .

— إني أعفو عنك عفواً كاملاً فتعيش فيها .

— لقد نلت هذا العفو يا مولاي من رئيس ديوان التفطيش فلا

تكون قد أمنت عليّ بشيء .

— إذن ماذا تريد ؟

— أريد منصب قائد في الجيش فلإني لا أستطيع القبض على

رولاند إذا لم يكن لي شيء من السلطة .

فأطرق فوسكاري مفكراً وكان من أهل المضاء في العزبة

فقال في نفسه : إن هذا الرجل قد يفيدني فوائد كثيرة وكفى  
أنه سيفيدني من رولاند ، فأية خسارة عليّ إذا عينته في الجيش ؟  
وفوق ذلك فما يعني أن أبطش به بعد أن يجيئي برأس رولاند ؟  
وعند ذلك نظر إليه وقال : إنك تسألني أمراً كبيراً . قال :  
إني عارف بحسامة مطلبي يا مولاي ، ولكن رأس رولاند وإنقاذ  
الكردينال يساويان هذا المنصب الذي أطلبه . وغداً عندما  
يكون صديقك الكردينال عندك تبجحان فيما إذا كنت أستحق  
هذا الجزاء .

فقام فوسكاري إلى درج وأخرج منه ورقة وكتب عليها  
بيده صورة الأمر لتعيينه ثم ختمه واثوله بإبه . فالتحق ساندريجو  
وقال : لا أجد كلمة تعبر عما في قوايدي من الامتنان لمولاي  
سوى أنني مستعد لسفك دمي في سبيل مجده . فقال فوسكاري :  
بلى أسفك في سبيل مجد الجمهورية فنحن جميعنا من خدامها .  
وعلى ذلك فإنك ستأتي غداً بالكردينال كما قلت .

— هو ذلك يا مولاي ، فسيكون غداً عندك وهو يحبرك بما  
لديه من قوة رولاند . أما رولاند فسيكون في قبضة يدك  
بعد شهر .

— حسناً ، فاذهب يا حضرة القائد .

فارتعش ساندريجو سروراً وهو يقول في نفسه : لقد  
أصبحت يسانكا لي دون مزاحم .

ثم أسرع للعودة إلى قصر أمباريا . وكانت أمباريا تنتظره  
ببله الجزع منذ أمس فقد مضى يوم وليلة دون أن يأتي إليها كما

وعد . فلما وصل استقبلته في الحال فقال لها : هل تمعت يا  
سيدتي ؟ قالت : كل ما تمعت فيه هو أنني كنت أنتظرك ، فإن  
ابنتي في قبضتك ولك القوة الآن !  
— ولكنك تافين من ترويع بنتك بلص .

فارتجفت أمباريا لأنه كان يعبر بها قاله عن أفكارها ،  
ولكنها كانت تخشى أن تثير غضبه ، فقال لها : لا تخشي أنت  
تقولي كل ما تفتكرين به ، وفوق ذلك فإنك لم تكني نفورك  
وهو نفور طبيعي ، فلم كنت في مكانك لما فعلت إلا ما تفعلين .  
— ماذا تعني ؟

— لا أريد بكلامي غير ما هو ظاهر من معناه فإن يسانكا  
فتاة طاهرة نقية جميلة لا يجب أن تكون امرأة لص .

فارتجفت أمباريا وخشيت أن يكون متهكماً في مقاله .  
ولكن ساندريجو شكك في هيئة الرزاة والجد بما يوافق منصبه  
الجديد فقد كان في الصباح أصلاً فأصبح الآن من قواد الجندرمة  
وشأن الجندرمة جليل في ذلك العهد .

وقد جعلت أمباريا تنظر إليه دون أن تجيب فقال لها :  
أترجحين ابنتك من رجل له منصب رسمي في فينيسيا ؟  
— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به رجلاً له منصب في الجيش .  
— نعم ، لقد التفتحت عن ذلك ولكنه بعيد التحقيق بل هو  
مستحيل .

— أتحسبن حقيقة أنه يوجد أمر مستحيل في هذا الوجود

على رجل قوي الإرادة ، ولا سيما حين يستمد هذه القوة من الغرام ؟

— الغرام ؟

— لا تخشي ، فإني أقسم لك أنني احترمت بفتك وذلك لأنني أحبها حقيقة ، أتتبعين بقولي ؟

— نعم .

— يسرني أن أرى منك هذه الثقة وأن لا أكون في عينيك ذلك اللص بل ذلك الرجل الذي أحب ابنتك حباً طاهراً دعاه إلى احترامها ، فإذا تقولين لي إذا تكنت بالقوة والبسالة والجرأة والحيلة من بلوغ تلك الأمنية التي تحبينها مستحيلة ؟ قالت : أقول إنك عملت عملاً عظيماً لأن الموانع التي تعترضك عظيمة .

فأبستم ساندريجو وقال : لقد أصبت يا سيدتي فإن الحكومة عينت جائرة لمن يقتلني ، وإذا أراد أحد خدمك أن يشي بي نال ثروة ، وإذا لقيني رجل في الطريق فمررتي وقتلني لا يعاقب بذنبه بل بكافأ عنه . ولذلك لا أستطيع نيل الأمنية التي أرجوها إلا إذا خدمت الحكومة خدمة جليلة . وقد يكون ذلك غير كاف أيضاً فربما احتجت إلى إنقاذ الحكومة نفسها من خطر شديد .

كان ساندريجو يقول هذه الأقوال وأمباريا تنظر إليه وهي معجبة بما يقول . وعند ذلك ضحك اللص وأخرج من جيبه ذلك الأمر القاضي بتعيينه فدفعه إلى أمباريا وقال : لقد تم المستحيل يا سيدتي فخذني واقراي .

فأخذت المخطئة الورقة وقرأت كل ما فيها فلم تذهل ولم تتعجب فإنها كانت تعتبر منذ هنية جديراً بمثل هذه الأعمال العظيمة . فلما أتمت القراءة أطرقت صامته ، فقال لها : ما بالك لا تحبين على سؤالي يا سيدتي ؟

— أي سؤال تعني ؟

— هل تريد أن تزوجي ابنتك من القائد ساندريجو ؟ فإذا رضيت كانت ابنتك عندك بعد ساعة .

فهبجت أمباريا عليه فطوقت عنقه بذراعها وقالت له : نعم يا ساندريجو لقد رضيت فإنك خير كفو لها .

\*

كان ساندريجو قد أقام بيانكا في الطابق العلوي من الحارة كما تقدم فأقامت ثلاثة أيام وهي على أسوأ حال لا تعلم أين هي ولا ماذا يريدون منها ولا تعرف هذا الرجل الذي ادعى أنه موقد إليها من قبل أمها .

غير أنها وقفت في هذه الأيام الثلاثة أنهم لا يريدون بها شراً ولكنهم كانوا أقاموها في غرفة ضيقة لا توافد لها تشبه غرف السجن . وكانت تأذي إليها كل يوم امرأة صماء خرساء يسدليل أنها لم تكن تتكلم ولا تحجب الفتاة على أسئلتها فتأنيبها مرتين في كل يوم بظعام طيب لم تكن بيانكا تأكل منه غير القليل فتتضي أوقات وخدمتها بالبيكاه .

وفي اليوم الثالث ضاق ذرعها وأيقنت أن سجنها سيطول

وأنهم سيفرقون بينها وبين أمها إلى الأبد.. وفيما هي على ذلك وقد عاد اليأس يضل صواها فتح الباب ودخل منه ساندريجو فمرقته لقورها وتراجعت خائفة مندعة . ولكنه دنا منها وقال لها بلهجة تكلف فيها الجنون : لقد انتهت متاعبك فإذا شئت أن تلاقى أمك فاتبعيني .

قالت : ولكنني أخشى أن تستبدل سجنى بسجن آخر . قال : لقد أفتك هنا أكثر مما كنت أريد ، ولكن ذلك ليس بخطئي وستخبرك أمك بصدق مما أقول ، فتعالى يا سيدي دون خوف فإن القارب ينتظرك وبعد هشة تكونين بين ذراعي أمك التي تشرفتني بصداقتها .

وعند ذلك مد لها يده فابت يانكا أن تتوكل عليها وسارت في أثره وهي خائفة مضطربة لا تصدق ما قاله هذا الرجل عن صداقته لأمها إذ أبته علاقة يمكن أن تكون بينها ؟

وبعد ساعة كانت يانكا بين ذراعي أمها ومما تبكيان سرورا بهذا اللقاء حتى إذا سكن نثر شوقها قالت لها أمها : أعرفتك يا ابنتي بالستور ساندريجو أحد قواد الجندرية وأحد أصدقائي المخلصين الذي ما رجعت إلي إلا بفضل فاحبته يا يانكا فهو جدير بحبك وبخي .

فاحفر وجه يانكا رجعت بحيل نظرها بين أمها وساندريجو وقد بات خوفها من أمها أشد من خوفها من ساندريجو . فلما خلت بنفسها جعلت تبكي وتقول :

أين أنت يا جواز الطيبة الشريفة ؟ وأنت أيها الرجل النبيل

الذي هاني أين أنت ؟ إن نظرة واحدة منك كانت تكفي كل شيء !

## اللقاء وحسين

\*

خرج ساندريجو من قصر أمباريا وهو يكاد يطير سرورا فبحر فينيسيا للفرد وصار في طريق مغاور بيافا فوصل في الساعة التاسعة إلى قرية تريفيزا ودخل إلى أحد بيوتها ولقي فيه اثني عشر رجلا مجتمعين ، وكلوا مضطجعين على الأرض حول حوقد ولكنهم لم يكونوا نائمين دون شك فلأنهم حين دخول ساندريجو وقفوا جميعهم إكراما له . وهو بعد عتاء أربعة أشهر لم يستطع أن يجمع غير هذا العدد القليل من رجال عصابته القدماء في الجبال ولكنه حشد في فينيسيا عصابة خطيرة كانت مركزها العام بخارة مرمى الذهب كما رأينا .

فتفقد ساندريجو رجاله وقد ظهرت عليه علامات الرضى فقال : لقد اجتمعتم كلكم هنا ، فكيف يبلغ عددهم هناك ؟ فأجابه أحداهم وكان نائبا في غيابه ، قائلا : إنهم ستة فقط ، أربعة عند باب المغارة واثنان عند باب غرفة السجن . قال : إذن لا بد لنا



من الفوز ، ولكن يجب أن تفاجئهم مسرعين . قال : نعم ، فإن  
سكالا برينو قد مرّ من هنا منذ يومين ويخشى أن يعود . قال  
ساندريجو : لا تخافوا سكالا برينو بعد الآن فقد سددت معه  
حسابي القديم ولا تنسوا ما وعدتكم به فإن الكثر في المغارة  
فيجب أن تبهجوا عنه فيها حتى تجذوه ومتى ظفرت به يكون  
النصف لكم .

فاتفقت عيونهم ببسارق من السرور ، ومشى ساندريجو  
أمامهم وهو يقول : إذن هلموا بنا .

فخرج الجميع من المنزل وسار كلّ منهم في جهة حسب  
الأوامر التي تلقاها . وسار ساندريجو في طريق المغارة السوداء  
حتى إذا وصل إلى مسافة ألف خطوة منها اختبأ وراء الأدغال  
وأقام يلتظر .

وبعد ساعة سمع صغيراً فقال : لقد قضي الأمر . وأسرع إلى  
المغارة فدخل إليها فوجد أربعة رجال مقيدون فقال له نائبه :  
لقد كملوا ستة فاضطربوا إلى قتل اثنين . فأشار ساندريجو بإشارة  
تدل على عسك الإكثارات ثم نظر إلى الأسرى وقال : فكروا  
قيودهم . فكفوا قيودهم ، وعند ذلك دعا ساندريجو منهم فقال  
لهم : لقد كنتم من رجال عصائبي فترتم عليّ وخضعت لرجل لم  
يكن في شيء منا بل لا يمكن أن يكون .

وأما الآن فإني قادم من فينيسيا حيث لقيت كبار أهل المناصب  
وعرفت منهم حقيقة هذا الرجل الغريب الذي جاء إلينا ليلقي  
بذور الشقاق بين عصابتنا . أتمتعون من هو هذا الرجل الغريب

الذي وليتموه الزعامة الكبرى عليكم ؟ إنه أحد عملاء مجلس  
العشرة . وخطته بسيطة واضحة وهي أنك تحاول أن يحمل  
عصابات الجبل على الثقة به ثم يأتي بهم إلى فينيسيا وهناك يقبض  
عليهم جميعهم مرة واحدة .

فصاح به أحد الأسرى قائلا : لقد كذبت ! فأخذ ساندريجو  
غداثته فوضعا على صدغ الأسير وقال له : أنت واثق من أني  
كذبت ؟ قال : نعم ، إنك من الكاذبين . فأطلق ساندريجو  
الرصاص عليه وسقط ذلك المسكين يتخبط بدمه وقد مات  
شهيد وقائه لرولاندا .

أما ساندريجو فلم يكتفئ لما فعل وعاد إلى مخاطبة الأسرى  
فقال : أريدون أن تكونوا معنا ؟ أريدون أن تذهبوا إلى  
رفاقكم المشردين في الجبال فتخبروهم بما قلته لكم وتظفروا لهم  
ذلك الحظير العظيم الذي يتهددهم ؟ وإذا كنتم حقيقيين من اللصوص  
فلا بد لكم أن تقتلوا وأن تنقذوا إخوانكم . أما أنا فإني أنسى  
الماضي وأجعل لكم خطاً من هذا الكثر الموجود هنا . فقال  
أحدهم : إني أقبل . وقال الثاني : إني رضىت .

وسكت الثالث فقال له ساندريجو : ما بالك لا تجيب ؟  
ألم تكن تريد أن تنقذوا أو هذا القليل ؟ قال : نعم ، فإني أؤثر  
كل موت على الحياة ، فما أنت إلا من الكاذبين ، فاضرب  
يا ساندريجو .

وقبل أن يتم لفظ اسم ساندريجو سقط قتيل ، فأدار رفيقه  
رأسه كي لا يريا هذا المنظر ، فقال لها : لقد أصبحنا الآن معنا

ونسيت كل ما مضى منكنا ، ثم ذهب إلى قائه ومضى في أذنه  
قائلاً : يجب أن تبألع في مراقبتها وإذا خفت منها الحيانة  
فاحذر أن تكون رحيماً ، وبعد ذلك نظر إلى الجميع وقال :  
إبدأوا الآن التفتيش عن الكثر ، فصاح الجميع صياح الفرح  
وتواروا عن الأنظار في تلك المغارة الكثيرة الشباب .

أمسا ساندريجو فإنه ذهب إلى قلب المغارة ويده مشعل  
فوصل إلى باب تحكم الأقفال ووقف عنده يصغي فلم يسمع حساً  
فقال في نفسه : أليكون قد مات ؟ ثم فتح الباب بالفتاح التي  
أخذها من الأسرى ودخل إلى ذلك السجن فرأى في أحد زواياه  
رجلاً متريماً وقد تفرقت ملابسه ورقق ونحل حتى ذهب لحمه  
ولم يبق فيه من دلائل الحياة غير هريق عينيه !

وكان هذا الرجل الكرديشال يبو .  
فلما رأى الكرديشال ذلك الرجل داخل عليه يحمل مشعلاً  
بيده وفي منطقتة ذلك الخنجر المصبوغ بالدماء تراجع زاحفاً  
منزعجاً حتى التصق بالجدار وهو يقول :

— إنك قادم لقتلي كما أرى ، فإن رولاند كاندريانو الذي انتزع  
الرقم من قلبه لم يكفه هذا الانتقام الذي انتقمه مني فأراد أن  
يتعمد بقتلي ! فقال له ساندريجو : إطمئن ، ولكن يبو لم يسمع  
هذه الكلمة وقال بلهجة المنذر :

— ألم أكفّر بعد عن ذنبي ؟ نعم إن ذنبي كان عظيماً والآن  
وازنت بين شقائي وبين ما حملت رولاند من الشقاء فمليت  
مقدار إسماعلي إليه . ولكن لكل شيء حدة حتى العقاب ، فقل

لرولاند الذي هو رجل مثلي إن العقاب الأكبر بيد الله لا بيده ،  
فإن الله المنتقم الجبار يغفر أيضاً لمن يتوب ويندم ندامة صادقة .  
وأنا نائب نادم ، إنني أقضي جميع أوقاتي بالصلاة والاستغفار  
ولكن لا يسمعي أحد .

وجعل الكرديشال عند ذلك يقرع جبهته بالأرض ويلتمس  
ويستغفر ، فنظر إليه ساندريجو نظرة ازدراء وقال في نفسه :  
ويج للرجال كم يغيرهم الشقاء ! فقد كان هذا الرجل يخافه الناس  
وكان لا خير له ولا ذمة ولا رحمة ولا قلب فأصبح عند الشقاء  
جازعاً ضعيفاً يشبه الطفل الذي يخاف في ظلمات الليل فيستغيث  
بأمته . ووالله في لو لم أتعمد للفوسكارى بإحضاره إليه لتركته  
يموت في هذا السجن فإنه لا يستحق الحياة .

ثم قال له : إنهض يا حضرة الكرديشال فإنك من أمراء  
الكنيسة ويجب أن تركع أمامك لا أن تركع أمامنا فانت الآن  
حرّ طليق . فلبث يبو جاثياً وقال :

— أنا ... حرّ ... طليق !؟

قال : ألم أقل لك ذلك ؟ فانهض فانت حرّ أن تخرج من هنا  
وأن تعود إلى قينيسيا وإلى مقامك في الهيئة الاجتماعية وقصر  
الدوج الذي ينتظرك .

— أنا حرّ !؟ إذن لقد عفا عني رولاند ! إذن لم يخطئ  
ظني فيه ، فهو الرجل الطيب الكريم الأخلاق الذي أسأل الله  
أن يباركه عني !

وقد سالت الديموع الغزيرة من عينيه وحاول أن يقف ولكنه

سقط فقال : رباه ، ألا يكون مراده تعذيب الرجاء الكاذب بعد اليأس كما عذبتة أنا حين زرتة في السجن ؟

فأنهضه ساندريجو وهزه هزاً عبقياً وقال : لا شك أنك قد فقدت صوابك ، وإلا فما معنى هذا الملح بعد أن قلت لك إنك حرّ ، وليس رولاند الذي يطلق سراحك فتدعو له هذا بل أنا الذي أنقذتك ، فتعال معي .

وعند ذلك جدّ إلى خارج المغارة بيتاً كان اللصوص يشغلون بنقب جدرانها باحثين عن الكنز . فلما تشقّق الكردينال هواء الجبال الثمي ورأى النجوم تتقد في السماء وقف هنيئاً وهو مندهش مأخوذاً فأجلسه ساندريجو على حجر وصفاه كأساً من الخمر فشرّبها جرعة واحدة .

وهذأت أفكاره بعد أن كان مصاباً بما يشبه الذهول ، فنظر إلى ما حواله وبدأ يعلم ما مضى فقال لساندريجو :

— من أنت ؟ أذكر لي اسمك يا منقذي كي أردّده في صلواتي ما حييت !

فأجابه ساندريجو قائلاً : إني أدعى ساندريجو !

— ساندريجو ؟

— نعم ، من قرّاد الجندرية في فينيسيا !

— ألعنتهم أرسلك لإفناذي ؟

— كلا ، بل أرسلت نفسي . وإذا كنت أنقذك فلأنّ إنقاذك

يروق لي .

— إني أباركك مهما كان قصدك !

وأخذ عند ذلك بد ساندريجو بين يديه فضغط عليها إشارة إلى امتنانه ، ثم جعل يركض في ظلمات الليل كأنه لا يزال غير واثق من أنه بات حراً طليقاً . وطال طوافه بضع ساعات بحيث أنه لم يعد إلى المغارة إلا حين طلوع الشمس . وقد فكر ملياً أثناء طوافه وأطمأنّ باله حتى عادت إليه سكينته ودهاؤه .

فلما رآه ساندريجو قال له : إني أؤثر أن أراك كما أنت الآن على ما كنت عليه !

فقال الكردينال : هل تتبعني ؟

— أية فائدة لي من أن أتبعك فقد كنت واثقاً أنك ستعود .

— إذن أنا حقيقة حرّ ؟

— أما رأيت ذلك بالبرهان ؟

— هو ذلك ، فإلى أين تريد الذهاب بي ؟

— إلى فينيسيا حيث ينتظرونك .

— من الذي ينتظري ؟

— الدوج فوسكاري ، كما قلت لك .

— حسناً ، فلنذهب في الحال .

— بل يجب أن تأكل كي تتقوى ثم تغير ملابسك ، ألا ترى

أنها باتت رقماً بالية ؟

وقد دلت ساندريجو عند ذلك على قاعة في المغارة كان فيها

مائدة عليها طعام وشراب وهناك فوب تأمّن من ملابس الفرسان .

فبدأ الكردينال بلبس الثوب ، ثم أكل وشرب ، وخرج الإثنان

من المغارة قركبا جوادين ومهما بالرحيل . وقبل أن يرحلا نادى



ساندريجو أحد اللصوص فقال له : ألم تفتروا على شيء ؟ قال : كلا . قال : عودوا إلى البحث عن الكنز فإني رائق من وجوده في هذه المغارة . فبرز اللص رأسه إشارة إلى يأسه من لقائه . فقال ساندريجو : لا بد أن تجدوه لو نسقم الجبال .

ثم أطلق لجواده العنان واقتدى به الكردينال فاجتازا قرية ترفيزا وسارا في طريق تريفيزا كي يذهبا منها إلى ميستر ومن هناك إلى بحيرات فينيسيا . وبدأ الكردينال الحديث فقال : إني أعيد عليك ما قلته وهو أنني ممتن لك إلى الأبد ! فقال ساندريجو : إني أقبل امتنانك الأبدى بالرغم من اعتقادي بأنه لا يوجد شيء أبدي في هذا الوجود ، حتى ولا امتنان كردينال !

فلم يحبه الكردينال على تحبكه وقال : لقد قلت لي حين أنفذتني في الليل أقوالاً لا أدكرها لاضطرابي في ذلك الحين ، ولكني لا أزال أدكر أنني سمعت منك اسم رولاند .

— نعم ، فقد سألتني إذا كان هو الذي سفع عنك . فانتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال : أعمل هذا الرجل من أصحابك ؟ قال : إن صداقته لي تشبه صداقة العاصفة للثوقي ، وصداقة الثمر للوعل . نعم ، إني أكره هذا الرجل بـلـه جوارحي . ولولا يقيني أنك تكرهه أشد مما أكرهه لما أنفذتك ولتركتك تموت في سجنك . أقول هذا وأنا أرجو أن تمزقني لحرقتي .

— قل ما تشاء فإني ما سررت بحبائقي بمثل ما أسمع الآث منك .

— إذا كان ذلك فلنتكلم بحلاء ، فاعلم إذن أنك غير مدين لي بشيء . وذلك أنني لم أنفذك لقائدتك بل لقائدي إذ أرجو أن تكون لي أشد سلاح على مقاتلة رولاند .

ثم ابتسم وقال : إني ضربه ضربات شديدة ولكني أرجو باعتمادك عليك أن أضربه الضربة القاضية .

— إعتقد علي ولكن يجب أن أعرف هذا الحليف الذي تعاهدت وإياه على الهجوم وقد عرفت من أنا في حين أنني لم أعرف من أنت .

— لقد قلت لك إني قائد في الجندمة تحت إمرة ألتباري القائد العام . ولكني لم أتل هذا المنصب إلا من عهد قريب فقد كنت قبله من اللصوص .

فنظر إليه الكردينال نظرة إنكار ، فأجابه ساندريجو على نظره قائلاً : إن ذلك يدهشك دون شك . ولكنت حين تصل إلى فينيسيا تعلم عني أموراً كثيرة من رجل تثق به كل الثقة . — من هو ؟

— هو الدوج فوسكاري .

— حسناً ، فاصبر إلى أن أراه فأقول لك ما أريده منك . والآن قل لي ما تريد مني .

فأطرق ساندريجو هتية مفكراً وقال : إني أطلب إليك قضاء أمرين : أحدهما أن تعينني بكل قوتك على رولاند كاندبانو .

— لقد اتفقتا على هذا الطلب . فما هو الثاني ؟



- إن طليبي الثاني سيبدو لك غريباً يا حضرة الكردينال .  
 فقد كنت لصاً قبل أن أكون قائداً . ولكن الصومس محبوب ،  
 كما يظهر ، كسائر الناس . وقد أحببت فتاة ...  
 - أتريد أن أساعدك على رضى أهلها بزواجك ؟  
 - كلا ، فإنني لا أعتمد على أحد في مثل هذا الشأن .  
 - إذن ماذا تريد ؟  
 - لقد كنت بالأمس لصاً وأصبحت اليوم قائداً فأريد أن  
 يكون لي مقام بين العائلات الإيطالية ولا سيما لامرأتي .  
 - لماذا يكون لامرأتك مقام ؟  
 - الأمر سوف تعلمه ، فإن الأسرار النبيلة تستقبلها ببورود  
 وأنا أريد أن يدخل القائد ساندرينجو وامراته إلى أرفع بيت وهما  
 شايخا الرأس .  
 - ماذا يجب أن أعمل لتحقيق هذه الأمنية ؟  
 - يجب أن تحضر حفلة زواجي أشرف العائلات ، وأن  
 تكون الحفلة باهرة ، وأن يعقد قرأتنا أعظم رجال الكنيسة في  
 فينيسيا ، أي الكردينال بيو بنفسه .  
 - إذن أنت أنقذتني لهذه الغاية ؟  
 - كلا ، بل إنني أنقذتك من المغارة السوداء لاعتقادي أنك  
 تحمل من الحقد على رولاند فوق ما أحمل . ولا أنكر عليك أنني  
 حين سمعتك تتوسل وتنتي على كرم رولاند ندمت وعزمت على  
 التخلّص منك . غير أنني رأيت ولا سيما بعد هذا الابتسام الذي  
 تبسمه الآن أن حقدك عظيم عليه ، وهو رجل شديد يستحق

عنه المؤامرات عليه .  
 - وأنا أرى رأيك ، فلنسرع إذن فإنني ما زلت في هذه  
 الجهات لا آمن على نفسي .  
 وقد جدّ الإثنين عند ذلك السير . وبعد ساعة دخلا إلى  
 سراي الدوج فقال ساندرينجو لفوسكاري : أرايت يا مولاي  
 كيف وفيت بوعدتي ؟  
 فشكره الدوج بإشارة وجعل ينظر إلى بيو وهو معجب  
 بتغييره ، فإن سجن بضعة أيام فعل به ما لم يفعله رولاند سجن  
 ستة أعوام . فأدرك بيو سرّ نظراته وقال له : نعم ، لقد تغيّرت  
 كثيراً ، فإن كل دقيقة مرّت بي في ذلك السجن الهائل كانت  
 بمثابة عام . ثم قال له بصوت منخفض : يجب أن نتحدث .  
 قال : في هذا المساء .  
 - أين نجتمع ؟  
 - حسب العادة ، في جسر التهديدات .  
 - حسناً ، فأوافقك . ولكن أعلنت أن رولاند في قيد  
 الحياة ؟  
 - نعم لقد علمت !  
 - إنه حاقد علينا حقداً شديداً . وانتقام هذا الرجل هائل  
 كما علمت بالبرهان .  
 وكان فوسكاري شجاعاً بقدر ما كان بيو جبّاناً ، ومع ذلك  
 فإنه ارتعد فقال له بيو : يجب أن نخدر لأنفسنا كلّ الحذر وأن  
 نتخذ الوسائل السريّة فننقّص انقضااض الصاعقة أو يقبض

علينا رولاند الواحد ذو الآخر ، فإن هذا الرجل أشد وأقوى  
ما كنا نتوقع .

— سنجتمع في هذا المساء .

ثم التفت إلى ساندريجو وقال له : أشكرك يا حضرة القائد  
لإنقاذك الكردينال فأنت من أشد أعواننا . ورجائي أن تستمر  
على خدمة الجمهورية مثل هذه الخدمات الجليلة وأن أستمّر على  
ترقيتك بما ينطبق على كفاءتك !

فأخنى ساندريجو شاكرًا وهو يكاد يطير سرورًا ثم استأذن  
من الدوج وخرج مع الكردينال إلى قصره . وهناك قال له  
الكردينال : لقد مشيت الآن أيتها الصديق في طريق الثروة  
والسعادة ، فإن فوسكاري لا يرجع عما يعده به . وأما أنا فلأني  
سأساعدك بكل قوتي .

— وأنا معتمد عليك دون شك .

— إذن عد إليّ غدًا فلأني مضطرّ هذه الليلة إلى مشاورة  
رجل لا بدّ لي من استشارته وغداً نتحدث ملياً فيما يفيد .

— وأنا سأبدأ عملي منذ اليوم ولكن ألا تستطيع أن تحببني  
الآن عما سألتك إياه ونحن في طريق البحيرات ؟

— ماذا سألتني ؟

— أن يحضر حفلة زواجي جميع نبلاء فينيسيا ، ويعقد لي في  
الكنيسة الكاتدرائية ، ويتولّى عقد القران الكردينال بيبو  
أسقف فينيسيا .

— إنه شرف عظيم لا يُمنح عادة إلا لأكابر الناس . ولكنني

لا أستطيع أن أرفض شيئاً مما تطلبه وسيكون ما تريد ، فقل  
لي ماذا تدعى تلك الفتاة .

— إنها تدعى بيانكا ، وهي ابنة المحظية أمباريا .

وعند ذلك أخنى وانصرف ، فبقي بيبو وحده دون حوارك  
كأنما الصاعقة قد انقضت عليه . ولم يشب إلى رشده إلا بعد حين  
فجعل يقول : بيانكا ؟ إنه يريد أن يتزوج بيانكا ، وأن أتولى أنا  
عقد القران ؟ فباله من أبه !

ثم ضحك ضحكاً هائلاً وقام وغَيَّرَ ملابسه وخرج من منزله  
فركب قارباً وسار به إلى قصر أمباريا فصعد السلم وهو يضمّ  
قبضته منذراً متوعداً يقول في نفسه : إني أقتل الإثنين ولا  
أسمح بثقل هذا الزواج .

وفي ذلك الحين رسا قاربٌ عند باب قصر أمباريا وخرج  
منه رجل .

أما هذا الرجل فقد كان ساندريجو .

تم الجزء الأول من هذه الرواية الشيقة

ويليه الجزء الثاني والأخير

وهو بعنوان : « عشاق فينيسيا »